تسليمة نسرين

العار

رواية

ترجمة: عصام زكريا

• العار – رواية

• تسليمة نسرين

• ترجمة: عصام زكريا

• الطبعة الأولى ١٩٩٩

• تصميم الغلاف: أحمد كريم منصور

• إخراج: أمل عصفور

• الكمبيوتر والعمليات الفنية لدار آرام.

دمشق – سوريا – هـاتف :٦٣١٦٨٧٠ – ٦٨١٦٢٣٤

تلفاكس : ٦٣١٦٨٧٠

ص . ب : ٣٦١٣٠

إهداء المؤلفة

إلى شعوب شبه القارة الهندية

تسليمة نسرين

مقدمة المؤلفة

أنا أكره الأصوليين والطائفية. كان هذا سبب كتابتي لرواية "العار" فور هدم مسجد بابري في أيودها بالهند في ٦ ديسمبر ١٩٩٢. هذا الكتاب، الذي استغرقت كتابته سبعة أيام يعالج اضطهاد الهندوس، وهم أقلية دينية في بنجلادش، على يد المسلمين، الذين يشكلون الأغلبية، إنه أمر مخز أن يتعرض الهندوس في بلدي للملاحقة على يد المسلمين بعد هدم مسجد بابري.

نحن الذين نحب بنجلادش لا بد أن ينتابنا الخجل من حدوث مثل هذا الشيء البغيض في بلدنا الجميل.

أحداث عنف ١٩٩٢ في بنجلادش هي مسؤوليتنا جميعاً، وعلينا يقع اللوم. نشرت "العار" في فبراير ١٩٩٣ في بنجلادش، وبيع منها أكثر من ٦٠ ألف نسخة قبل أن تصادرها الحكومة بعد خمسة أشهر، وكانت حجتهم أنها تعكر صفو السلام الطائفي. وفي سبتمبر من نفس العام صدرت ضدي فتوى من إحدى المنظمات الأصولية أباحت دمي، وأعلنت عن مكافئة لمن يقتلني. وشهدت شوارع دكا مسيرات، طالب فيها المتعصبون بقتلي. ولكن شيئاً من هذا لم يهز إصراري على مواصلة المعركة ضد الاضطهاد، والإبادة، والطائفية الدينية. بنجلادش هو وطني، ولقد حصلنا على استقلالنا عن باكستان مقابل حياة ثلاثة ملايين شخص، إننا نخون هذه التضحية إذا سمحنا لأنفسنا بأن يحكمنا التطرف الديني.

"آيات الله" سوف يقتلون أي شيء متقدم في بنجلادش إذا سمحنا لهم بالانتصار، وواجبي هو أن أحاول حماية بلدي الجميل منهم، وأن أدعو كل الذين يشاركونني قيمي إلى مساعدتي في الدفاع عن حقوقي.

مـرض الأصوليـة الدينيـة لا يقتصـر علـى بنجـلادش وحدهـا،
كن لا بد من محاربته في كل مكان، بالنسبة لـي لسـت خائفـة مـن
يّ تحدٍ أو تهديدٍ لحياتي. سوف أواصـل الكتابـة والاعـتراض علـى
الاضطهاد والتعصب.

وأنا مقتنعة بأن الوسيلة الوحيدة لإيقاف قوى الأصوليـة هـو أن
ضـامن جميعـاً، نحـن العلمـانيين والإنسـانيين، ونحــارب تــأثيرهم
مميت، أنا عن نفسي لن أسكت. هـذه روايـة وكـل شـخصياتها مـن
حـي خيـالي، وأي تشـابه تحملـه مـع أشـخاص حقيقيين، أحيـاء أو
وتـى، هو مصـادفة بحتـة. لقـد أضفـت إلـى النـص حـوادث عديـدة،
حداثاً تاريخية فعلية، وحقائق وإحصائيات. وقد تحققت من صـحتـها
در استطاعتي، ومصـادر معلوماتي تضـم: إكواتـا، اذكـر كـاجوز،
بور كاجوز، جلاني، الخزي، الاضطـهاد الطـائفي فـي بنجـلادش،
قائق ووثائق باريشارد بارتا.

دكا _ مارس ١٩٩٤
تسليمة نسرين

ترتيب زمني للأحداث

* ١٩٤٧ تم تقسيم شبه القارة إلى الهند وباكستان في ١٥ اغسطس، في نفس يوم رحيل القوات البريطانية عن الهند، وتم تقسيم البنغال بالمثل، فأصبح شرق البنغال جزءاً من باكستان.
* ١٩٥٢ البنغال الشرقية التي كانت معروفة بباكستان الشرقية شهدت حركة شعبية من أجل إعلان البنغالية لغة قومية.
* ١٩٦٦ طُرح اتفاق من ست نقاط يقضي بالحكم الذاتي لباكستان الشرقية.
* ١٩٦٩ ثار شعب باكستان الشرقية ضد النظام الحاكم الديكتارتوي.
* ١٩٧١ في مارس حصلت باكستان الشرقية على الاستقلال، وأصبحت دولة بنجلاديش المستقلة. على أية حال استمر الصراع لتسعة أشهر أخرى، حتى انتهى بخروج آخر جندي باكستاني في ١٦ ديسمبر ١٩٧١، وهو اليوم الذي أصبح عيداً قومياً باسم" بيجويا ديباس" أو "يوم النصر".
* ١٩٧٥ أطاح انقلاب عسكري بحكومة الشيخ مجيب الرحمن.
* ١٩٧٨ تم تعديل الدستور البنغالي الذي ينص على أن "العلمانية" واحد من المبادئ الأساسية له ليصبح الإسلام الدين القومي للدولة.
* ١٩٩٠ نتيجة للصراع على مسجد بابري في مدينة أيودها بولاية أتار براديش الهندية اندلعت اضطرابات طائفية واسعة النطاق في بنجلاديش.
* ١٩٩٢ في أعقاب هدم مسجد بابري في ٦ ديسمبر، اندلعت أحداث العنف في بنجلاديش ضد الأقلية الدينية الهندوسية التي تعرضت لاضطهاد شديد.

اليوم الأول

كان سورنجان راقداً في فراشه. حين دخلت أخته نيلانجانا، التي يطلقون عليها اسم مايا، الغرفة مرة أخرى وقالت:

- دادا، ألا تنوي أن تستيقظ وتفعل شيئاً قبل فوان الأوان؟

عرف سورنجان أن مايا تريد منه البحث عن مكان يختبئون فيه مؤقتاً من الخطر الذي يتهددهم. لكن مزاجه كان معانداً. لماذا ينبغي عليه الهروب من بيته، لمجرد أن اسمه سورنجان دوتا؟

هل من الضروري لأسرته، أبوه سودهاموي وأمه كيرونموي وأخته نيلانجانا، أن يهربوا مثل المطاريد بسبب اسمائهم؟ هل يجب أن يبحثوا عن ملجأ في بيوت كمال، أو بلال، أو حيدر كما فعلوا منذ عامين؟

تذكر هذا اليوم ٣٠ أكتوبر ١٩٩٠، بوضوح.. كمال الذي يعيش في إسكاتون، خاف عليهم من التعرض لأي مكروه، فقطع الطريق الطويل إلى بيتهم وحثّهم على مغادرته، والذهاب معه. لم يكن هناك أي تقصير في كرم ضيافة بيت كمال. كانوا يفطرون البيض والتوست، ويتناولون السمك والأرز في الغداء، ويقضون أمسيات طويلة كسولة على العشب الأخضر، وكانوا ينامون في سلام وراحة على المراتب السميكة، ويستمتعون جميعاً بوقتٍ رائع!

ولكن مهما كان طعم السعادة التي تذوقوها في منزل صديقهم، فإن هذا لا يجيب عن السؤال الأساسي: لماذا يتحتم عليهم أن يختبئوا في منزل كمال؟ صحيح أن كمال صديق قديم لسورنجان، والأصدقاء يتبادلون الزيارات، ولكن ليس في ظروف من هذا النوع. لِمَ يتحتم عليه أن يهرب من بيته؟ كمال لم يكن لديه سبب يدفعه إلى الهروب أبداً. أليس هذا الوطن وطنه كما هو وطن كمال؟ ثم لماذا يُحرم من حقوقه، ولماذا

يدير بلده ظهره له؟ لماذا لا يستطيع أن يقول له: أنا ابن هذا التراب، أرجوك لا تسبب لي أي أذى؟!

كان سورنجان راقداً في فراشه، مستغرقاً في مثل هذه الأفكار، ومتجاهلاً أخته التي دخلت وخرجت، ثم بدأت تتمشى بلا هدف في أنحاء البيت وتفكر في أن أحداً منهم لا يدرك أنه يجب فعل شيء قبل أن يحدث لهم شيء بشع. في التليفزيون عرضت قناة (CNN) تفاصيل تدمير مسجد بابري في السادس من ديسمبر ١٩٩٢.. وكان التليفزيون لا يزال يعرض بعض مشاهد الحادث. جلس سودهامي وكيرونموي أمام التليفزيون يراقبان عملية التدمير ويأملان أن يصحبهما سورنجان إلى بيت أحد أصدقاءه المسلمين. ولكن سورنجان كان قد قرر أنه لن يفعل شيئاً من هذا، وأنه حتى لو جاء كمال أو أي صديق مسلم آخر لاصطحابهم فسوف يقول له:

- لن أغادر بيتي مهما كانت الظروف.

هذه المشاهد في بيت آل دوتا كانت تجري في السابع من ديسمبر. في المساء السابق، خيَّم ظلال كثيف على ضفاف نهر ساريو بمدينة أيودها الهندية. في ذلك اليوم المصيري، عصابة من أتباع من يُطلق عليهم "كار سيفاكس" هدموا مسجداً يزيد عمره على ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة. وفقاً لأبرشية هندوس فيسوا فإن المسجد كان محل ميلاد "راما"، نبي الهندوس، وبهذا اعتبروه ملكية دينية لهم.

المتطوعون المتعصبون انضموا إلى مشروع لتطهير المسجد وماحوله، وقبل حوالي خمس وعشرين دقيقة من بداية العمل بدأت الكارثة، عندما بدأ عمال التطهير في هدم المسجد بلا هوادة.

حدثت هذه الدراما بأكملها في حضور ضباط أصحاب رتب عالية، ورجال دين أبرشية هندوس فيسوا، وحزب بهارتيا جاناتا وغيرهم.

ضباط وجنود قوة الشرطة الاحتياطية المسلحة، وشرطة وردية المنطقة المسلحة، وشرطة آثار بارديش وقفوا يتفرجون دون أن يطرف لهم جفن، بينما كان هدم المسجد مستمراً. في الثانية وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر سقطت واحدة من القباب، في

الرابعة انهارت الثانية، وفي الخامسة وخمس وأربعين دقيقة انكسرت القبة الثالثة إلى نصفين على يد المتعصبين، أثناء عملية هدم المبنى الهائل دُفن أربعة منهم تحت الأنقاض، وتعرض مئات من الناس لإصابات خطيرة.

كل هذا وغيره ذكرته تقارير تفصيلية في الصحيفة التي كان يتصفحها سورنجان تحت عنوان ضخم يصرخ: "تدمير مسجد بابري" لم يذهب سورنجان إلى "أيودها" أبداً. ولم ير مسجد بابري، وكيف يمكنه ذلك وهو لم يغادر بنجلاديش أبداً؟ سواء كان المبنى الذي تم تدميره محل ميلاد راما أو جامعاً مقدساً فهذا لم يكن يهم سورنجان كثيراً، الواضح بالنسبة له هو أن تدمير أثر يعود للقرن السادس يمثل ضربة وحشية لمشاعر المسلمين في الهند وخارجها، كما أنه يضر بالوحدة الوطنية بين الهنود أيضاً، لأنه اعتداء همجي على "الوئام الدولي والضمير الجمعي للناس" على حد كلمات الصحفية، التي واصلت على هذا المنوال في تقريرها:

لا يحتاج الأمر إلى القول بأنه في بنجلاديش أيضاً سوف يسبب رد الفعل على هذا الحادث في خلق موجات مسعورة من الهستيرية الدينية، وسوف تُهدم المعابد وتُسوَّى بالأرض، وتُحرق منازل الهندوس ومحلاتهم، وتُنهب.

بتشجيع من حزب بهارتيا جاناتا قام المتعصبون بهدم مسجد بابري ليزيدوا من قوة رجال الدين الإسلامي في بنجلاديش. فهل مرّ بخاطر حزب بهارتيا جاناتا، وأبرشية هندوس فيسوا وشركائهم أن ردود الفعل على عملهم المجنون في أيودها لن تقتصر على الحدود الجغرافية للهند؟

في الهند أسفرت المحنة عن مولد أحداث عنف جماعي راح ضحيتها حتى الآن خمسمائة أو ستمائة، وربما ألف شخص، وعدد الموتى يزداد كل ساعة.

هـل أدرك الـهندوس المتدينـون، المفـترض بـهم أن يرعـوا مصالح دينهم ووحدتهم، أن هنـاك حوالـي خمسـة وعشـرون مليـون هندوسي يعيشون في بنجلاديش أيضاً؟

أغلق سورنجان عينيه، ثـم فتحـهما مـن جديـد علـى مايـا تـهزه قائلة:

- ألن تفعل شيئا؟ أرجو أن تدرك أن أبوينا يعتمـدان عليـك فـي حفظ سلامتنا.

تثاءب سورنجان وتمتطى بكسلٍ وقال:

- اذهبوا أنتم إذا شئتم، أنـا لـن أتحـرك خطـوة واحـدة مـن هـذا البيت.

- وماذا عن أبوينا؟

- لا أعرف.

- ماذا لو حدث لهما شيء؟

- ما الذي يمكن أن يحدث؟.

- أن يهاجموا منزلنا ويحرقوه!.

- فليفعلوا.

- هل تعني أنك ستجلس وتنتظر حدوث ذلك؟

- لا، لن أجلس، سوف أنام.

أشعل سـورنجان سـيجارة علـى معدتـه الخاويـة، واشـتاق إلـى كوب من الشاي. عادة ما كانت كيرونموي تحضـر إليـه الشـاي فـي الصباح، ولكنها لم تفعل ذلك اليوم.

لم يكن مجدياً أن يطلب من مايا، فسوف تهدم البيت بصراخها إذا طلب منها كوباً من الشـاي، كـان يمكنـه أن ينـهض ويعـد الشـاي لنفسه، ولكنه شعر بكسل شديد. في الغرفة المجاورة كان التلفزيون

يطن. لم يكن يرغب حتى في الجلوس والتحديق في تغطية C N N للحادث. فجأة سمع مايا تصرخ مرة أخرى في الغرفة المجاورة:

- دادا يستلقي في الغرفة، ويقرأ الصحف، ولا يبدو أنه يبالي بأي شيء في العالم!.

لم تكن المسألة أن سورنجان لا يفهم خطورة الموقف، ففي أي لحظة يمكن أن يقتحم البيت مجموعة من الناس، ينهبون ويسرقون، وربما يحرقون البيت عن آخره، في هذه الظروف لم يكن ليرفض كمال أو حيدر ان يأويهم ، ولكنه كان يخجل أن يهرب إلى أيهما. بدأت مايا في الاعتراض بصوت مرتفع:

- إن لم يكن لدى أحدكم نية الخروج من هنا، فسوف أذهب وحدي، سأذهب إلى بيت بارول، وأبقى هناك حتى يتحسن الموقف، لا اعتقد أن دادا ينوي إصطحابنا إلى أي مكان، ربما لا يرغب في الحياة، ولكنني أريد أن أحيا.

هذا الانفجار اليائس بيّن أن مايا قد أدركت أخيراً أن أخاها لن يفعل شيئاً في سبيل توفير مأوى لهم، وأن عليها أن تفعل ذلك بنفسها إذا أرادت. من جانبه ظل سورنجان راقداً في فراشه يفكر. حتى لو انتقلوا إلى مكان آخر هل سيكونون بمأمن؟ لقد كانوا محظوظين في أكتوبر ١٩٩٠ بنجاتهم من الرعب والدمار .

استدعى في رأسه أحداث ذلك الشهر، عشرات المعابد ودور العبادة، ومئات من محلات ومنازل الهندوس قد دُمرت وأحرقت ونُهبت. تذكر سورنجان الأماكن التي خُربت في مذبحة ١٩٩٠ واحداً وراء الآخر، هذه الأحداث التي وصفت بأنها اضطرابات!

هل كلمة اضطراب - أو شغب - تعني قيام طائفة ما بالاعتداء الوحشي على طائفة أخرى لا ترد الاعتداء ؟ .لا، مثل هذه الظاهرة لا يمكن أن توصف بأنها اضطرابات، الذي حدث فعلياً أن أفراد طائفة ما قاموا بانتهاك مقدسات وخصوصيات طائفة أخرى ببرود ودون ندم، وهذا ليس أقل من طغيان وقهر.

تسلل ضوء النهار عبر النافذة إلى جبهة سورنجان، ولكنها شمس الشتاء الناعمة، ولذلك لم يشعر بالضيق، وواصل الرقاد حالماً بكوبٍ من الشاي.

* * *

في الغرفة الأخرى كان سودهاموي يفكر أيضاً. في الماضي، عندما كان شاباً، بدأ كل أعمامه وعماته في مغادرة بنجلاديش أسرة وراء الأخرى.

كان قطار البخار يشق طريقه من ميمنسنج إلى فولباريا، وكانت صفارته مصحوبة دائماً بنحيب القلوب المحطمة للذين يغادرون البلد الوحيد الذي عرفوه.

عندما رحل جيرانهم نادوا على والد سودهاموي قائلين:

- يا سوكومار تعال لنرحل بعيداً. هذا وطن المسلمين. الحياة غير آمنة في هذا البلد.

لكن سوكومار دوتا أصر على عدم خيانة القيم التي آمن بها دوماً وقال:

- إذا لم يكن هناك أمان في هذا البلد، فأي مكان آخر في العالم يمكننا أن نذهب إليه؟ لا يمكنني أن أهرب من وطني. اذهبوا أنتم إن أردتم. لكنني لن أترك ميراث آبائي، مزارع جوز الهند، والفوفل، ومساحات حقول الأرز الهائلة، والبيت الكبير، لا يمكن أن أترك كل هذا لأصبح لاجئاً في مبنى محطة سيلداه.

في هذا الوقت كان عمر سودهاموي تسعة عشر عاماً تقريباً. وقد رحل معظم أصدقاء دراسته إلى الهند بعد أن حذروه:

- أبوك سوف يندم على هذا القرار عاجلاً أو آجلاً؟

لكن سودهاموي كان مثل أبيه يقول:

- لماذا ينبغي أن أغادر وطني إلى مكان آخر؟ إذا عشت فسوف أعيش على هذا التراب، وإذا مت فسوف أبقى في نفس المكان.

لكن الهجرة استمرت دون هوادة، واستمر عدد طلبة الكلية يتضاءل، الذين لم يرحلوا عام ١٩٤٧ كانوا يستعدون للرحيل الآن، وهكذا واصل سودهاموي الدراسة مع عدد قليل من الشباب المسلمين، وبعض الهندوس الفقراء في كلية طب ليتون التي حصل منها على شهادته في الطب.. وفي عام ١٩٥٢ كان سودهاموي شاباً ممتلئاً بالطاقة. عمره أربعة وعشرون عاماً. في شوارع دكا كانت الثورة تملأ الشوارع بسبب مطالبة البنغال باعتماد اللغة البنغالية كلغة قومية، لكن محمد علي جناح رئيس دولة باكستان رفض الطلب وأعلن أن الأردية هي اللغة القومية لباكستان.

شباب البنغال الواعون سياسياً في غرب باكستان ثاروا معترضين على قرار جناح.

امتلأت شوارع المدينة بدمائهم، ولكن أحداً لم يتراجع، وأصروا على أن تصبح البنغالية اللغة القومية. شارك سودهاموي في المظاهرات، وفي الغالب كان يقودها،وحضر اليوم الذي أطلق فيه البوليسس نيرانه على رفيقه سلام بركات، وكان معرضاً طيلة المظاهرات للموت هو أيضاً.

شارك سودهاموي في الحركة القومية في سنة ١٩٦٩ وكانت قوات شرطة أيوب خان الباكستاني قد تلقت الأوامر بإطلاق النار على المظاهرات، لكن البنغاليين رفضوا الخنوع للتهديد وواصلوا حملتهم مطالبين بميثاق المطالب المكوَّن من إحدى عشرة نقطة، ومات علم جير منصور على أيدي رجال الشرطة، حمل سودهاموي جثته عبر شوارع ميمنسنج، ووراءه مئات الباكستانيين الناطقين بالبنغالية حزانى، صامتين، يعدون أنفسهم للمواجهة الحتمية للأحكام العرفية.

حركة اللغة ١٩٥٢، انتخابات الجبهة المتحدة ١٩٥٤،حركة التعليم ١٩٦٢، حركة الاعتراض ضد قضية مؤامرة اجارتلا الانتخابات العامة ١٩٧٠، وحركة التحرير ١٩٧١.. كلها كانت نقاط التقاء لشباب البلد الواعين سياسياً، وكل ثورة جديدة كانت تؤكد على حقيقة أن تقسيم البلاد بناء على نظرية الأمتين كان أمراً غير صحيح وقد قال مولانا أبو الكلام آزاد:

"إن أسوأ خديعة للشعب هي أن نقول بأن الصلة الدينية يمكن أن توحد المناطق المختلفة ثقافياً ولغوياً واقتصادياً وجغرافياً. صحيح أن الإسلام سعى إلى تأسيس مجتمع يتسامى بالحدود العرقية واللغوية والاقتصادية. ولكن التاريخ أثبت أنه بعد العقود القليلة الأولى أو على الأكثر بعد القرن الأول فإن الإسلام لم يستطع أن يوحد البلاد المسلمة بناء على قاعدة الإسلام وحده".

جناح كان يدرك أيضاً حقيقة أن تطبيق نظرية الأمتين كان تمريناً فعلياً في عدم الجدوى، وعندما كان ماونتباتن يخطط لتقسيم البنغال قال هو نفسه:

"المرء بنجابي أو بنغالي قبل أن يكون هندوسياً أو مسلماً: لأنهم يشتركون في التاريخ واللغة والثقافة والاقتصاد، وسوف تتسببون في حمامات دماء وقلاقل لا تنتهي".

بداية من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٧١ شهد النبغاليون موجة تلوى الأخرى من حمامات الدماء والقلاقل، وصلت كلها إلى الذروة بحركة الحرية ١٩٧١ عندما حصلوا على الاستقلال مقابل حياة ثلاثة ملايين بنغالي شهيد، مما أثبت أن الدين وحده لا يمكن أن يكون أساساً لهوية قومية، وأن اللغة والثقافة والتاريخ على الجانب الآخر يمكنهم أن يشكلوا الأساس الذي يبنى عليه الإحساس بالقومية، باكستان كانت قادرة مبدئياً على صياغة رابط مشترك بين المسلمين في البنجاب والمسلمين في البنغال . ولكن كلا من الهندوس والمسلمين البنغال سرعان ما أثبتوا خطأ شعار الأمتين عندما بدأوا في رفض تقديم تنازلات كبيرة للمسلمين في باكستان.

في ١٩٧١ كان سودهاموي طبيباً في مستشفى س.ك . في ميمنسنج، وكان رجلاً مشغولاً سواء في البيت أو في العمل. في المساء كان يمارس عمله في عيادته في سواديش، وكانت كيرونموي حاملاً في طفلها الثاني، في شهرها السادس، وعمر سورنجان إثنا عشر عاماً. مما أضطر سودهاموي إلى تحمل الكثير من المسؤولية، سواء لرعاية أسرته الشابة، أو لإدارة المستشفى وحده فعليا. من وقت لآخر، عندما يتوفر لديه بعض الوقت، كان يذهب إلى بيت شريف للقاء أصدقائه. في الثامن أو التاسع من مارس ذهب أصدقائه شريف وفيصل وبابلو إلى الاستماع للشيخ مجيب الرحمان، عند منتصف الليل مروا بمنزل سودهاموي، أثناء عودتهم، لإبلاغه بما قاله الشيخ مجيب« إذا أطلقت رصاصة واحدة أخرى وإذا مات واحد آخر من رجالي فإنني أطلب منكم أن تتركوا بيوتكم لتقيموا المتاريس، وأن تجمعوا كل شيء ممكن لمواجهة العدو كيفما احتاج الأمر. هذه المرة الصراع من أجل الحرية ومن أجل الاستقلال».

وبرعشة الإثارة قال له الأصدقاء:

- سودها - دا، هذه المرة فعلنا شيئاً!

كان سودهاموي يعرف أنه لا يمكن أن يتحقق شيء بالجلوس وانتظار مسار الأحداث، لكن أسرته وعمله يحتاجان إليه، ولذلك لم يفعل شيئاً، ثم حدث في خمسة وعشرين مارس، عندما اجتاح الجنود الباكستانيون البنغال بلا مبالاة، أن عاد إليه أصدقائه وهمسوا في أذنه:

- يجب أن نحارب: ليس هناك حل آخر .

وجد سودهاموي نفسه في موقف صعب . أسرته هي همه الأساسي الآن، وعمره كبر على الاشتراك في حرب.. ولكن كلام أصدقائه ظل يؤرقه ولم يستطع التركيز في عمله بالمستشفى. وأخيراً تحدث إلى كيرونموي وسألها إذا كانت تستطيع أن تتدبر أمرها وحدها إذا اضطر إلى الذهاب؟. كيرونموي المرعوبة قالت له:

- دعنا نذهب إلى الهند كل، جيراننا تركونا الواحد تلو الآخر.

كانت هذه حقيقة، وسودهاموي رآهم بنفسه، خروج ١٩٤٧ كان يتكرر، وسودهاموي كان ثائراً، لعنهم جميعاً ووصفهم بالجبن. بعد أيام قال له نيماي :

- سودها - دا، الجيش في الشارع، إنهم يصطادون الهندوس ويقتلونهم، لنهرب بجلدنا .

في ١٩٤٧ كان أبوه حازماً في قراره بعدم الرحيل.. سودهاموي اتخذ نفس الموقف وقال لنماي:

- اذهب أنت إذا أردت.. ولكن لن أهرب من وطني.. سوف نقتل هؤلاء الكلاب الباكستانيين ونحصل على حريتنا. عد إذا استطعت بعد ذلك.

وبالفعل اتخذ قراره بأن تبقى كيرونموي وطفلها في قرية فاجولا في فولبر، بينما يصحب هو شريف وبابلو وفيصل إلى ناليترابي. ولكن قبل أن ينفذ القرار قبض عليه الجيش فقد ذهب لشراء قفل، رغم علمه بخطورة الموقف فالجيش في الشارع وليس هناك بنغالي واحد آمن على نفسه، تسلل بتوتر وإثارة في شوارع المدينة المقفرة، لم يكن هناك سوى عدد قليل من المحلات المفتوحة: فجأة ظهر أمامه ثلاثة رجال، صاحوا فيه بالتوقف، واحد منهم أمسكه وسأله باللغة الأردية :

- ما اسمك؟

لم يعرف سودهاموي أي اسم يستخدم..

تذكر أن صديقات كيرونموي نبهوها على ضرورة تغيير اسمها إلى شيء مثل "فاطيمة أختار" وأدرك سودهاموي أن اسمه الهندوسي لن يجلب له خيراً مع معتقليه، وأجبر نفسه على نسيان اسمه، واسم أبيه سوكومار، واسم جده جويوتير موي. شعر بصدمة وهو يسمع صوته ينطق باسم "سراج الدين حسين". واحد من الرجال قال له: "افتح صدرك" وقبل أن يستطيع عمل أي شيء

انتزعوا "صدريته" بانفسهم. في هذه اللحظة رأى بوضوح سبب هرب نيماي، وسودهانو، ورانجان..

من الوقت الذي قسمت فيه الهند إلى باكستان وهند، ترك كثير من الهندوس ديارهم في شرق باكستان ورحلوا إلى الهند..

وتوفر لهم ذلك لأن تقسيم شبه القارة على خطوط طائفية ترك الحدود مفتوحة أمام الهندوس ليرحلوا إلى الهند.

أبناء الطبقة الثرية والمتعلمة هاجروا في أسراب، سرب تلو الآخر.

في ١٩٠١ كان تعداد الهندوس ٣٣,١ % من سكان شرق البنغال، في ١٩١١ هبط العدد إلى ٣١,٥%، في ١٩٢١ هبط إلى ٣٠,٦%، وفي ١٩٣١ تناقص مرة أخرى إلى ٢٩,٤%.وفي ١٩٤١ لم يتجاوز ٢٨ % وأستمر في التناقص. على أية حال فبعد تحقيق الاستقلال ١٩٧١ توقفت هجرة الهندوس، وفي ١٩٨١ وصلت نسبتهم إلى ٢١,١% من تعداد السكان. ولكن إلى أي مدى يتوقع هذا؟ خاصة بعد السنوات التي أعقبت حوادث عنف ١٩٩٠. والآن تأتي حوادث ١٩٩٢! فهل ينتظر أن يترك الهندوس البلد؟

انتاب سودهاموي ألم في أيسر صدره. كان ألماً قديماً معاوداً. آلمه رأسه أيضاً. ربما زاد ضغط دمه. في التلفزيون كانت محطة (C N N) تواصل تغطيتها الإخبارية لكارثة ٦ ديسمبر، ولكن مسجد بابري لم يعد يظهر في كل مرة يذكر اسمه فيها، استنتج سودهاموي أن ذلك تم بناء على طلب الحكومة التي تحاول بوضوح حماية الهندوس من غضب طائفة الأغلبية. لكن الذين اعتادوا على ردود الفعل العنيفة لم يكونوا بحاجة إلى مشاهدة (CNN). شعر بوخزة حادة في صدره، دلكه بيده ليخفف الألم واستلقى بالفراش، لا تزال مايا في الشرفة تتنقل في قلق. عرف سودهاموي أن ابنته تريد الهرب إلى مكان آخر، أي مكان. ولكن كيف لها ذلك وسورنجان يرفض أن ينهض؟

حدق سودهاموي بلا إرادة منه في الشرفة المغمورة بضوء الشمس حيث يستطيل ظل مايا. جلست كيرونموي ساكنة، تمتلأ عيناها بتضرع حزينٍ كما لو كانتا تقولان: "دعنا نعيش.. دعنا نرحل".

أين يمكن أن يذهب سودهاموي إذا قرر مغادرة البيت؟

في مثل هذا العمر هل يستطيع الجري هنا وهناك كما كان يفعل من قبل؟

في الماضي لم يدخر نفسه أبداً، وكان دائماً في قلب الأحداث. كثيراً ما ترأس مجموعات المعارضة الإقليمية ضد حكام باكستان. روابط البيت والأسرة لم تكن بقادرة على منعه من المشاركة في هذه الأعمال، ولكن من أين يأتي بهذه القوة اليوم؟ كان يأمل أنه في دولة بنجلادش المستقلة العلمانية سوف يتمتع الهندوس بنفس الحقوق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التي يتمتع بها المسلمون. ولكن لسوء الحظ فقد تعثر مبدأ المساواة الدينية، وفقد مكانته تدريجياً مع مسار الأحداث. اليوم، الإسلام هو الدين القومي لبنجلاديش، والأصوليون الذين عارضوا ذات يوم النضال من أجل الحرية، وساءت شعبيتهم بسبب ذلك، يحكمون الآن من خلال جماعات، وينظمون المواكب والمسيرات، إنهم نفس المجموعة التي كانت وراء الإعتداء على الهندوس ١٩٩٠ والتي حطمت معابد الهندوس وأحرقت محلاتهم وبيوتهم.أغلق سودهاموي عينيه، لا يعرف ما الذي يمكن أن يحدث هذه المرة. الشيء الوحيد المؤكد هو أن تدمير مسجد بابري على يد الهندوس المتعصبين سيعاني منه الهندوس في بنجلاديش. إنهم لم يسلموا من الأذى على يد الأصوليين الإسلاميين في ١٩٩٠، فلماذا يسلمون منه في ١٩٩٢؟ ولهذا يتعين عليهم أن يهربوا مثل الجرذان! لمجرد أنهم هندوس؟.. ولأن الهندوس في الهند هدموا مسجد بابري؟ لماذا ينبغي أن يتحمل مسؤولية ذلك ؟ تلفت مرة أخرى لينظر إلى ظل مايا في الشرفة.

وجهه الأسمر ممتلئ بالقلق ومبلل بالعرق. قالت مايا بصوتٍ مرتفع.

- يمكنكم أن تبقوا حتى تتعفنوا هنا، ولكني سأذهب.

سألتها كيرونموي بحزم:

- أين تعتقدين أنك ذاهبة؟

تجاهلت مايا نبرة التهديد في صوت أمها، وانشغلت بتمشيط شعرها بضربات سريعة وقالت:

- سأذهب إلى منزل بارول.. لا يمكنني مساعدتكم طالما لا تريدون النجاة. لا اعتقد أن دادا أيضاً لديه نية ترك هذا المكان.

سألها سودهاموي وهو يتذكر المرة التي انتحل فيها اسم "سراج الدين":

- وماذا ستفعلين باسمك؟ نيلانجانا اسم مميت.

قالت مايا دون أن تتحرك:

- "لا اله إلا الله محمد رسول الله" هو كل ما تحتاج إلى قوله لكي تصبح مسلماً...هذا ما سوف أفعله، وسوف أغيّر اسمي إلى فيروزا بيجوم.

صاحت كيرونموي في غضب:

- مايا!

حملقت مايا في أمها كما لو أنها تقول إنها لم تخطيء في تصورها المفترض لمسار الأحداث.. تنهد سودهاموي في عجز، وأخذ يقلب النظر بين مايا وكيرونموي. كان يمكنه أن يفهم سبب جزع مايا، إن عمرها ٢١ عاماً، لم تر تقسيم البلاد في ١٩٤٧ ولا أحداث ١٩٥٠ أو ١٩٦٤ ولا حصول البلد على الحرية ١٩٧١.

كل ما تعلمه من أيام طفولتها الأولى أن الإسلام هو الدين القومي للبلد وأنها وأسرتها ينتمون إلى الأقلية الهندوسية التي ينبغي أن تُقدم التنازلات لمسايرة الوضع السائد. كل ما شاهدته فعلياً كان كابوس حوادث عنف ١٩٩٠، وكان هذا كافياً حتى تتخذ قراراً

بأنها لا تريد أن تفقد حياتها .. اتسعت عينا سودهاموي، بينما زادت آلام صدره، وطرد كل أفكاره عن مايا.

* * *

لم يرتو عطش سورنجان لكوب من الشاي بعد، نهض وذهب إلى الحمام. كان يحب أن يشرب كوبه الأول قبل غسل أسنانه.. لا صوت أو أثر هناك لمايا. هل رحلت البنت فعلاً؟ استغرق سورنجان وقته في غسل أسنانه، توتر مشؤوم يلف البيت، كما لو أن أحداً على وشك أن يموت، كما لو أن هناك صاعقة ستنقض في أية لحظة لتجسد الموت الذي ينتظره كل منهم. ظمأناً إلى الشاي لا يزال، توجه سورنجان إلى حجرة سودهاموي. جلس مسترخياً على السرير وسأله:

- أين مايا؟

لكن أحداً لم يجب عن سؤاله. نهضت كيرونموي التي كانت جالسة بجوار النافذة وذهبت إلى المطبخ. أغلق سودهاموي عينيه واستدار في فراشه، يبدو أن أحداً لا يريد أن يمنح سورنجان أدنى اهتمام.. وبدا يتبين له أنه ربما فشل في تحمل مسؤوليته نحو والديه وأخته. لقد توقعوا منه أن يعثر لهم على مأوى ولم يستطع، بل الأدهى أنه قرر ألا يفعل ذلك. كان سورنجان يعلم أن مايا واقعة في حب شاب يدعى جاهنجير، ومتأكد أنها سترحل معه لو سنحت لها الفرصة، لذلك والآن بعد أن تركت المنزل من سيمكنه منعها؟ المسلمون الأكثر ليبرالية اعتادوا على زيارة الهندوس والسؤال عنهم عندما تنشب أحداث العنف، ولا بد أن جاهنجير سيأتي للاطمئنان على مايا، في هذه الحالة ستعتبر مايا نفسها سعيدة الحظ جداً، وقد تقرر أن تتزوجه بدافع من العرفان بالجميل! الفتى أكبر منها بعامين، ولدى سورنجان اقتناع بأنه لن يتزوجها في النهاية!

كان بحكم خبرته الشخصية يعرف أن هذه الزيجات المختلطة الديانات شبه مستحيلة في بنجلاديش، لقد كان ينوي الزواج من بارفين، ولم يتم الزواج، عندما رفض الاستجابة لطلب بارفين

باعتناق الإسلام قال إنه ليس ضروريا أن يبدل أحدهما دينه، بالإضافة إلى هذه العقبة رفضت أسرتها زواجها من هندوسي، وزوجوها في النهاية من رجل أعمال مسلم. بكت بارفين من قلبها اعتراضاً، ولكنها استجابت إلى رغبة أسرتها. تطلع سورنجان بندم خارج الشرفة الصغيرة. منزلهم مستأجر، لا ملعب فيه، ولا مكان للتمشية. جاءت كيرونموي بكوب من الشاي، وبينما كان يتناوله منها قال عرضاً:

- إنه ديسمبر، ولكن الجو ليس بارداً. أتذكرين كيف كنت أحب شراب البلح في صباحات الشتاء؟

تنهدت كيرونموي وقالت:

- هذا منزل مستأجر، أين يمكن أن تحصل على عصير فاكهة طازج هنا؟ البيت الذي كنا نزرع فيه جميع الأشجار بعناه بملاليم.

صب سورنجان الشاي، وفكر في العصير الطازج الذي كان يأتي به "البستاني" من بلح النخيل، وهو يقف مع مايا بين الأشجار يراقبانه بفضول، ويرتعشان من البرد، ويخرج البخار الأبيض من فيهما كلما تحدثا. كل الحقول الخضراء المزدهرة التي اعتادا أن يختبئا فيها، وأنواع الفواكه المختلفة، ذهب كل هذا، ومرات لا حصر لها كان يقول فيها سودهاموي لهما:

- هذا بيت أجدادكما. لا تتركا هذا المكان وترحلا أبداً .

ولكنه اضطر إلى بيعه ذات يوم.

كان عمر مايا ست سنوات عندما تاهت أثناء عودتها من المدرسة.. ولم يعثروا عليها في المدينة كلها، لا عند الأقارب ولا الأصدقاء والمعارف. ساد القلق والانزعاج الهائل البيت خوفاً من أن يكون أحد المتسكعين قد قام بخطفها.. وبعد يومين عادت مايا إلى البيت وحدها. لم تستطع أن تقدم أي تفسير لمكان اختفائها أو الذين اختطفوها.. ولمدة شهرين بعد الحادث كان سلوكها غريباً تنام نوما مضطربا، وتستيقظ منزعجة في وسط الليل، وتخشى لقاء الناس، وكان بيتهم يُقذف بالحجارة خلال الليل، ويتلقون خطابات

من مجهولين تهدد بخطف مايا مرة أخرى إذا لم يدفعوا فدية، ذهب سودهاموي إلى قسم الشرطة، وسجل الضابط المناوب بلاغاً روتينياً، ولم يتخذوا أي إجراء أبعد من ذلك.

وتفاقمت المسألة، فكان صبية الحي يتسللون إلى حديقتهم ويسرقون الفاكهة من فوق الأشجار، ويتلفون حديقة الخضراوات، ويخلعون الأزهار، ولم يكن من الممكن منعهم لأنه لم يكن من المجدي شكواهم إلى المسؤولين. اشتكى سودهاموي لجيرانه فجاء الرد المعتاد:

- ماذا نفعل؟ هكذا كان الحال دائماً ولن يتحسن.

حاول سورنجان جمع بعض الأصدقاء لمواجهة الصبية المشاكسين.. ولكن سودهاموي لم يوافق، وبدلاً من ذلك قرر ترك ميمنسنج بأسرها وبيع المنزل. كان هناك في الواقع سبب آخر لبيعه، فلوقت طويل جداً كانت هناك دعوى تنظرها المحكمة بشأن المنزل. جاره شوكت علي، زَوَّرَ بعض الوثائق، وأحتل جزءاً كبيراً من الأرض، وحاول سودهاموي مقاضاته، لم يوافق سورنجان على قرار أبيه ببيع البيت، ولم ير ضرورة لذلك .كان طالباً في الكلية، ذكياً وممتلئاً بالطموح، وتمَّ انتخابه كعضو في اتحاد الطلبة ضمن مجلس إدارة الكلية، وكان يمكنه، إذا شاء، أن يعاقب المشاغبين الذين يضايقونهم، لكن سودهاموي منع ابنه، وأصر على بيع العقار والانتقال إلى دكا.وشرح لأسرته أن عمله كطبيب بدأ يتأثر لأن المرضى لم يعودوا يأتون إلى عيادته بكثرة، والقلائل الذين يأتون كانوا من الهندوس والفقراء جداً لدرجة أنه يخجل من طلب الأجرة منهم، وأمام ذلك لم يصر سورنجان على الرفض. لكنه لا يزال يذكر البيت الشاسع الذي كبر فيه، والأرض المحيطة به، واليوم الذي بيع فيه إلى "رئيس الدين صاحب" مقابل مائتي ألف تاكا، رغم أن قيمته مليون تاكا. في يوم رحيلهم عندما قال سودهاموي لكيرونموي : "هيا نلملم أشياءنا لنرحل" سقطت زوجته على الأرض وهي تبكي بشدة.. ووجد سورنجان صعوبة في أن يصدق أنهم راحلون فعلاً عن بيتهم القديم الذي ورثوه عن

أجدادهم، مسقط رأسه، وملعب طفولته، حيث يجري نهر براهما بوترا، وحيث يسكن أصدقاؤه. لم يكن يرغب في ترك كل هذا والرحيل.

حتى مايا، التي كانت أقوى الأسباب وراء قرار سودهاموي هزت رأسها بقوة رافضة أن ترحل وقالت:

- لا أريد أن أترك صوفيا..

صوفيا كانت صديقة وزميلة دراستها وتسكن بجوارهم. وكانت الاثنتان تلعبان معاً لساعات كل مساء. وماذا عن سودهاموي نفسه؟ بالرغم من أنه لم يتردد في قراره إلا أن الأسى غمره لأنه يكن عواطف عميقة تجاه المكان. ولكنه قال:

- هذه الحياة قصيرة. أريد أن أعيش في سلام مع أطفالي بقية حياتي.

ولكن هل من الممكن أن يكون هناك سلام في أي مكان؟ ربما لا، كما كان يفكر سورنجان.

أطلق سودهاموي تنهيده ارتياح عندما وصلوا دكا بالرغم من أنه في دكا المستقلة، اضطر أن يتخلى عن ملابسه الهندية "الدهوتي" ويرتدي "الباجاما". بعد فترة بدأ سورنجان في فهم أزمة أبيه، لقد دفعته الظروف إلى اتخاذ موقفه، ولم تكن هناك وسيلة تمكنه هو أو ابنه من اختراق الحاجز الذي لا يقهر، والذي يحول بينهم وبين الحياة الآمنة. استغرق سورنجان في أفكاره، وتمدد على فراشه محدقاً في الشمس التي ملأت الشرفة. فجأة قطع تأمله ضوضاء مسيرة سريعة تتقدم، انتبه سودهاموي وكيرونموي أيضاً بتوتر في محاولة لتمييز الصيحات الغاضبة، ولاحظ سورنجان أن كيرونموي نهضت وأغلقت النوافذ. مع هذا استطاعوا أثناء مرور المسيرة سماع الأصوات تقول: «دعونا نمسك بهندوسي أو اثنين. لنأكلهم في الصباح وفي المساء أيضاً».

رأى سورنجان أباه يرتجف. ووقفت أمه وظهرها للنافذة التي أغلقتها. تذكر سورنجان أنهم اعتادوا على سماع نفس الهتافات في ١٩٩٠، ومن كان هؤلاء؟

المثير للسخرية أنهم كانوا أولاد الجيران! جبار، ورامجان وعلمجير، وكبير، وعابدين! كلهم أصدقاء يعيشون في نفس المنطقة، يلتقون باستمرار، ويناقشون الأمور العامة دون ضغائن، من أجل اتخاذ قرارات جماعية في القضايا الهامة، كان هؤلاء أنفسهم الذين يريدون تحويل سورنجان إلى طعام!

* * *

عندما وصل سودهاموي إلى دكا لأول مرة، أجّر له آسيت رانجان منزلاً في تانتيبازار وقال له:

- سودهاموي، أنت ابن رجل ثري. هل تستطيع الإقامة في بيت مؤجر؟

وأجابه سودهاموي:

- ولم لا؟ ألا يعيش الآخرون بنفس الطريقة؟

- نعم يعيشون. ولكنك لم تشعر أبداً بالحاجة والخوف، ما الذي يجعلك تبيع منزلك؟ مايا في النهاية مجرد طفلة صغيرة، ولا يبدو أنها تواجه الأخطار التي تهدد فتياتنا. لقد اضطررنا إلى إرسال ابنتنا اوتبالا إلى كالكتا لأنها تتعرض للاحتقار، والتهديدات في الكلية، الصبية كانوا دائماً يتحرشون بها ويقولون بأنهم سوف يغتصبونها. الآن هي هناك مع خالها في تيتلجالا. أنت تعرف يا دادا أنه عبء كبير أن يكون لديك ابنة ناضجة.

كان سودهاموي يعلم أن هناك قدراً كبيراً من المنطق فيما قاله آسيت رانجان، حتى وهو يستمع إلى صديقه تذكر حادث قيام عصابة من الصبية بتعرية طالبة صغيرة من الساري الذي ترتديه في منتصف الشارع، كانت مسلمة، وكذلك الصبية الذين أهانوها، ولذلك عزّى سودهاموي نفسه بأنه فيما يتعلق بالنساء الصغيرات لا

علاقة للأمر بهندوسي ومسلم، ولكن علاقة الضعيف بالقوي الذي يتحرش به دائماً .

النساء هن الجنس الأضعف، ولذلك يقهرهن الرجال، وهم الجنس الأقوى. لم يخاطر آسيت رانجان وأرسل ابنتيه إلى كالكتا. كان يكسب الكثير من المال من محل مجوهراته في إسلامبور، ولديه منزل قديم من طابقين. لم يقم بتجديده لأنه يبدو أنه ينوي شراء منزل جديد، وذات يوم قال لسودهاموي:

- دادا، لا تنفق كل مالك، ادخره، وإذا استطعت فأرسل المال الذي حصلت عليه مقابل بيتك إلى أقاربي هناك ليشتروا لك قطعة أرض.

سأله سودهاموي:

- ماذا تعني بهناك؟

أجاب آسيت رانجان بصوت خفيض:

- أعني في كالكتا، لقد اشتريت أيضاً.

انتاب الغضب سودهاموي وقال:

- هل تعني أنك تريد كسب المال هنا وإنفاقه في الهند؟ هل تعلم أنه يجب إدانتك بتهمة الخيانة؟

فوجئ آسيت رانجان بثورة سودهاموي، فهو لم يسمع هندوسياً يتكلم بهذه الطريقة أبداً. تقريباً كل شخص حريص على استغلال مدخراته في شراء أرض في الهند. بما أن مستقبلهم في بنجلاديش غير مضمون. فإن تستقر في هذا البلد أمر فيه خطورة فسوف يأتي يوم "جميل " يُقتلع فيه وجودك نفسه من الجذور وتُتركُ ميتاً فلماذا تخاطر؟

حتى الآن كان يتساءل سودهاموي لماذا ترك ميمنسنج؟ لماذا لم يمنعه حبه لبيت أجداده من اتخاذ هذه الخطوة العنيفة؟ كان هناك مشاكل بخصوص رعاية مايا، بالطبع، ولكن هذه المشاكل موجودة دائماً مهما كان المكان الذي يعيشون فيه. وفي كل الأحوال فإنه فيما

يتعلق بحوادث الخطف ليس هناك أي فرق بين الهندوس والمسلمين. عذاب الضحايا وأسرهن لا يختلف بغض النظر عن ديانتهم. وهكذا يؤدي كل شيء إلى نفس السؤال القديم: هل كان خائفاً، لأنه هندوسي، ألا ينعم بالأمن والاطمئنان في وطنه؟ كان يخشى سودهاموي أن يوجه إلى نفسه هذا السؤال بصوت مرتفع، جالساً في هذا المنزل الصغير المتقلص في تانتيبازار، كان يتساءل مرات ومرات عن أسباب تركه لمنزل أجداده ليأتي إلى هذا المكان الغريب، هل كان يهرب من نفسه؟ لماذا شعر بالخوف من خسارة الدعوى ضد شوكت علي الذي سلح نفسه بوثائق مزورة ؟كم هو مرير أن يخسر المرء قضية تتعلق ببيته؟ ولكن عندما ينظر إلى الأمر كله بإيجابية يجد أن من الحكمة الواضحة أنه ترك المكان باحترامه قبل أن يُطرد منه بعد خسارة الدعوى. أحد أبناء عمه خسر بيته برغم جهوده الباسلة لإنقاذه.

كان يعيش في منطقة آكور تاكور في تانجيل، وادعى جار مسلم اسمه جامير مونش ملكيته للأرض، وصلت المشكلة إلى المحكمة، وبعد خمس سنوات جاء الحكم لصالح الجار، عم سودهاموي اضطُر إلى ترك بنجلاديش والهجرة إلى الهند. هل كان الخوف من التعرض لمصير عمه هو ما دفع سودهاموي إلى بيع عقار أجداده؟ ربما كان هذا صحيحاً، فقد اتضح له أن أهميته في المنطقة تتضاءل، وبجانب هذا كان قد فقدَ كثيراً من الأصدقاء في الهجرة أو الموت. هؤلاء الذين استمروا في البقاء بدوا فاقدين لأي أمل.. كما لو أنهم شعروا بأن الحياة لا تستحق أن يحيوها. وعندما يتحدث معهم كان ينتاب سودهاموي الإحساس بأنهم يخشون قدوم وحش يقوم بالتهامهم في منتصف الليل.. الهند كانت حُلم الجميع، ومعظمهم خططوا سراً لعبور الحدود مع أول فرصة تسنح لهم. وكان سودهاموي يقول لهم دائماً:

- عندما نشبت الحرب في هذا البلد هربتوا مثل الجبناء، وبعد أن فزنا باستقلالنا عدتوا لإظهار بطولتكم، والآن، أمام أصغر استفزاز، تخططون للعودة إلى الهند. بصراحة، أنتم جبناء!

أمام ثورة غضبه بدأ بعض الأصدقاء مثل جاتن ديبناث، وتوشار كار، وخاجيش كيران الابتعاد عنه. وعندما كانوا يلتقون به مصادفة كانوا يشعرون بالتوتر في حضوره، وبالتدريج أصبح سودهاموي غريباً في بلدته .والأسوأ من ذلك بدأ أصدقاؤه المسلمون أيضاً - مثل ساكورا ،وفيصل، وماجد، وجعفر في الابتعاد عنه، رغم أن أسبابهم كانت مختلفة، وعندما كان يذهب إلى بيت صديق مسلم كان يواجه غالباً أقوالاً مثل:« سودهاموي أرجوك اجلس في الغرفة الأخرى حتى أنتهي مع فلان» أو«أوه.. لقد جئت اليوم! ولكن لدينا عيد ميلاد في البيت..»

وبينما كان أصدقاؤه اليساريون يتقدمون في السن، كان يزداد تحولهم إلى التدين.

أما سودهاموي الذي لم يكن لديه وقت أبداً لمثل هذه الأشياء فوجد نفسه بلا أصدقاء. الاختفاء التدريجي للمنطق والعقل والإنسانية من بلدته المحبوبة ترك جُرحاً شديداً في نفسه. وفي النهاية أراد أن يهرب لا من بنجلاديش، ولكن مما أصبحت عليه نفسه، أراد أن يهرب قبل فوات الأوان، وقبل أن يبتلع الموت أحلامه في النهاية.

في الحقيقة وجد سورنجان صعوبة شديدة في التأقلم مع البيت الضيق الذي انتقلوا إليه. واعترض بشدة.. لكنه تعود بالتدريج على أسلوب حياته الجديد. التحق بالجامعة، وكوّن أصدقاءً جدداً، وتعلم أن يحب الأشياء المحيطة به، وبعد فترة انخرط في السياسة ودُعي لحضور الاجتماعات، والمشاركة في المسيرات السياسية. كيرونموي، أيضاً، وجدت صعوبة في التأقلم مع محيطها الجديد، كانت تستيقظ باكية في الليل، عندما تتذكر بيتهم الحبيب، وتتساءل عما إذا كانت السقالة الصغيرة التي حفرتها وسط نبات الفاصوليا لا تزال هناك، وتتذكر كيف كانت جوافا حديقتهم هي الأفضل في كل البلدة، وتتمنى أن تكون أشجار جوز الهند الخضراء تحت الرعاية.. ولم يكن سودهاموي أقل انزعاجاً.

في دكا تقدم سودهاموي إلى وظيفة حكومية كبيرة بمثابة ترقية عن وظيفته الرسمية في ميمنسنج. ولكن في كل مرة ذهب فيها إلى الوزارة لمعرفة مصير طلبه كانوا يجعلونه ينتظر في غرفة صغيرة بين العملاء. وأحياناً يسمح له بالجلوس والانتظار في غرفة السكرتير الخاص المساعد. وكان يسأل:

- من فضلك، هل يمكن أن تخبرني عما إذا كانوا قد نظروا إلى ملفي!؟.

ولكنه لم يحصل على رد مقنع أبداً. كانوا يردون على أي سؤال باقتضاب. وبعضهم يسأله:

- يا دكتور ابنتي لديها اضطراب في المعدة. وتشكو أيضاً من ألم في صدرها. لماذا لا تصف لها بعض الدواء؟

وكان سودهاموي يفتح حقيبته ويكتب لها وصفة علاج ويسأل بعدها:

- سأحصل على الوظيفة، أليس كذلك يا فريد بابو؟

فيجيبه فريد بابو بابتسامة واسعة:

- بالفعل، في العمل كأستاذ مساعد.

أما هو فأقصى ما نجح فيه هو إيلاء نعلي حذائه، وفي كل مرة يتوجه فيها إلى الوزارة يتلقى نفس االعبارات:

- ربما غداً.. ليس اليوم. ملفك أرسل إلى السكرتارية.

أو:

- ليس اليوم. تعال بعد غد. السكرتارية مشغولة في اجتماعات.

أو:

- الوزير ذهب إلى الريف. عد بعد شهر.

كان سودهاموي يستمع بصبر إلى هذه التبريرات، حتى أدرك أنه لا فائدة من الانتظار . بعد حوالي عامين من الجهاد للحصول على الترقية أدرك أن هؤلاء الذين حصلوا عليها هم الذين نجحوا في عبور الخط الشرعي، حتى لو كانوا لا يستحقونها، ولكنه كان يقترب من سن المعاش، والمفروض أن يصبح أستاذاً مساعداً على الأقل، وفي النهاية تقاعد دون أن ينال درجة الأستاذ المساعد. واحد من زملائه اسمه مارهاف شاندرابال وضع إكليل الزهور على رقبته في يوم تقاعده وهمس في أذنه:

- ليس من الصواب أن تتوقع أكثر من اللازم في بلد مثل هذا... ما نحصل عليه أكثر من كافٍ بالنسبة لنا.

قال هذا وهو يضحك دون بهجة. مارهاف شاندرا كان أيضاً أستاذاً مساعداً، وتجاوزته الترقية مرتين.. وكان هناك تهم عديدة موجهة ضده، منها أنه سافر إلى الاتحاد السوفيتي.

وفي وقت ما أدرك سودهاموي أن شاندرا كان على حق. فعلى الرغم من أن البلد لا يمارس تعصباً ظاهراً ضد الهندوس، ورغم أن الدستور البنغالي لا يمنع الهندوس من تولي الوظائف الحكومية والترقية فيها، أو في قوات الشرطة، أو الجيش، فإن الحقيقة هي أنه لا يوجد هندوسي يحتل موقع وزير أو زير دولة، في الحكومة كان هناك ثلاثة وزراء من أصلٍ مختلطٍ، وعدد لا يتجاوز أصابع اليد من نائبي الوزراء. كان سودهاموي متأكداً أن لا أحد من هؤلاء يتوقع ترقية أخرى؛ وفيما يتعلق بالقضاء كان هناك ستة من الهندوس فقط في منصب قاضٍ وقاضٍ واحد في المحكمة العليا. وهناك بعض ضباط البوليس في الرتب الصغيرة، ولكن من المستحيل أن تعثر على هندوسي في رتبة عالية. بالرغم من أن الأمر استغرق وقتاً طويلاً لقبوله، أدرك سودهاموي أنه لم يحصل على درجة أستاذ مساعد لأنه ببساطة هندوسي اسمه سودهاموي دوتا، ولو كان اسمه محمد علي، أو سليم الله شودهري لما وجد أي عقبة في طريقه. هذا النوع من التمييز لم يكن مقصوراً على الوظائف الحكومية وحدها، فحتى في مجال البيزنيس والتجارة لم

يكن يستطيع أي هندوسي أن يأمل في تحقيق شيء بمفرده. ومن الضروري أن يكون له شريك مسلم، لأنه ليس هناك مؤسسة لها اسم هندوسي صرف يمكن أن تحصل على ترخيص عمل، والأصعب أنه لا يوجد بنك أهلي أو صناعي على استعداد لمساعدة مشروع صاحبه هندوسي، رغم هذه الإحباطات نجح سودهاموي دوتا في الاستقرار في تانتبياز.

بعد فترة نجح في جعل بيته الجديد مقبولاً، ورغم أنه ترك بيته إلا أنه لم يستطع ترك وطنه، وكما اعتاد أن يقول:

- ميمنسنج ليست وحدها بلدي، وإنما بنجلاديش كلها.

بقية افراد الأسرة لم يكونوا يشاركونه مشاعره. كيرونموي كانت تتنهد وتقول:

- المفروض أن أربي الأسماك في البركة، وأزرع خضراوات جديدة، والمفروض أن يأكل الأطفال الفواكه الطازجة من الأشجار.. والآن كل أموالنا تذهب في دفع إيجار هذا البيت.

وأحياناً كانت توقظ سودهاموي ليلاً وتقول:

- المال الذي حصلنا عليه من بيع البيت، ومن معاشك مبلغ كبير.. دعنا نرحل.. كثير من أقاربنا هناك الآن!

وكان سودهاموي لديه رد جاهز:

- هل تفترضين أن أقاربك سوف يطعمونك ولو ليوم واحد؟ ربما تفكرين في الإقامة معهم، ولكنهم قد يشعرون بأنك زائر عابر، وسرعان ما سوف يقولون: «أين تقيمون؟ هل تريدين كوباً من الشاي»؟

وكانت كيرونموي تلح:

- إذا كان لدينا مالنا الخاص، فلماذا نضطر إلى الشحاذة من الآخرين؟

عند هذه النقطة كان يتصلب عناد سودهاموي:

- لن أذهب.. اذهبي أنت إذا أردت: نعم تركت بيتنا القديم ولكن هذا لا يعني أننا سنترك بلدنا أيضاً.

عاشوا لبعض الوقت في تانتيبازار، ثم انتقلوا إلى آرما نيتولا، وعاشوا هناك ست سنوات، وأخيراً انتقلوا إلى تيكاتولي حيث قضوا السنوات السبع الأخيرة. في نفس الوقت اكتشف سودهاموي أن قلبه مريض، وبعد اعتزاله أدار عيادة مسائية صغيرة، لكنه لم يكن يستطيع الانتظام في إداراتها، كان المرضى يأتون لاستشارته في البيت بدلاً من العيادة، حيث قام بوضع منضدة في غرفة الاستقبال لفحص المرضى عليها، وبعض المقاعد والأرائك. خزانة الكتب كانت تمتلئ بكل الأنواع: الصحف الطبية، الأدب، كتب في علم الاجتماع أو السياسة.. كان سودهاموي يقضي معظم وقته في هذه الغرفة، وفي الأمسيات كان غالباً ما يزوره أصدقاء مثل نيشميت بابو أختار، وجامان، وشهيد الإسلام، وهاريبادا ليتناقشوا في السياسة، بينما تعد لهم كيرونموي الشاي. معظمهم كان يشربه دون سكر بسبب، أمراض الشيخوخة.

قفز سودهاموي مع صوت مسيرة أخرى تقترب حتى ملأ الغرفة. كز سورنجان بدوره على أسنانه، واحتقن وجهه بالغضب، وبدت كيرونموي خائفة، لكن سودهاموي بدا رابط الجأش بشكل ملفت بعد عصبيته الأولى. لماذا لا يقوم برد فعل؟ ألا ينبغي أن يُظهر هو أيضاً بعض علامات الخوف، أو الترقب، أو الغضب؟.

اليوم الثاني

معظم أصدقاء سورنجان من المسلمين، لا أحد منهم كان متديناً بشكل زائد، كانوا يقبلون سورنجان كصديق قريب بالرغم من أنه هندوسي، وفي العام الماضي، مثلاً، دعا كمال الأسرة كلها إلى بيته. لدى سورنجان أصدقاء هندوس مثل كاجال، وآشيم وجاديب، ولكنه كان أقرب إلى بولوك، وكمال، وبلال، وحيدر، ورابيل. وفي الحقيقة عندما يمر بمتاعب كان حيدر، وبلال، وكمال هم الذين يساعدونه أكثر من أصدقائه الهندوس، ذات مرة سقط سودهاموي مريضاً وجاء الطبيب د. هاريبادا وشَخَّصَ الحالة بأنها انسداد في عضلة القلب، وكان عليهم أن ينقلوه فوراً إلى مستشفى السهرودي. في الساعة الواحدة والنصف صباحاً. عندما أبلغ سورنجان كاجال تثاءب وقال:

- كيف نستطيع نقله في هذا الوقت المتأخر؟ فلننتظر حتى الصباح ونتصرف.

ولكن حين علم بلال بالأمر أسرع قادماً بسيارته، وقام بكل الإجراءات، ونقل سودهاموي إلى المستشفى، وظل هناك تحت الإشارة لتقديم أي مساعدة، وكان يؤكد لسودهاموي كل فترة:

- لا تقلق يا عمي كل شيء سيكون على ما يرام. أنا مثل ابنك.

تأثر سونجان بقلق صديقه على أبيه، وطيلة فترة إقامة سودهاموي في المستشفى واظب بلال على زيارته. ولم يتوقف لحظة عن التفكير في صحة سودهاموي، ونقل الزائرين إليه، بل وتوصية الأطباء ليعتنوا به عناية زائدة، كم عدد الذين يهتمون بأصدقائهم هكذا؟ كاجال كان لديه المال أيضاً، ولكن هل لديه قلب كبير مثل هذا؟ معظم نفقات علاج سودهاموي دفعها رابيل. فجأة ظهر في بيتهم في تيكاتولي وسأل سورنجان:

- سمعت أن أباك في المستشفى؟

وقبل أن يجيب سورنجان وضع رابيل مظروفاً مغلقاً على المنضدة القريبة وقال:

- أصدقاؤك ليسوا غرباء.

ثم رحل بهدوء كما جاء. فتح سورنجان المظروف فوجد خمسة آلاف تاكا. لكن سبب قرب سورنجان من أصدقائه المسلمين لم يكن وقوفهم المادي والمالي معه. بل لأنه وجد نفسه أكثر قرباً إليهم من أصدقائه الهندوس في التفكير والوجدان، وبشكل عام كانت صداقته مع حيدر وكمال، ورابيل أعمق من صداقته بكاجال، وأشيم، وجاديب. وفيما يتعلق بالقلب كان أيضاً يحب بارفين، أخت حيدر، عقلياً وعاطفياً أكثر من ارشانا اوديبتي أو جيتا أو سوناندا.

لم يكن سورنجان يعرف التفرقة بين أصدقائه بناءً على دينهم. في طفولته عرف أنه هندوسي ولكن لم يعرف ما الذي يعنيه هذا بالضبط. أثناء دراسته في مدرسة القرية في ميمنسنج كان يدخل في مشادات كلامية مع صبي اسمه خالد. وعندما وصلت المشادات إلى ذروتها قام الصبيَّان بشتم بعضهما بأفحش الكلمات. وحين وصفه خالد بأنه هندوسي، عرف سورنجان أن كلمة هندوسي كانت نوعاً من الحط من شأنه، مثل كلمة كلب أو خنزير. ولكن بعد أن نضج بعض الشيء عرف أن كلمة هندوسي تعني الطائفة الدينية التي ينتمي إليها.

وعندما كبر واستطاع أن يتخذ قراراً في هذه المسألة، أعلن سورنجان أنه، بعد كل شيء وقبله، إنسان، بنغالي العرق. وإن هذا العرق لم تصنعه ديانة معينة . وإنه لا يجب أن يضع الناس حدوداً طائفية بين بعضهم البعض.

كان يقول لأصدقائه وأسرته إن البنغاليين كعرق لا يجب أن يصنفوا أنفسهم بفروق طائفية أياً كانت، من أجل أن يبقى مصطلح "بنغالي" غير مقسم. ولسوء الحظ فإن نظرة سورنجان المثالية لم تجد قبولاً كبيراً في بنجلاديش. لأنهم كانوا يبحثون عن الوحدة لا

بين أبناء الأمة الواحدة، ولكن بين أبناء الدين الواحد، حتى لو كانوا يعيشون في بلاد أخرى مختلفة. ونتيجة ذلك سيصبح أفراد مجموعة معينة، من ديانة مختلفة، مجرد دخلاء ومنبوذين في وطنهم.

هذه النظرة التي لاقت القبول في كل الدولة هي التي أسفرت عن التقسيم بين الهندوس والمسلمين.

اليوم هو الثامن من ديسمبر، الأمة كلها في حالة إضراب دعا إليه الأصوليون، بناءً على دعوة أحد الأحزاب القوية وهو حزب الجماعة الإسلامية، اعتراضاً على هدم مسجد بابري.

قضى سورنجان يومين من الكسل في فراشه، قبل أن يقرر أن يستنهض نفسه ليرى ما الذي يحدث في دكا مدينته المحببة. في الغرفة المجاورة كانت أمه تستلقي مرعوبة مما يمكن أن يحدث لهم. لم يكن سورنجام متأكداً من مشاعر سودهاموي.

الشيء الوحيد الواضح بالنسبة له هو أنه لن يلجأ إلى الاختباء هذه المرة، وإذا كانت نتيجة ذلك موته فليكن. إذا أتى المسلمون وقطعوهم إرباً فليفعلوا.

لم يكن سورنجان واثقاً من مدى حكمة موقف أبيه، ولكنه كان يمثل تصميمه على البقاء في البيت. مايا رحلت بمفردها ولا يمكنه أن يفعل لها شيئاً .ذهبت للعيش في بيت مسلم عند صديقتها بارول رفعت، مايا المسكينة... .تمنى أن تكون في أمان، وبينما كان يستعد للخروج نهضت كيرونموي وسألته:

- إلى أين تذهب؟

- سألقي نظرة على المدينة لأعرف ما الذي يحدث فيها .

- لا تذهب يا سورو. لا أحد يدري ما الذي يحدث في الخارج.

أجاب سورنجان باستياء وهو يصفف شعره:

- فليحدث ما يحدث. يوماً ما ينبغي أن نموت كلنا، لا ترتاعي هكذا. يزعجني أن أرى الناس مرعوبين.

اندفعت كيرونموي، وهي ترتجف خوفاً، نحو سورنجان وخطفت المشط من يده قائلة:

- اسمعني يا سورنجان. الموقف خطير في الخارج. بالرغم من الإضراب فهم يهاجمون المحلات والمعابد.. ابق بالمنزل فليس هناك داع للخروج.

لكن سورنجان كان دائماً ابناً غير مطيع. فلماذا يطيع كيرونموي الآن ؟ لم يبال بكلامها وغادر البيت. اندهش سودهاموي الذي كان جالساً وحده من رؤية ابنه يخرج، ولكنه لم يبد أي محاولة لمنعه.

هواء المساء منعش، ولكنه مشحون بصمتٍ متجهم، مخيفٍ، سورنجان لم يكن خائفاً في بيته، ولكن الآن، بعد أن غادر ملجأه، انتابه بعض الخوف، وبما أنه قرر التجول في المدينة فقد صمم أن يفعل ذلك. في الطريق ازداد شعوره بعدم الراحة عندما أدرك أن أحداً من أصدقائه المقربين، لم يسأل عنهم، أو يعرض عليهم اللجوء إلى بيته. لا بلال ولا كمال .. لا أحد، حتى إذا جاءوا لن يذهب معهم على أية حال، ولماذا يفعل ذلك؟ هل عليهم أن يحزموا حقائبهم ويهربوا في كل مرة تنشب فيها حوادث العنف؟ إنه شيءٌ مخجلٌ، وعارٌ حقيقي. في الواقع، كما فكر سورنجان، لقد كان أحمقاً عندما قبل ضيافة كمال في آخر مرة. إذا جاءوا للسؤال عنه هذه المرة فسوف يقول لهم:

- كيف يمكن أن يقتلونا وتشفقوا علينا في نفس الوقت؟ .. الأفضل أن تجمعوا كل الهندوس في البلد وتضعوهم أمام صاروخ منطلق، ساعتها ستنتهي كل مشاكلهم، بدلاً من أن تقتلوهم متفرقين أو تستعرضوا بأنكم تنقذونهم سراً.

بمجرد دخول سورنجان شارعاً أكبر، صرخت مجموعة من الصبية:

- امسكوه، إنه هندوسي.

هؤلاء الصبية جيرانه،على مدار السنوات السبع الماضية كان يلتقي بهم مرة كل يوم على الأقل. وكان يعرف اثنين منهم شخصياً، واحد منهم اسمه غُلام، كثيراً ما كان يأتي إلى بيتهم ليطلب مساهمة مالية في نادي الحي، وكان سورنجان يشارك في بعض الأنشطة الثقافية التي ينظمها النادي، وفكر حتى أن يقوم بتعليم الأولاد أشعار د.ل روي، وهيمانجا بيسواس. كانوا يأتون إلى بيته دائماً يطلبون كل أنواع المساعدة، ولأنهم جيران كان سودهاموي يعالجهم بالمجان غالباً. إنهم نفس الذين يهددون بضربه اليوم لأنه هندوسي!

أسرع سورنجان في الاتجاه المضاد، لا بدافع الخوف، ولكن بدافع الخجل، كان خجلاً ومغتماً من فكرة أن هؤلاء الأولاد سيضربونه. هذا الإحساس بالعار والحزن لم يكن موجهاً نحو نفسه بل نحو هؤلاء الذين يمارسون العدوان وليس نحو المعتدى عليهم!

اتجه إلى ميدان شابلا، صمتٌ متوترٌ في المنطقة. مجموعات صغيرة قليلة من الناس يقفون. قطع من الأحجار ملقاة عبر الشارع مع أخشاب مشتعلة وزجاج مكسور. من الواضح أن حادث عنف اندلع في المكان، منذ قليل بعض الشبان كانوا يُعدون لعمل بعض المهام، وفي الاتجاه الآخر بعض الكلاب الضالة تعدو بلا هدف. بعض عربات الريكشا مرت، وسائقوها يدقون أجراسهم. لم يفهم سورنجان ما الذي يحدث بالضبط؟. فقط الكلاب، التي لا تعاني من الخوف، بدت أنها تجري مبتهجة، لعلها كانت سعيدة لتمكّنها من الجري في الشوارع الخاوية، تمنى سورنجان لو أنه يستطيع الجري مثلها.

منطقة موتجيل التجارية، المزدحمة في العادة، كانت الآن خالية وصامتة، وأغرت سورنجان باستعادة طفولته. أن يلعب الكرة ويتناول الفواكه، أو يركب الأخشاب، ويلعب الكريكيت. نظر يساره فشاهد مبنىً يحترق، أدرك أنه مكتب شركة الطيران الهندية، لم يبق شيء من لافتته وأبوابه ونوافذه.

بعض الناس وقفوا حول الحطام يثرثرون ويضحكون. فجأة تولاه شعور بأنه مراقب، أسرع بالابتعاد عن المكتب المحترق، لماذا يهتم ببعض المباني المحترقة؟ أثناء سيره شاهد عدداً آخر من المباني المحترقة، هل هو يستمتع برائحة الخشب والطين المحترق كما يستمتع عادة برائحة الزيت المحترق؟ ربما!.

لاحظ وجود تجمع خارج مبنى الحزب الشيوعي البنغالي، ورأى الأحجار ملقاة على الطريق. وبالجوار كانت هناك مكتبة، يشتري منها الكتب عادة. لم تسلم من الاعتداء هي الأخرى؟ كتاب نصف محترق كان راقداً أمام قدميه. رواية "الأم" لمكسيم جوركي. فكر للحظة في أنه بطل الرواية بافل، ثم تخيل أنه يشعل النار في أمه، ثم يسحقها تحت قدميه. ارتجف بلا إرادة من الفكرة، بينما الكتاب يتفحم عند قدميه، تجمع المزيد من الناس، يتحدثون بهمس مرتفع، بينما المكان كله ملفوف بالتوتر والإثارة. ماذا حدث؟ ماذا سيحدث؟ لا أحد يعرف بالرغم من الشائعات التي تملأ الهواء، الشيء الوحيد الواضح هو أن مكتب الحزب الشيوعي قد احترق. ولكن لماذا؟ البعض أجاب بأن الشيوعيين غيَّروا استراتيجيتهم بالفعل ولكنهم لا يستطيعون الهرب من غضب المتعصبين. الرفيق "فرهد" مات على ما يبدو، وهناك جنازة ضخمة تم تنظيمها والدعوة إلى حفل تأبين يحضره الكل. وبالرغم من هذا، لم يتخيل أن الطائفية أحرقت مركز الحزب الشيوعي!

حدق سورنجان بأطلال المكتب المحترق. وفجأة شاهد قيصر يقترب منه. ذقنه غير حليق، وشعره غير مصفف، وعيناه بلون الدم، وقلق غريب تبدى في صوته وهو يقول بلهجة آمرة:

- لماذا خرجت؟

أجاب سورنجان:

- ألا يمكنني أن أخرج؟

- لا، ليس ذلك، ولكنك تعلم هذه الحقارة.. كل هذا الكلام عن الدين، قل لي هل يؤمنون بالدين فعلاً؟ الإرهابيون، شباب جماعة

شبير، فعلوا هذا، أحرقوا مكتب الحزب، والمكتبة، ومكتب خطوط الطيران الهندية، هؤلاء الذين كانوا ضد الاستقلال ينتظرون الآن أي فرصة لإثارة المتاعب كما لو أن الجميع بانتظار سماعهم يصرخون.

خرجا من موقع الدمار معاً، سأله سورنجان عن الأماكن الأخرى التي أحرقوها.

ذكر له قيصر اسماء أكثر من عشرة معابد، ودور عبادة هندوسية تم هدمها وإحراقها وأضاف:

- المثير للسخرية أنه في أثناء ذلك كانت المسيرات تنادي بالوئام الطائفي.

تنهد سورنجان بعمق، أزاح قيصر شعره إلى الوراء وقال:

- ليس المعابد فحسب. لقد أشعلوا النيران في معسكر الصيادين في ماجهير جهات، وعلى الأقل خمسون منزلاً تم تدميرها عن آخرها.

استطرد قيصر في ذكر عشرات المعابد، ودور العبادة، ومئات المنازل، ومحلات وممتلكات الهندوس التي أحُرقت، أو هُدمت ونُهبت، والذين ماتوا، والنساء اللواتي تعرضن للضرب والحرق. وفي نهاية هذه القائمة الطويلة من الدمار كان كل ما قاله سورنجان هو:

- أوه.

لم يرغب في قول أي شيء آخر، كل ما رغب فيه هو ركل الأحجار في طريقه، كما اعتاد أن يفعل خلال طفولته. واصل قيصر أخباره بالمزيد من الحالات، ولكن سورنجان توقف عن الاستماع، لم يكن حتى مهتماً. توقف كلاهما أمام نادي الصحافة. كان هناك عدد من الصحفيين يقفون خارج المبنى، مستغرقين في مناقشة حامية، حدّق سورنجان فيهم وباهتمامٍ غائمٍ حاول سماع كلامهم، البعض قال إنه في الهند قُتل مائتا شخص على الأقل في

حوادث عنف، وإطلاق النار من البوليس، ووصل عدد الجرحى إلى عدة آلاف. الجماعات الأصولية تم حظرها، وزعيم المعارضة استقال من منصبه. والبعض كان يحكي عن شخص في تولسيدهام أمسك به أفراد الجماعة وكادوا أن يحرقوه لولا أن تعرف عليه بعض الناس وقالوا لهم إنه مسلم.

الذين يعرفون سورنجان اندهشوا من رؤيته هناك. سألوه عن سبب خروجه من منزله، ونصحوه بالعودة إلى البيت فوراً لأنهم يتوقعون المزيد من العنف، لم يقل سورنجان شيئاً، كان مرتبكاً ومشوشاً. هل ينبغي أن يبقى في البيت لمجرد أن اسمه سورنجان دوتا؟، بينما لا يستطيع قيصر ولطيف وبلال الخروج من البيت فحسب، ولكن مناقشة الأحداث والانضمام إلى المسيرات المعارضة للطائفية. بالتأكيد ليس هذا عدلاً، أليس سورنجان مستقل التفكير، ومنطقياً، وحي الضمير مثلهم؟ استند على حائط بجواره، وبدت نظرته خالية من المعنى وهو يشعل سيجارة "بانجلا فايف" اشتراها من محل قريب .شعر بالضياع والعزلة الشديدة. الكثيرون حوله من معارفه، وكان بالطبع مقرباً من بعضهم، ولكنه يشعر بالوحدة!

شعر بإحباط من كونه لا يستطيع الانضمام إليهم في مناقشة تدمير مسجد بابري، والمعابد. حتى إذا أراد الاندماج والاختلاط معهم فلن يستطيع، لأنه كان هناك خط لا يمكنه تجاوزه. فهمَ لماذا يحاول الناس تجنبه وإخراجه من مجموعاتهم، ولماذا يشفقون عليه؟، ولكن لم يكن من السهل عليه قبول هذا. استغرق في تدخين سيجارته، ونفخ عدداً من حلقات الدخان، وعندئذٍ، ووسط النشاط المحموم حوله ترك جسده ينفصل ويسقط على الحائط القريب.

عدد الذين يلقون بنظراتهم الجانبية إلى سورنجان كان يتزايد. معظمهم يندهشون من وجوده. انضم قيصر إلى مجموعة من الناس يعدون للخروج في مسيرة. وتجمع الصحفيون بحقائبهم وكاميراتهم عند المشهد، من بينهم لوتفور، لم يناده سورنجان، ولكن بعد قليل جاء لوتفور بنفسه، مذهولاً من رؤيته وقال:

- لماذا أنت هنا، يا دادا؟

- لماذا لا أكون هنا؟

لوتفور كان قلقاً ومشغولاً بشدة وهو يقول:

- آمل ألا تكون هناك متاعب في البيت؟.

شعر سورنجان باستغراب من حماسة صوت لوتفور وسلوكه، في العادة كان الفتى خجولاً وصموتاً، ولم يكن ينظر في عين أي أحد مباشرة، كان شاباً مهذباً، وسورنجان هو الذي تحدث إلى رئيس تحرير مجلة"اكاتا" ونجح في أن يحصل له على هذا العمل. أشعل لوتفور سيجارة "بنسون" وواصل استجواب سورنجان:

- هل أنت متأكد أنه لا توجد مشكلة؟

ضحك سورنجان وقال:

- أية مشكلة؟

شعر لوتفور بالحرج وقال:

- أنت تعلم يا دادا، أعني حالة البلد.

ألقى سورنجان بعقب سيجارته وداسه بقدمه، كان مندهشاً بعض الشيء لأن لوتفور لم يرفع صوته عليه أبداً كما يفعل الآن، ولم يستطع سورنجان منع نفسه من الشعور بأن لوتفور كان وقحاً بعض الشيء.. نفث لوتفور دخان سيجارته، وقال بعبوس:

- دادا، اعتقد أنه يجب أن تذهب إلى مكان آخر اليوم. ليس من الأمان أن تبقوا في منزلكم. ألا تفكر في الذهاب إلى بيت جار مسلم لليلتين على الأقل؟

نظر سورنجان بشحوب في جزء من حبل محترق أمام محل السجائر، وأجاب بلا مبالاة مقصودة:

- لا.

- لا!!

انزعج لوتفور من موقف سورنجان واستطاع الأخير أن يستشعر القلق في صوته، لكن ما كان يقوله الشاب الصغير ليس جديداً، وكل واحد لديه الجرأة قبله نصحه بنفس الشيء تقريباً:

- ليس من الصواب أن تبقى في بيتك. الأفضل أن تختبئ. لا تكشف عن هويتك. اخرج عندما يخف توتر الموقف.

أراد سورنجان أن يشعل سيجارة أخرى، ولكن سلوك لوتفور وتحذيراته المستمرة أثنته عن إشعالها. وضع ذراعيه حول صدره وتطلع حوله، الأشجار ترتدي الأوراق الخضراء، ملابسها الشتوية. إنه يحب هذا الموسم والأشياء التي تصحبه: كعك الصباح، والدخول تحت اللحاف الذي دفأته الشمس عندما يأتي الليل، وقصص "العفاريت" التي تحكيها أمه.. .

عاد إلى الزمن الحاضر عندما رأى رجلاً ملتحياً يحمل حقيبة تتدلى على كتفه، وقف بجوار لوتفور وأخذ يحصي بصوت مرتفع الأعمال الوحشية التي ارتكبت لعدد من المعابد،ودور العبادة الهندوسية ومنازل ومحلات الهندوس. تساءل سورنجان هل يجب أن يغادر الآن، لأنه لم يعد يرغب في صحبة أحد، في نفس الوقت لم يعلم ماذا يفعل أو إلى أين يذهب بالضبط. هل يظل واقفاً هنا، وينضم إلى المسيرة، أم يرحل إلى مكان بعيد؟ ربما يجب أن يذهب إلى مكان مقفر لا أصدقاء فيه ولا أقارب ..

الرجل ذو اللحية والحقيبة المدلاة على كتفه إنضم إلى مجموعة أخرى ليعيد ما لديه من أخبار، وبدأ لوتفور يستعد للرحيل لأن لامبالاة سورنجان بدأت تزعجه.

لا يزال هناك كثير من التوتر في الهواء، مال مزاج سورنجان من جديد إلى مشاركتهم فيما يحدث، أن ينضم إلى الجمع ويقوم بإحصاء المعابد التي دمرت وأحرقت، ويسأل عن البيوت والمحلات التي نهبت وسرقت، وأن يعترض على ما يحدث. لابد من جَلْدِ هؤلاء المتعصبين. هؤلاء المتدينون المزيفون هم دجالون باسم الدين. لكن رغبته في أن يصبح جزءاً من كل ما يحدث حوله كانت

تخبو بنظرات الشفقة التي يوجهها إليه المحيطون به. بلا صوت، بدا وكأنهم يخبرونه بأنه لا يستطيع أن يشترك معهم . لقد كان حتى اليوم خبيراً في إلقاء الخطب في عدد كبير من الموضوعات، وفي تولي القيادة في مختلف النشاطات، اليوم كما لو أن قوة غريبة تنزع عنه صوته، ولا أحد حوله يريد تشجيعه على قول شيء أو عمل شيء، على أن يقف ويقاتل. انشق قيصر عن الزحام وأتى إليه وهمس:

- إنهم يخططون لعقد اجتماع في "بيت المكرم" لمناقشة قضية مسجد بابري. إنهم يتجمعون، وسيكون أكثر أمناً لك أن تعود إلى البيت.

سأله سورنجان :

- ألن تذهب أنت إلى البيت ؟

- أوه لا، أفضل أن أحضر الاجتماع الذي يدعو إلى الوئام الطائفي.

خلف قيصر كان هناك شابان صغيران اسمهما ليتون وماهاتابا، قالا أيضاً:

- هذا لمصلحتك. حتى جالخبار أحرقوه.. إنهم يفعلون ذلك حولنا، هل تتخيل ما سيفعلونه إذا عرفوا هويتك؟ إنهم ينطلقون علانية حاملين السكاكين والمخارط والسواطير.

نادى قيصر على عربة ريكشا ليرسل فيها سورنجان إلى بيته.

ظهر لوتفور وأمسك بيد سورنجان وقال بلهجة آمرة :

- تعال يا دادا، اذهب مباشرة إلى البيت. أنا فعلاً لا أفهم ما الذي أخرجك من البيت اليوم!؟.

كلهم بدأوا في الإلحاح عليه بالذهاب إلى البيت، بعض الذين لا يعرفونه جاؤوا مسرعين ليعرفوا ماذا يحدث. شرح لهم أصدقاؤه أنه هندوسي وليس من الأمان له أن يظل هنا. أطرق الآخرون مؤيدين:

- نعم، لا بد أن يعود إلىالبيت.

لكن سورنجان لم يترك بيته لمجرد أن يجبروه على العودة اليه، دفعه الأصدقاء برفق نحو الريكشا، بينما أمسك لوتفور بيده. فجأة انتاب سورنجان العناد وانتزع يده بقوة.

* * *

شعر سودهاموي بالتعب. كل ما أراده هو الاستلقاء في الفراش والراحة، لكنه وجد نفسه ينهشه القلق، ففوق كل ما حدث غادر سورنجان البيت. وبعد رحيله بقليل سمع سودهاموي طرقاً على الباب، قفز من فراشه آملاً أن يكون سورنجان قد عاد، ولكن الطارق كان اختاروجامان، جارهم، الأستاذ المتقاعد الذي يبلغ الستين من عمره، دخل البيت وردّ الباب الأمامي وسأل سودهاموي بصوت قلق:

- هل هناك أية متاعب؟

نظر سودهاموي إلى أكوام الكتب على المائدة وسأل بفتور:

- لا، ما الذي يمكن أن يحدث؟

سحب اختاروجامان مقعداً وجلس عليه، يعاني من متاعب في عظامه، ولذلك يحافظ على رأسه مستقيماً بشكل غير طبيعي وقال:

- أنا متأكد أنك سمعت بكل ما حدث لمسجد بابري؛ لم يبق منه شيء. يا له من عار!

غمغم سودهاموي ولم يعلق.

- أليس لديك شيء تقوله؟ هل تؤيدهم؟

- ولماذا أؤيدهم؟

- إذن لماذا لا تقول شيئاً؟

- الأشرار يفعلون أشياء شريرة. كل ما يمكنني عمله هو الشعور بالأسف.

- لا أكاد أصدق أن تحدث مثل هذه الأشياء في دولة علمانية! يا للعار! المؤسسة القومية بأكملها، هذه البيانات الساسية، ومحكمتهم العليا، والبرلمان، والأحزاب السياسية، والتقاليد الديمقراطية، كل شيء يفعلونه ليس أكثر من بعض الضوضاء والهواء الساخن. مهما قلت يا سودها- بابو، ليس في بلدنا أية حوادث عنف مقارنة بالهند.

تزايد الألم في صدر سودهاموي. استلقى باسترخاء في الفراش. ربما يعيد إليه كوباً من الشاي الساخن بعض الحيوية. ولكن من يعد له الشاي؟ كيرونموي مكتئبة جداً بسبب ما فعله سورنجان، ولا يُنتظر منها أن تعدَّ الشاي، لماذا خرج سورو بمفرده؟ وإذا كان يجب أن يخرج فلماذا لم يأخذ حيدر معه؟ ولكنه مندفع دائماً، ومن المستحيل إبقاؤه طالما يريد الخروج.. يفهم سودهاموي ذلك، ولكن الحزن والقلق طبيعة إنسانية لا تُفهم بالمنطق، أخفى سودهاموي خوفه وقلقه، وحَوَّل اهتمامه إلى ضيفه من جديد وقال:

- الغريب أن كل الأديان هدفها واحد- هو السلام.. والآن باسم الدين تحدث كل هذه القلاقل وافتقاد السلام، دماء كثيرة تُراقُ، وبشر كثيرون يتعذبون. أمر يدعو للشفقة أن نشهد ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين مثل هذه الأعمال الهمجية ترتكب باسم الدين، إن رفع لواء الدين كان دائماً أسهل طريق إلى سحق البشرية، وروح الإنسانية.

كان دور اختاروجامان في الكلام عندما دخلت كيرونموي إلى الحجرة تحمل كوبين من الشاي وسألت زوجها:

- هل زال ألم صدرك؟ لماذا لا تتناول أقراصك؟

وضعت الكوبين على المائدة وجلست على الفراش. قال لها اختاروجامان:

- يا بودي، أنت لا ترتدين ملابس الهندوس، السانخا والسندور، أليس كذلك؟

نظرت كيرونموي لأسفل وقالت:

- ليس من ١٩٧٥.

- حمد الله! على الأقل يمكن أن تضمني سلامتك.. الأفضل أن يكون الإنسان آمناً عن أن يكون آسفاً.

ابتسمت كيرونموي ابتسامة شاحبة، ومثلها ابتسم سودهاموي. شرب اختاروجامان شايه بجرعات سريعة. ألم صدر سودهاموي لم يتراجع ولكنه قال:

- لقد كففت عن ارتداء الدهوتي أنا أيضاً منذ فترة.. من أجل عيون حياتي العزيزة يا صديقي.

وضع اختاروجامان كوبه وقال:

- سأذهب الآن، اعتقد أنني سأمر على بينود - بابو لأطمئن عليه.

بعد ذهاب البروفيسور العجوز رقد سودهاموي في فراشة، برد شايه دون أن يمسه، أغلقت كيرونموي الباب وجلست. ظهرها إلىالضوء ووجهها في الظل. في وقتٍ ما كانت كيرونموي تغني بصوت جميل، إنها ابنة محامي شهير في بداهمانباريا. تزوجت في سن السادسة عشرة، بعد زواجها شجعها سودهاموي على تعلم الغناء والموسيقى، وتلقت بعض الدروس على يد ميتهان دي، وسرعان ما أصبحت مغنية جيدة لدرجة أنهم كثيراً ما كانوا يطلبون منها أن تغني للجمهور في ميمنسنج لأن عدد المطربين في المدينة كان محدوداً.

تذكر سودهاموي حادثة جرت عندما كان عمر سورنجان ثلاث أو أربع سنوات . يومها توترت أعصاب سودهاموي، ونزل عرقه بغزارة عندما جاء دور كيرونموي في الغناء بعد مطرب مشهور اسمه سمير شاندرادي. غنت أغنية "اماندا لوك.. مانجلا لوك.. بيراجو ساتيا سوندارو "في هذا العالم الكثير من السلام والسعادة، دعونا نعيش معاً، حتى نستوعب جماله.." أخذ الجمهور

يصفق ويصيح طالباً الإعادة، أجبروها على غناء ثلاث أغانٍ أخرى على الأقل. غنتها جميعاً بجمال وإحساس لدرجة أن شخصاً ملحداً مثل سودهاموي تأثر بعمق حتى البكاء.

بعد الاستقلال توقفت كيرونموي عن الغناء للجمهور. وذات يوم طلب منها سورنجان أن تشاركه الغناء في حفل محلي لكنها ضحكت وقالت:

- أنا لم أعد أتمرن، وصوتي ليس في حالته.

فقال لها سودهاموي:

- كفي عن التواضع. أنت تغنين ببراعة، وكل الناس يعرفونك. وذات مرة صفقوا لك طلباً للمزيد.

- نعم، أعرف ولكن هؤلاء الذين صفقوا وهتفوا لي قالوا أيضاً: "إنَّ الهندوسيات لا يخجلن من تعلم الغناء، لذلك يجلسن وسط الناس، أمام رجال أغراب ويغنين للجميع".

سألها سودهاموي:

- هل تعنين أن المسلمات لا يغنين ؟

- نعم، يغنين الآن. ولكن قبل ذلك، عندما كانت المطربات لا يحظين بالشهرة الواسعة، كان علينا أن نتلقى كل التعليقات المسيئة. ميناتادي كانت مطربة ممتازة، ولكنها أحبطت ذات يوم عندما هاجمها بعض الصبية واتهموها بأنها تحاول أن تعلم المسلمات الغناء.

قال سودهاموي:

- ولكنه شيء جميل أن نتعلم الغناء ؟

- ليس هذا ما يعتقده الجميع. كثير من الرجال يقولون إنه لا ينبغي للنساء تعلم الغناء . يعتقدون أنه يفسد أخلاقهن.

بمرور الوقت فقدت كيرونموي كل اهتمامها بالغناء. حاول أستاذها ميتهان دي تشجيعها، ولكنها تنهدت بحزن وقالت له:

- لا، يا داد، لم أعد أحب الغناء، ما الفائدة، إذا كان الناس يقولون إن الغناء والرقص قلة أدب؟

احترم سودهاموي رغبتها في التوقف عن الغناء للجمهور ولكنه شكى أكثر من مرة رفضها أن تغني حتى في البيت . ولكن أين المناخ الملائم للغناء في البيت؟! كثيراً ما كان يحدث في منتصف الليل، عندما يجافيهم النوم، أن يستيقظوا ويصعدوا إلى سطح البيت.. وهناك، وهم يتطلعون إلىالنجوم البعيدة في صمت وتتطلع قلوبهم إلىبيتهم على ضفاف نهر براهما بوترا العظيم، في مثل هذه المناسبات كانت تتغنى كيرونموي بأغنية للشاعر طاغور تتكلم عن ذكريات حلوة لا يمكن نسيانها .وكان قلب سودهاموي الصلد يصبح ناعماً، ويمتلئ بالحنين إلى الأشياء الجميلة القديمة ويشتاق إلى الحقول التي كان يجوبها في طفولته وشبابه، وملعب المدرسة، والنهر المتدفق، وضفافه التي تؤدي إلى الغابات الكثيفة سودهاموي القوي الصلب تحول في سنواته الأخيرة إلى رجل تتكسر روحه من الأحزان التي أصابته. كان يستيقظ باكياً في منتصف الليل، عندها كان يضم زوجته في حضنه ليُسكن من حزنه.

١٩٧١ كان عاماً سيئاً عليه، لأنه العام الذي اغتيل فيه أصدقاوه، جاجو نوما جوشال، وبرانولا ساركار، ونيتاي سن أمام عينيه. أخذوهم إلى معسكر الاعتقال وأطلقوا عليهم الرصاص. وبعد ذلك أخذوا أجسادهم في شاحنة وألقوا بها في فضاءٍ موحش. حيثما كان يعثر الباكستانيون على الهندوس كانوا يمسكون بهم ويركلونهم بالأحذية، يطعنونهم بالحراب، يفقأون عيونهم، ويكسرون ظهورهم. وإذا خرجوا من هذا كله أحياء كانوا يقتلونهم. رأى سودهاموي كثيراً من المسلمين يُضربون، ولكن حياتهم كان يتم الإبقاء عليها، وهذا لم يكن يحدث أبداً مع الهندوس، خلال حرب الاستقلال تكومت جثث الهندوس والمسلمين الذين قاتلوا في سبيل وطنهم في مدفن معتقل قريب. في هذه اللحظة المثيرة التي ابتهج فيها الوطن باستقلاله الوليد جاء أقارب معارفه. ماجد، ورحيم، وأدريس، وبكوا فوق رفات الهندوس والمسلمين التي حُشرت في

مقبرة ماتــهور بــاتي. كــانت دموعــهم تـتزايد عندمــا يدركــون أنــه لا يمكن التمييز بين عظامهم. خرج ســودهامــوي مـن الأسـر والتعذيـب بقدم وثلاث عظام مكسورة في قفص صدره، شفيت كسوره، وكذلك الإصابات الشديدة التي تعرض لها قضيبه المشوه، ولكن ندوب قلبـه بقيت إلى الأبد، لم يشف سودهاموي من آثـار اعتقالـه خـلال حـرب الاستقلال، عاد حياً من المعسكر، ولكن هـذا كـان كـل شـيء، ومـن وقتها لم يشعر بأنه حي فعلاً، حياة التخفي والخوف التي عاشها منـذ ذلك الوقت لم تساعد على تحسن حالته العقلية، فطيلـة سبع سـنوات عـاش فـي كـوخ صـغير مـن البـوص تحـت اسـم مسـتعار هـو عبـد السلام، في قريـة ارجـا نخيـلا فـي فـالبور: تسـمى سـورنجان باسـم صـابر، وكـيرونموي باسـم فاطيمـة. وهـو يتذكـر هـذه الفـترة كـانت تعاوده آلام ضلوعه المكسورة، وقلبه الـذي يتمـزق مـن الخجـل لأن زوجته الحبيبة كانت تتخفى باسم مسـتعار. فـي ديسـمبر عندمـا أتـى المقاتلون في سبيل الحرية إلـى فـالبور انتفضـت كـل القريـة بشـعار الاستقلال "جـوى بـانجلا" واسـتطاع سـودهامـوي أخـيراً أن ينـاديـها بالاسم الذي يعبده: كيرون: كيرون: كيرونموي. وتلاشى الألم الـذي أحرق قلبه بعد أن استعاد حرية مناداة زوجته باسمها الحقيقي وسـط الناس، هذه كانت فكرة سـودهامـوي الشـخصية عـن الحصـول علـى الاستقلال.

ذكريات سـودهاموي قطعـها فجـأةً طـرق عنيـف علـى البـاب. كــان الدكتــور هاريبــادا باتشــاريا. قــرص الــدواء الــذي وضعــه سودهاموي تحت لسانه خفف ألم صدره مما سمح له بتحية صديقـه. ولكن هاري بادا سأله:

- هل أنت مريض ؟ وجهك شاحب جدا!.

- نعم يا هاري بادا، منذ مدة أشعر أننــي لسـت علـى مـا يـرام. كما أنني لم أفحص ضغط دمي.

- لو كنت أعرف لأحضرت معي معدات قياس ضغط الدم .

- سورنجان خرج من البيت، مع كل ما يحدث، هل تتخيل مدى قلقنا عليه؟ ولكن كيف تمكنت من الوصول إلى هنا؟

- سلكت طريق مختصرة بعيدة عن الطريق الرئيسي

لفترة طويلة جلسا صامتين، وحين خلع هاريبادا عباءته قال:

- اليوم في دكا عقدت مسيرة للاعتراض على هدم مسجد بابري. في نفس الوقت سوف تعقد مسيرات سلام، الأحزاب السياسية، وعدد من المنظمات الأخرى يطالبون الجميع بالحفاظ على الوئام الطائفي، والبرلمان وجه نداء إلى الشعب بضبط النفس. والشيخة حسينة بعثت برسالة قالت فيها إنه يجب الحفاظ على الوئام الطائفي مهما حدث. ٢٣٦ شخصاً قتلوا في أحداث العنف في الهند، وفرض حظر التجول في ٤٠ مدينة، وتم حظر الأحزاب الدينية، كما وعد رئيس الوزراء بإعادة بناء مسجد بابري.

كان هاريبادا يجلس الآن ناظراً أمامه في حزن وسأل:

- هل قررت ماذا ستفعل ؟ هل ستبقى في هذا المكان ؟ لا اعتقد أن من الصواب أن تستمر في البقاء : كنت أفكر في الذهاب إلى بيت أهل زوجتي في مانيكجونا .ولكن زوج أختي جاء هذا المساء، وأخبرني أ نه في مدينة مانيكجونا تم نهب وإحراق أكثر من مائة منزل، وخمسة وعشرين معبداً، في قرية بوكجهورا أحرقت كل منازل الهندوس. كما تسللوا إلى منزل ديبني شور في منتصف الليل، واختطفوا ابنته سارا سواتي واغتصبوها.

قال سودهاموي بصوتٍ مرتفع يملأه العجب والصدمة والخوف:

- ماذا تعني ؟ هل ما تقوله صحيح؟

- أين ابنتك؟

- مايا ذهبت إلى منزل إحدى صديقاتها.

- أتمنى أن يكون منزلاً مسلماً.

- نعم .

تنهد هاريبادا وهو ويقول:

- في هذه الحالة فالأمور على ما يرام .

كيرونموي التي أصابها الانزعاج مثل زوجها من الأخبار التي يحملها هاريبادا شعرت بالأطمئنان مجدداً عندما سمعت رأي صديقهما فيما فعلته مايا.

أزاح سودهاموي نظارته ومسحها، وثم أعاد وضعها على عينيه وقال:

- في الحقيقة هذه المنطقة مليئة بالعنف، لم نر الكثير من حوادث العنف في ميمنسنج. بالمناسبة يا هاريبادا هل سمعت عن أية أحداث في ميمنسنج ؟

- نعم، سمعت أنه في قرية باشوادى في نالبرو، تم هدم معبدين، وحجرة صلاة صغيرة في ترشال، ومعبد كالي .

- ولكن في المدينة ؟ بالتأكيد لم يحدث شيء في المدينة، في الحقيقة حوادث العنف نادرة في شمال البلاد، ما رأيك يا كيرونموي هل سمعت أبداً أنهم أحرقوا معبداً في ميمنسنج ؟

قبل أن تجيب كيرونموي كان هاريبادا يقول:

- مكتب بوجا في طريق نورث بروك هول، تمثال كالي في بيت زاميندار، والمعبد المجاور، أحرقت كلها عن آخرها، اليوم في شانت فاجار نُهب محلان للحلويات ثم أحُرقا، في كوشيتا هاجمت جماعة شيبر ستة معابد في منتصف الليل . لقد شعرت بالخوف عندما سمعت عما حدث في شيتا جونج، في سلهيت، وبهولا، وشيربور، وبازار كوكس، ونواخالي .

سأله سودهاموي:

- الخوف من ماذا ؟.

- من الخروج الجماعي.

- لا : لا : لا اعتقد أن حوادث العنف ستتسع في البلد، ولا اعتقد أنه ستكون هناك هجرة جماعية..

- دادا، هل نسيت ما حدث في ١٩٩٠؟ أم أنك غير قابل للتأثر على الإطلاق؟

- أوه هذا كله كان من تدبير حكومة ارشاد.

- تعال يا دادا، لِمَ لا تلقي نظرة على سجلات مكتب إحصاء حكومة بنجلاديش ؟

خروج هذا العام سيكون هائلاً.. الناس لا يرحلون بسبب أزمة مصطنعة، في النهاية طين الوطن ليس مثل طين أصيص الزهور الذي يمكن ريه بالماء كل يوم وتغييره بانتظام، لا يا داد، أنا أشعر بالتوتر والخوف تماماً، أحد ابنائي يدرس في كالكتا، ولكن بناتي البالغات هنا، وأنا اقضي الليالي مؤرقاً من قلقي عليهن، اعتقد أنني سأرحل ..

فجأة خلع سودهاموي نظارته بعنف وصاح في صديقه :

- هل جننت يا هاريبادا؟ لا تقل مثل هذا الكلام مرة أخرى أبداً.

- أعلم ما ستقوله. ستقول لي إنني على ما يرام في هذا البلد، وإنني أكسب مالاً وفيراً، ولدي بيتي الخاص أليس كذلك؟

- لا يا هاريبادا ليس هذا هو السبب. لا علاقة للأمر بقدر المال أو الفرص المتاحة لك، حتى لو لم تكن تكسب الكثير فليس من الصواب أن ترحل. أليس هذا بلدك ؟.. أنظر إليّ، أنا على المعاش ولم أعد أكسب الكثير. وابني لا يكسب أيضاً .ولكنني نجحت في مواصلة الحياة بالقليل الذي أجنيه من علاج المرضى، وهم قلائل جداً هذه الأيام، ولكن هل يعني ذلك أن أترك البلد وأرحل؟ الذين يتركون بلادهم ليس لديهم إنسانية، مهما كانت أحوال البلد الحالية فإن البنغاليين كجنس ليسوا همجاً، أو غير متحضرين، نعم هناك بعض العنف الآن، ولكن الأكيد أن هذا أمر

طارئ. عندما يتجاور بلدان وتندلع النار في إحداهما، فلا بد أن يطير بعض الشرر إلى الجيران.. وما رأيك يا هاريبادا في أن أحداث عنف ١٩٦٤ لم يبدأها المسلمون البنغال بل البيهاريس.

لفّ هاريبادا نفسه بعباءته وقال:

- هل تعلم لماذا أختفي تحت هذه العباءة يا دادا؟ ليس لخوفي من البيهاريس، إنهم إخوتك المسلمون الذين أخشاهم.

بعد هذا الكلام إنسل هاريبادا بهدوء، وغادر البيت، وغاص في الظلام. تركت كيرونمى الباب مواربا قليلاً لترى ما إذا كان هناك أي أثر لسورنجان. تزايد توترها مع كل دقيقة تمر، ولكن لا أثر لابنهما. تتالت المسيرات بين وقتٍ وآخر، وفي كل مرة كانت ترتفع شعارات باسم الله، وطلب واحد كان يتكرر ويتكرر وهو أنه ينبغي على حكومة الهند أن تعيد بناء مسجد بابري.

عاد سورنجان أخيراً، كان مرهقاً وغير ثابت على قدميه، وأخبر أمه أنه لن يتناول العشاء.

* * *

أطفأ سورنجان مصابيح غرفته، واستلقى دون أن يواتيه النوم. وبينما كان يتقلب في فراشه عاد عقله إلى الماضي. منذ سنوات كان يعمل في مجلة "أكاتا" كمحرر، و قد أثبت في عمله الصحفي القدرة على تنظيم أفكاره بشكلٍ جيدٍ، كما وفّر له الاطلاع على كثيرٍ من المعلومات بشأن ما يحدث في البلد.

دولة بنجلاديش تأسست على قاعدة من أربعة مبادئ رئيسة: القومية، العلمانية، الديمقراطية، والاشتراكية. جاهد البلد طويلاً وكثيراً من أجل الاستقلال، بدءاً بالحركة من أجل اللغة ١٩٥٢، حتى الاستقلال عام ١٩٧١.

أثناء ذلك انهزم أشرار الطائفية والتعصب الديني، ولكن بعد الاستقلال حصل الرجعيون الذين وقفوا ضد الاستقلال على السلطة، وغيّروا الدستور، وأعادوا شرور الطائفية والأصولية التي

نُبذت خلال حرب الاستقلال. الدين استُخدِمَ كسلاح سياسي، وعدد كبير من الناس تم إجبارهم على اتباع تعاليم الإسلام. وهكذا، بشكل غير قانوني، وغير دستوري أصبح الإسلام الدين القومي لبنجلاديش .ونتيجة لذلك انفجرت الطائفية والتعصب الديني، من ١٩٧٩ إلى التسعينيات جرت المئات من حوادث التحرش، والطرد، والاستيلاء على الممتلكات، والاعتداء، والاغتصاب، والقتل للهندوس في مختلف أنحاء البلد، ولم يتعرض مرتكبوها لأي عقاب قانوني من أين نوع. هذه القائمة من الكوارث التي لا حصر لها دارت في عقل سورنجان وحرمته من النوم، تذكر عمله الصحفي على مدار عامي ٨٨-١٩٨٩ كمراسل لصحيفة "أكاتا" وتذكر كيف كانت تقاريره تمتلئ دائماً بمثل هذه القصص من المعاناة والألم. بعضها نُشر في المجلة، والبعض الآخر لم ينشر. كان رئيس تحريره يقول:

- هل تفهم يا سورنجان، كل هذه الحوادث هي نوع من قمع القوي للضعيف، والغني للفقير. إذا كنت غنياً فلن يهم كثيراً أن تكون هندوسياً، أو مسلماً، هذه للأسف قاعدة النظام الراسمالي، إذا ذهبت ونظرت ستجد أن المسلمين الفقراء يتعرضون أيضاً للظلم، هذا لأن الأغنياء يستغلون الفقراء دائماً، إنهم لا يهتمون إذا ما كان ضحاياهم هندوساً أم مسلمين.

اليوم الثالث

قشعريرة الشتاء لم تكن شديدة كعادتها هذا الموسم، أزاح سورنجان لحافه، لم يشعر برغبة في الخروج من الفراش وخاصة أنه لم ينم طيلة الليل، ولهذا استرخى يفكر في أحداث الليلة السابقة، لقد سار في كل أنحاء المدينة، بالرغم من أنه لم يشعر برغبة في زيارة أي شخص أو التحدث مع أحد، وبالرغم من أنه لم يطع والديه، وترك البيت، كان قلقاً عليهما، ولكن قلقه لم يكن شديداً لدرجة تجعله يبقى في البيت.

المشكلة أن خوف كيرنموي كان يصل إليه، وفتور همة أبيه لم يكن له علاج على الإطلاق. وأخته!.. لقد شعر برغبة في شرب الكحول حتى ينسى الخوف الذي رآه في عيني مايا وهي ترجوه أن يساعد الأسرة.. فكر بحب في أخته، شعر كما لو أنها بالأمس فقط كانت فتاة صغيرة تتعلق بأصابعه وهما يمشيان بجوار النهر، تذكر نوبات غضبها الصغيرة مع كل عيد "بوجاس" من أجل الحصول على ملابس العيد الجديدة. كان سورنجان يقول لها:

- انس البوجاس! سوف يرقصون هذه الرقصات غير المهذبة أمام تماثيل الصلصال، وأنت تريدين ملابس جديدة في مثل هذه المناسبة؟ بصراحة أتمنى أن تكبري.

عندئذٍ كانت مايا، السمراء الجميلة، حتى في طفولتها، ترجوه برقة:

- دادا، خذني لمشاهدة البوجاس.. أرجوك

وكان سورنجان يصدها:

- لماذا لا يمكنك أن تكوني مجرد إنسانة ؟ وتكفي عن التصرف كهندوسية.

وكانت مايا تقهقه ضاحكة وتسأله:

- لماذا؟ أليس الهندوس بشراً؟

في ١٩٧١ اضطرت مايا إلى استعارة اسم "فريدة"، وكثيراً ما كان سورنجان يخطئ ويذكر اسمها المستعار حتى بعد عام من انتهاء الحاجة إلى هذا الاسم، كانت مايا تعترض وتتظر له بغضب، فيصالحها سورنجان بشراء الشيكولاته لها.

عندئذ تنسى مايا غضبها، ويشع وجهها بالبهجة! ذكريات جميلة عديدة يحملها لها، كل عام خلال أعياد المسلمين ترى صديقاتها يلعبن بالبالونات الملونة بفرح، فتطلب مثلها لنفسها، وتطلب أيضاً "بومب" والعاب نارية ،وفي أحيانٍ أخرى كانت تشد ساري كيرونموي وتطلب منها طعاماً من الذي تأكله صديقاتها المسلمات، وتقول:

- إنهم يطبخون الفتة واللحم في بيت نظيرة، أريد فتة أيضاً..

وكانت كيرونموي تعد لها ما طلبته. مايا تركت المنزل الآن. رحلت منذ امس الأول ولم تصلهم أخباراً عنها حتى الآن، أبواه لم يكونا شديدي القلق عليها،ربما لأنها محتمية في بيت مسلم. بجانب هذا كانت مايا تحمل مسؤولية الأسرة، ورغم صغر سنها فهي تكسب بعض المال من إعطاء الدروس لتلميذتين.. كانت طالبة في "كلية ايدن" ونادراً، إن لم يكن مطلقاً، ما طلبت أي دعم مالي من أجل دراستها.

سورنجان هو الذي يحتاج إلى المال دائماً، لم يكن يعمل، ولا يستفيد من "درجة الاستاذ" التي حصل عليها في الفيزياء،وحين أنهى دراسته الجامعية حرص على العثور على عمل،تقدم لعدد من الوظائف. لقد كان واحداً من أمهر طلاب الجامعة، ولكن المضحك أن الطلبة الذين كان يساعدهم في دراستهم حصلوا على درجات أعلى من درجاته في الامتحان النهائي، والطلبة الذين حصلوا على درجات أقل منه، حصلوا على وظائف جيدة كمدرسين. لم يكن السبب هو ضعف أداء سورنجان في المقابلات الشخصية ،انترفيو،

بل الأكثر إثارة للعجب إن الذين كانوا يطرقعون بألسنتهم إحباطاً بسبب أدائهم السيء، كانوا أول من يحصلون على خطابات القبول، في نفس الوقت لم يحصل سورنجان على أي خطاب، أحياناً قيل أن السبب هو افتقاده للسلوك الجيد والاحترام الكافي لممتحنيه. ولم يكن هذا صحيحاً بالرغم من أن سورنجان أول من يعترف بأنه لم يضع نصب عينيه أن يقول لهم "السلام عليكم" أو غيرها من كلمات التحية. بالنسبة له لم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإبداء الاحترام، والحقيقة أن الذين كانوا يرددون "السلام عليكم" باستمرار، ويظهرون الكثير من الاحترام لممتحنيهم هم أول من يشتموهم بمجرد خروجهم من الاختبار.ولكن هؤلاء هم الذين كانوا ينجحون، أما سورنجان الذي لا يتصنع الاحترام فكان يُتهم بقلة الصبر والاحترام.. ربما هذه هي الأسباب، أو ربما لأنه هندوسي. المهم أنه لم يحظ بأي وظيفة حكومية. حصل على عمل في شركة خاصة، ولم يعجبه، فاستقال بعد ثلاثة اشهر.

مايا، على أية حال، عرفت كيف تتنازل وتحيا، نجحت جداً في دراستها، وبدا أنها قادرة على الحصول على عمل في المؤسسات غير الحكومية، وإن كان سورنجان قد راوده الشك بأن حياتها أسهل نسبياً بسبب صداقتها لجاهنجير.. هل سينتهي الأمر بمايا إلى الزواج منه عرفاناً بالجميل؟ شعر بالقلق الشديد من هذا الأمر.

في تلك اللحظة دخلت كيرونموي بكوب من الشاي. عيناها منتفختان. أدرك سورنجان أنها قضت ليلة أرقة.لم يرغب في أن يزيد همومها بالاعتراف بأنه لم ينم طيلة الليل، ولذلك تثاءب وقال:

- لم أدرك أن الوقت تأخر هكذا.

لم تبد كيرونموي أية إشارة تدل على أنها سمعته، في الحقيقة تبدو أنهاغير مدركة لأي شيء يحيط بها، وقفت هناك تحمل كوب الشاي، كما لو أنها تنتظر من ابنها أن ينهض ويأخذ الكوب من يدها، كم اتسعت الهوة بينهما حتى تقف كيرونموي دون أن تنطق بكلمة طيلة هذا الوقت، أخيراً، تكلم سورنجان:

- ألم تعد مايا؟

- لا..

كأنها في انتظار السؤال، جلست على السرير بالقرب من ابنها. استنتج سورنجان أنها جلست بجانبه لأنها لا تشعر بالأمان، حَوَّل وجهه عن عينيها المؤرقتين، وشعرها غير المصفف، وساريها غير المرتب، أخذ رشفة من شايه وقال:

- لماذا لم تعد؟ هل المسلمون يحافظون عليها؟ أليس لديها ثقة فينا؟ إنها حتى غير قلقة علينا، هل يكفيها أنها تنقذ نفسها فحسب؟

لم ترد كيرونموي، أشعل سورنجان سيجارة، لم يكن قد دخن أمام أبويه أبداً من قبل، ولكن هذا ليس يوماً عادياً. عندما سحب الدخان ونفخه لم يدهشه أنه لا يدخن بطبيعية في حضور أمه. بشكل ما، في هذه اللحظة، اندمجت الهوة بينهما ،وانهار الحائط الذي يفصل بينهما، لقد مضى وقت طويل لم يتواصل فيه مع أمه بتعاطف، أراد فجأة أن يضع رأسه على حجرها مثل طفل بريء ويتحدث معها عن الطائرات الورقية التي كان يلعب بها في طفولته، والتي كان يأتيه بها عمه نوبن من سيلهيت. نظر إلى حجر أمه باشتياق، ثم نفخ حلقة أخرى من الدخان وقال:

- ألم يأت كمال أو بلال أو أي أحد بالأمس؟

قالت دون حماس:

- لا..

كمال لم يكلف نفسه أن يسأل عنهم؟ هذا غريب فعلاً.. هل يعتقد أصدقاؤه أنه مات؟ أم أنهم لم يعودوا مهتمين بإنقاذ حياته؟

سألته كيرونموي بصوت مخنوق:

- أين كنت ليلة أمس؟ كنا وحدنا في البيت، ألا تبالي حتى بما يمكن أن يحدث لنا؟ وماذا لو حدث لك شيء؟ جوتام ذهب أمس لشراء بعض البيض فضربه أولاد الجيران المسلمون وكسروا له سنين، واعتقد أنهم كسروا إحدى ساقيه.

- أوه.

- ألا تذكر منذ عامين عندما كانت تأتينا أم جيتا للعمل لدينا؟ لم يكن لديها مسكن لأنهم أحرقوا منزلها.. ولذلك اضطرت للعمل في بيوت الناس حتى تجمع بعض المال لبناء بيتها. لقد كانت هنا هذا الصباح مع أطفالها لتخبرني بأنهم أحرقوا بيتها الجديد أيضاً، وسألتني من أين يمكن أن تشتري بعض السم، اعتقد أنها أصيبت بالجنون.إذا عادت مايا سنصبح أكثر قلقاً عليها.

- هذا لا يعني أن تظل تحت سقف مسلم بقية حياتها؟

صوت سورنجان كان صارماً، صحيح أنه اصطحبهم بنفسه مرة للاحتماء في بيت مسلم. ولكن يومها لم يكن اليأس يتمكن منهم مثل اليوم. بل شعروا ببساطة أن بعض الأشرار يرتكبون بعض الأفعال الشريرة، التي سرعان ما يتلاشى أثرها بمرور الوقت، وفي النهاية فلكل بلد نصيبه من هؤلاء الأشرار.لكن الأمر يبدو مختلفاً هذه المرة، بشكل يشعرهم بأن هناك مؤامرة عميقة تهدف إلى التضحية بهم. في الواقع راود سورنجان الشك لدرجة صعب عليه معها أن يصدق أن أصدقاء مثل كمال وبلال وقيصر ولوتفورليسوا طائفيين.

ألم يقم شعب بنجلاديش بحركة شعبية ١٩٧٨ من أجل إضافة كلمة "بسم الله" إلى الدستور في عهد حكومة ضياء الرحمن؟ ومرَّة أخرى في ١٩٨٨ ألم يكن هناك مطلب شعبي لإعلان الإسلام ديناً قومياً للدولة؟ كان مفترضاً أن تكون العلمانية معتقداً قوياً بين المسلمين البنغال، خاصة أثناء حرب الاستقلال، عندما تضامن الجميع في سبيل النصر. ماذا حدث لكل هؤلاء بعد الاستقلال؟ ألم يلحظوا بذور الطائفية وهي تُغرس في بنية القومية؟ ألا يشعرون بالغضب؟ الغضب هو الذي أدى إلى الحرب المجيدة التي أسفرت عن الاستقلال. لكن لماذا لم يستشعروا الحاجة الماسة لخلع جذور الفتنة الطائفية بسرعة؟ كيف أمكنهم تبني الفكرة المستحيلة بأن الديمقراطية يمكن ان تحيا في بلد تغيب عنه العلمانية؟ المثير

للسخرية أن هؤلاء الذين اتحدت أياديهم للقتال في سبيل الاستقلال هم أنفسهم الذين يسمحون للطائفية بالاستمرار.

- بالأمس دمروا معبد شواريجهات، هل سمعت بذلك؟ ومعبد شيارمبور أيضاً.

تمدد سورنجان بينما واصلت كيرونموي الحديث بصوت يخلو من أي أمل، وقاطعها قائلاً:

- هل ذهبت أبداً لتصلي في معبد حتى تشعري بكل هذا الأسف على تدميرها؟ فليدمروا كل المعابد التي يرغبون في تدميرها. ثم ماذا؟ فليسووا كل هذه المباني الدينية بالأرض.

- إنهم يغضبون عندما يُدمر أحد المساجد. ألا يدركون أن الهندوس يغضبون بنفس القدر عندما تدمر معابدهم؟ الآن مسجد واحد دُمِر. هل يجب أن يدمروا مئات ومئات المعابد؟ ألا ينادي الإسلام بالسلام؟

- المسلمون يعرفون جيداً أن هندوس هذا البلد لن يجنوا شيئاً إذا أظهروا غضبهم. هذا هو سبب استمرارهم في التدمير دون تردد، هل يمكن لأي هندوسي أن يلمس مسجداً واحداً؛ معبد نايا بارزا يرقد أطلالاً منذ عامين، هل يملك أي هندوسي الشجاعة على أن يوجه لكمتين بيده إلى حائط أي مسجد؟

نهضت كيرونموي بصمت، وغادرت الحجرة، أدرك سورنجان أنها تشيد حوائط كثيفة حول نفسها بشكل يتزايد خطورة، في وقت ما لم تكن تفرق بين بارفين وآرشانا ولكن مشاعرها وأفكارها تتأرجح الآن دون توازن، وشغلها سؤال وليد: هل من حق المسلمين وحدهم أن يغضبوا ويثوروا؟ ليس سراً أن الاعتداء على الهندوس بدأ قبل أحداث ١٩٩٠وهدم مسجد بابري بوقتٍ طويلٍ. تذكر سورنجان أنه في ١٩٧٩، صباح ٢١ ابريل قام شخص اسمه أيوب علي بتحطيم تمثال الآلهة كالي في معبد ساهب بازار التاريخي في مقاطعة راجاهي، بعد تحطيم المعبد تم تدمير محلات الهندوس أيضاً، وخلال هذه السنوات الطويلة تعرَّضَ

الهندوس لعشرات الاعتداءات ،من سرقة التماثيل وتحطيمها، وحرق المعابد وهدمها، والاعتداء على ممتلكاتهم وسرقتها، وإفساد احتفالاتهم، وحوادث أخرى عديدة استدعاها عقل سورنجان في رأسه قبل أن يقهقه ضاحكاً:

- ثم يقولون إن بنجلاديش بلد يؤمن بالوحدة الوطنية!

كان وحيداً في الحجرة. عند الباب فقط تجلس القطة التي قفزت مرتاعة من صوت ضحك سورنجان. انصرف تركيزه إلى الحيوان. ألم تذهب القطة إلى معبد داكشواري اليوم ؟ ترى ما ديانة هذه القطة؟ هل هي هندوسية؟ ربما، طالما أنها تعيش في بيت هندوس. لونها أسود وأبيض. كانت تنظر إليه بعذوبة كما لو أنها تشفق عليه. ولكن إذا كان بإمكانها أن تشفق فلا بد أنها مسلمة! مسلمة ليبرالية! لأنهم عادة ما ينظرون إلى الهندوس بإشفاق. نهضت القطة ورحلت. ربما ذهبت إلى مطبخ المسلمين المجاور لأنه لا يوجد طعام في هذا البيت . في هذه الحالة فالقطة ليس لها هوية دينية. الحقيقة أن بني الإنسان فقط هم الذين يختلفون فيما بينهم عرقياً وطائفياً.وهم فقط الذين لديهم معابد ومساجد. ضوء الشمس غمر الغرفة، فأدرك سورنجان أن النهار يتقدم. اليوم ٩ ديسمبر حين تمنى أن يصبح قطاً!

لا يذكر أنه صلى في حياته أبداً. ولا دخل معبداً. لقد نذر نفسه للاشتراكية، والخروج إلى الشوارع، وإلقاء الخطب، وحضور الاجتماعات، وتبني قضية الفلاحين والعمال، والسعي لأجل إحداث نهضة اقتصادية اشتراكية في البلد. الحقيقة أنه ضيع وقتاً طويلاً من أجل مصالح الآخرين بحيث لم يعد لديه وقت يرعى فيه مصالح عائلته ومصالحه الشخصية. ومع ذلك فهاهم يشيرون إليه ويصفونه بالهندوسي! وها هو يطارده أبناء الجيران صائحين خلفه "امسكوه.. امسكوه". لم يضربوه اليوم، ولكن ربما يفعلون غداً، كما ضربوا جوتام عندما خرج لشراء البيض.

عندما ذهب لشراء السجائر من محل "موتي" على الناصية كان يمكن أن يتلقى ضربة قوية من خلفه، فتقع سيجارته من فمه،

وعندما يستدير ليرى مهاجميه، ربما كان سيتعرف على وجوه قدوس، ورحمان، وولايات، وسبحان، يهددونه بالعصي والسكاكين. أغلق سورنجان عينيه واستغرق في التفكير. هل يعني هذا أنه خائف؟ ربما. بالرغم من أنه ليس جباناً. نهض من الفراش وبحث عن القطة. أذهله السكون الذي يلف البيت . كما لو أن أحداً لا يعيش هنا منذ زمن بعيد. في ١٩٧١ عندما تركوا القرية وأتوا ليعيشوا في منزل براهما بالي. انزعج سورنجان من الهدوء والخواء المحيطين بالمكان.. وافتقد طائراته الورقية، ولوح الكرة، والبلي الزجاجي، وكتبه. غياب الحياة النشطة، والناس. أصابه بالاكتئاب وملأه بالتوتر. مثل التوتر الذي يملأه اليوم. هل سيواصل أبوه الرقاد؟ إذا ارتفع ضغط دمه فمن سيستطيع أن يذهب لاستدعاء الطبيب؟ أو الذهاب إلى السوق وشراء الأدوية، واستدعاء عمال الإصلاح، وشراء الصحف.. لم يقم سورنجان أبداً بمثل هذه المهام الروتينية. ولم يكن لديه الكثير ليفعله في هذا البيت. كان عادة يعود إلى البيت متأخراً في المساء، إن لم يكن متأخراً جداً، ليجد الباب الأمامي موصدا، فيدخل من الباب الجانبي المؤدي إلى غرفته. وعندما يحتاج إلى المال كان يطلبه من سودهاموي أو كيرونموي، بالرغم من خجله من هذا. كان في الثالثة والثلاثين من العمر ولا يزال عاطلاً، وفي كل مرة كان يقول له سودهاموي:

- سوف أعتزل العمل قريباً يا سورنجان واعتقد أنه ينبغي أن تفعل شيئاً.

صحيح أن سودهاموي لم يعهد له بحمل مسؤوليات الأسرة، وواصل دعم الأسرة بعلاج القليل من المرضى في الغرفة الخارجية، ولكن من الواضح أن هذا مجهود شاق عليه. بينما سورنجان يتنقل ذهاباً وإياباً بين مكتب الحزب، ونادي الصحفيين، وغيرهما من الأماكن التي يتردد عليها، ثم يعود إلى البيت مجهداً تماماً ليجد الطعام في انتظاره على المائدة، فيأكل إذا كان راغباً أو يتركه إذا كان شبعانا.

مع الوقت اتسعت الهوة بين أفراد أسرته، ولكن هذا الصباح عندما أتت أمه لرؤيته، حاملة كوب الشاي، وجلست بجانبه على الفراش، أدرك سورنجان كم لا يزال والداه يعتمدان على ابنهما الضال، غير المبالي، وغير المسؤول تماماً. انتابه الأسى، ففي النهاية ما الذي قدمه لهذه الأسرة ؟ كم مضت بهم الحياة! سودهاموي الذي كان ثرياً معظم حياته لا يشكو الآن، ويرضى تماما بوجبة صغيرة من "الدال" والأرز. وهذا ينطبق على سورنجان أيضاً. يمكن أن يتذكر عندما كانت أمه تجبره على شرب اللبن، وأكل الزبد، وتنظر إليه بغضب إذا رفض، ولكن ها هو اليوم حتى إذا اشتهى اللبن والزبد والسمك واللحم فهل يستطيع سودهاموي أن يوفرها له؟ على أية حال الثراء والرفاهية لم يشغلاه أبداً، وأبوه هو المسؤول عن طبع هذا الميل داخله، في الوقت الذي كان يهتم فيه كل أصدقائه بالملابس والموضة، كان سودهاموي يشتري لابنه كتباً عن حياة اينشتين، ونيوتن، وجاليليو، أو عن الثورة الفرنسية، والحرب العالمية الثانية، أو روايات جوركي وتولستوي. أراد سودهاموي لابنه أن يصبح متميزاً. ولكن هذا الصباح، وهو يبحث عن القط، لم يكن سورنجان متأكداً من أنه تميز بأي شكل من الأشكال، أو أنجز أي شيء من الأشياء! لم يكن جشعاً أو مادياً. ولا أنانياً بالمرة، بل يهتم دائماً بصالح الآخرين. ولكن هل هذا إنجاز؟ دخل سورنجان الشرفة مشوش الذهن. سودهاموي الذي كان يقرأ الجريدة نظر إلى ابنه وناداه:

- سورنجان.

- ماذا؟.

- هل سمعت أنه قبض على جوش وافاني وثمانية آخرين؟.. يقولون إن هناك أكثر من أربعمائة قتيل. سوف يحاكم كاليان سينج المسؤول عن هدم المسجد. أمريكا والعالم كله أدانوا الاعتداء على مسجد بابري. اعلن حظر التجول في بهولا. الحزب الوطني البنغالي، ورابطة عوامي وأحزاب أخرى عديدة تدخلت في محاولة لحماية الوئام الطائفي. ها هنا وصف تفصيلي لآخر التطورات.

عينا سودهاموي كـانت عذبتيـن وممتلئتيـن بالدهشـة، فـي مثـل عينـي القطـة، وهو يواصل:

- هل تعرف الحقيقة، هؤلاء الذي يرتكبون حـوادث العنـف لا يفعلون ذلك بدافع الحب لأي دين. إن هدفـهم الأساسـي هـو السـرقة والنـهب. هـل تعلـم لمـاذا يسـرقون محـلات الحلـوى؟ ببسـاطة لكـي يشـبعوا نـهمـهم إلـى الحلـوى؟ وهـم يقتحمـون محـلات المجوهـرات كذلك سعياً وراء الذهب. أحداث العنف بوضوح تام من صُنْع قُطـاع الطرق. في الحقيقة ليس هنـاك فـارق فعلـي بيـن أعضـاء الطـائفتين المتقاتلتين. والمعدل الذي تنتظم به مسيرات السلام يؤكـد أن شـيئا أو آخر سوف يُصنع حالاً لإعادة الأمور إلى طبيعتها. فـي ١٩٩٠، لـو تذكر، ترتب على أحداث العنف سقوط حكومة ارشـاد. بالمناسـبة يـا سورو، هل عَوَّض ارشاد الهندوس عن خسائرهم كما وعد؟

- هل جننت يا بابا؟

- في الواقع ذاكرتي تخونني هذه الأيام. المتـهمون فـي قضيـة إغتيال نيدا رباد حكم عليهم بالموت شنقاً.. هل تعرف؟

أدرك سورنجان أن سودهاموي يحاول إقنـاع نفسـه بـأن هنـاك عدالة تنجز في هذا البلد لصالح الهندوس. الحادث الذي يشـير إليـه جرى في براهمانباريا في قريـة نيرادبـاد: لقد اختطفـت بيراجابـا لا ديبنيـاث وأطفالها الخمسة إلى بحيرة دوباجوري، وقُتلـوا جميعـاً وتـمَّ تمزيقهم إلى قطع صغيرة ببلطـة، ثم حُشرت هذه القطـع فـي برميـل، أغلق جيداً وألقـي فـي البحـيرة. فـي اليـوم التـالي طفـا الـبرميل إلـى السطح واكتشفت الجثث الممزقـة.. وتبيَّـن أن السـبب هـو محاولـة قاتليهم التخلص من الشـهود لأنـهم سبق وأن قتلـوا زوج بيراجابـالا في خلاف لطرده من أرضه. هؤلاء القتلـة تـاجول إسـلام، وشـهورا بدشـاه، عوقبـا بـالموت فعـلاً بحكـم صـدر مـن المحكمـة العليـا بعـد حوالـي أربعـة شـهور مــن المذبحـة الجماعيـة. كـان واضحـاً أن سودهاموي يشير إلى هذا الحادث ليقنع نفسه بأن الهندوس يعاملون بالمثل في هذا البلد ،وأنهم ليسوا مواطنين من الدرجة الثانية.

- هل انضممت إلى مسيرة السلام بالأمس؟ كم عدد الذين شاركوا فيها يا سورنجان؟

- لا أعلم.

- لا بد أن الحكومة وفرت حماية البوليس؟

- لا أعلم.

- في منطقة شانكاري بازار قيل أن الطرق امتلأت عن آخرها بالسيارات الممتلئة بالشرطة.

- لا أعلم.

- الهندوس فتحوا محلاتهم، أليس كذلك؟

- لا أعلم.

- يقولون إن الموقف سيء جداً في بهولا. هل هذا صحيح، أم أنهم يبالغون؟

- لا أعلم.

- لا بد أنهم ضربوا جوتام لأسباب شخصية. صحيح أنه مدمن؟

- لا أعلم.

خمول سورنجان وجموده جعل حماس سودهاموي ورغبته في المعرفة يخبوان. فرد صحيفته أمام ابنه وقال:

- ألا تقرأ الجرائد؟

- ما الفائدة التي سأجنيها من ذلك ؟

تجاهل سودهاموي رد ابنه وقال:

- في كل مكان تقريباً يعترضون على أحداث العنف. الكل يحاول منع الموقف من التدهور. ومن ثم، فهل يمكن للجماعات أن تخترق حواجز الشرطة والوصول إلى المعابد؟

- ما الذي يعنيك بشأن المعابد؟ هل أصبحت متديناً فجأة في نهاية حياتك؟ ما الذي يضيرك إذا هُدمت كل المعابد؟.. فليدمروا كل ما يصادفهم من معابد، وسوف أكون سعيداً بذلك.

شعر سودهاموي بالحرج. سورنجان أدرك أنه يؤذي هذا الأب البسيط الطيب، ولكنه لم يحتمل وجهة نظره للموقف. كأعضاء في الأقلية الهندوسية. كان من الحماقة، بالنسبة له، أن يحاولوا رؤية أنفسهم على قدم المساواة مع المسلمين الذين هم مواطنون من الدرجة الأولى في هذا البلد. إنهم لم يكونوا أبداً من المحافظين على التقاليد الهندوسية. وكانوا يتعاملون مع المسلمين كأخوة وأصدقاء.. ولكن إلى أين أوصلهم ذلك؟ ما الخير الذي جناه سودهاموي وسورنجان من ذلك؟ بالرغم من كل شيء، الهوية الوحيدة التي حصلا عليها هي هويتهما الهندوسية. كانا دائماً غير متدينين، وقضيا حياتهما يناديان بالإنسانية والخير.. ولكن أي خير جنياه؟ لا يزال عليهما أن يعيشا خائفين من التعرض للإهانة، والأذى البدني، ولا يزال عليهما أن ينكمشا من الخوف من احتمال الاحتراق بنار الطائفية.

تذكر سورنجان يوم أن كان طالباً بالصف السابع، حين انتحى به صديق اسمه فاروق خلال"فسحة" الغداء وقال له:

- أحضرت معي طعاماً لذيذاً. لن اخبر أي أحد عنه. أنت وأنا فقط سنأكله بهدوء فوق السطح.

لم يكن سورنجان جائعاً إلى هذا الحد، ولكنه قبلَ دعوة فاروق. صعدا إلى السطح ، فتح فاروق صندوق غذائه، وأخرج الكباب، وأعطاه لسورنجان. واستغرق كلاهما في الثرثرة أثناء الأكل، وفي المقابل فكر سورنجان أن يطلب من أمه إعداد بعض حلوى الجوز اللذيذة لصديقه. وسأل فاروق:

- هل تصنع امك هذا؟ لا بد أن أدعوك لطعام أمي قريباً.

المفاجأة التي أدهشت سورنجان، أنه بمجرد انتهاء الطعام،صاح فاروق مبتهجاً، وقبل أن يفهم سورنجان ما يحدث،

كان فاروق يهبط السلم عدواً، لينضم إلى بقية الفصل في ضحكهم على "مقلب" قيام فاروق باستدراج سورنجان حتى يأكل لحم البقر. وتجمعوا حول سورنجان يسخرون منه، ويغيظونه، واحدٌ يقرصه، وواحدٌ يضربه على رأسه، وآخر يشد قميصه وعددٌ منهم حاول حتى أن يخلع عنه بنطاله. بعضهم أخرجوا له ألسنتهم، وآخرون مبتهجون إلى أقصى درجة، ملأوا جيوبه بالصراصير الميتة. أرتعد سورنجان، وامتلأت عيناه بالدموع، ليس خجلاً من أنه تناول اللحم البقري ولكن من المتعة السادية التي يشعر بها رفاق فصله على حسابه.. انتابه إحساسٌ عميقٌ بالغربة. وعَبَرتْ رأسه لأول مرة فكرة أنه ينتمي لنوع معينٍ من البشر، وأنهم جميعاً ينتمون إلى نوع آخر.وحين عاد إلى البيت ، يومها، انفجر في بكاء جارف. وعندما سأله أبوه أجابه:

- لقد تآمروا علي لآكل لحم البقر.

ضحك سودهاموي وقال:

- هل هذا سبب يدعو للبكاء؟ لحم البقر لذيذ. سوف أذهب إلى السوق غداً وأشتري بعضاً منه. وسنأكله معاً.

في اليوم التالي وفى سودهاموي بوعده. وطبخت كيرونموي لحم البقر بعد أن استغرق سودهاموي بعض الوقت في إقناعها، باستفاضة، بعدم جدوى ولا منطقية مراعاة مثل هذه التقاليد.حتى القديسون أبطال الملاحم لم يكن لديهم هذا التشدد، كما أخبرها سودهاموي.. وبجانب هذا بيَّن لها أنهم يحرمون أنفسهم من اللحم البقري المشوي، المتبل لذيذ المذاق. وتدريجياً كفت أحاسيس الخجل، والخوف، والندم عند سورنجان الطفل عن إزعاجه.

أسرة سودهاموي كانت تتطلع إليه في كل شيء، ومن جانبه أحسن سودهاموي تربية ابنائه. في الحقيقة كان سورنجان يرى أن أباه إنسان غير عادي، ولذا أسبابه، ففي مثل هذه الأيام والظروف الصعبة، من النادر أن تجد شخصاً بهذا القدر من الشرف،

والبساطة، ونقاء التفكير والسلوك، والحب، وفوق هذا كله إحساس قوي بالعلمانية وكراهية الطائفية.

غادر سورنجان غرفة أبيه بهدوء. لم يكن راغباً في قراءة الجريدة. لم يكن مهتماً بالمرة بوجهات نظر المثقفين في الطائفية، ولم يكن راغباً في مشاهدة صور مسيرات السلام. لم يكن يحتاج إلى إحساس الطمأنينة الذي يحظى به أبوه من قراءة مثل هذه الأشياء. كان يُفضل أن ينظر إلى القطة التي ليس لها هوية. القطط لا تنتمي إلى أي دين بعينه، وتمنى سورنجان مرة أخرى لو كان قطاً.

* * *

عاد سودهاموي من معسكر الاعتقال بعد أيام قليلة. هل كانت سبعة أيام؟ ستة؟ لم يعد يستطيع التذكر بدقة. كل ما يعرفه أنه كان ظمآناً للغاية خلال سجنه.ظمآناً لدرجة أنه كان، رغم يديه وقدميه المقيدتين وعينيه المعصوبتين، يحاول دحرجة نفسه على أمل أن يسقط على طبقٍ من الماء. ولكن أين يمكن أن يوجد الماء في هذا المعسكر. نهر براهما بوترا يفيض بالماء، ولكن كل آنية المعسكر كانت خاوية. عندما توسل من أجل الماء. ضحك الحراس الساديون منه. وذات يوم أعطوه بعض الماء. خلعوا عصابته، وأجبروه على مشاهدتهم يتبولون في إبريق. وعندما وضعوه على فمه أشاح سودهاموي بوجهه مشمئزاً، ولكن أحدهم فتح فمه بالقوة بينما صبّ الآخر محتويات الإناء فيه . الذين كانوا يتفرجون انفجروا في ضحكاتٍ قاسيةٍ بينما السائل الملحي الساخن ينزلق إلى عنقه. تمنى سودهاموي ساعتها لو أنه شرب سُماً.

علقوه على لوح خشبي وجلدوه. مع كل جلدة طلبوا منه أن يصبح مسلماً، يقرأ الشهادة ويُشهر إسلامه. لكن سودهاموي ظل عنيداً. جلادوه الغاضبون، قالوا له أخيراً إنهم سيجعلونه مسلماً سواء قبل أم لا. ذات يوم بعد أن أحبط مساعيهم مرة أخرى مددوه وختنوا قضيبه. شاهد سودهاموي الدماء ،وغرلته المقطوعة، وسمع الضحك القاسي قبل أن يفقد الوعي. بعد هذا اليوم فقد الأمل في أن

يعود إلى أسرته حياً. كل الهندوس في المعسكر وافقوا على تلاوة الشهادة واعتناق الإسلام على أمل النجاة بحياتهم ،ولكنهم قتلوا بالرغم من هذا . المفاجأة أنهم أبقوا على حياة سودهاموي، ربما لأنه شديد "التدين".. التعذيب لم يتوقف، وفي النهاية خرج من المعسكر منكسراً، ومنسحقاً. وحتى الآن يذهل سودهاموي من نجاحه في الوصول إلى بيته بعظامه وضلوعه المكسورة، ونزيف جروحه الخطيرة. أين وجد القوة والإرادة؟

ربما هي نفس القوة التي تجعله حياً إلى الآن. عندما وصل إلى براهما بالي سقط على قدمي كيرونموي، التي ارتعدت من رؤية هذا الجسد النازف المحطم الراقد أمامها، لكنها وجدت قوة غير عادية على لملمة شتات زوجها وطفليها، والحفاظ على سلامتهم، دون أن تنهار، أو تسمح لدموعها بالسقوط. وعلى مدار الشهور التالية لم تسمح لنفسها أبداً برفاهية الانهيار. وعندما قال لها الأصدقاء المسلمون.

- دعينا نستدعي الشيخ لتقرأوا الشهادة وتعلنوا إسلامكم.. هذه آمن وسيلة لسلامتكم. اشرحي الأمر لأبي مايا.

أبدت كيرونموي نفس قوة إرادة زوجها التي أبداها في المعسكر. في الليل، بعد نوم الجميع، كانت تواصل رعاية سودهاموي. تطبب جراحه وتضمدها بمزق القماش التي قطعتها من ساريها، طيلة هذه المدة بالرغم من حملها الهائل، لم تبك كيرونموي ولو مرة واحدة. ولكن بعد الاستقلال، عندما تجاهلت الجميع من حولها، وألقت بنفسها بين ذراعي سودهاموي وبكت بمرارة، بكت مثل طفل باندفاع ورغبة دون أن تحاول كبح نفسها على الإطلاق.

وهو ينظر إلى كيرونموي الآن، شعر سودهاموي أنها تدخر دموعها كما فعلت على مدار تسعة اشهر خلال ١٩٧١. سوف تنفجر فجأة ذات يوم، وسوف ينهار هدوئها غير الطبيعي,. لم يكن لديه شك في أن سُحباً سوداء من الحزن تجمعت في قلبها، ولكنه عرف أنها سوف تنتظر حتى لحظة إعلان الـ"جون بانجلا" لتُعربَ

عن مشاعرها بحرية. وسوف تنتظر الحرية حتى تزين جبهتها بالسندور، وترتدي السانكهاس، ويرتدي سودهاموي الدهوتي، ويصبحوا كلهم أحراراً بلا قيود، وتستعيد نفسها الحقيقة من جديد. متى تنقضي هذه الليالي اليائسة، كما انقضت ليالي ١٩٧١؟

حتى تزداد الأمور سوءاً، أقلع مرضى سودهاموي عن زيارته أيضاً. في الماضي كان يأتي منهم ستة أو سبعة على الأقل، حتى والمطر ينهمر، أما الآن فلا أحد يأتي، وجد الأمر خانقاً أن يجلس عند الباب هكذا طيلة الوقت، يُحدق بذهولٍ وخوفٍ في كل مرة تمر إحدى المسيرات صائحة "تارايا تكبير: الله أكبر.. أيها الهندوس ارحلوا إذا أردتم الحياة". بالرغم من تفاؤله وثقته برجال وطنه فهو يدرك أن المتعصبين يستطيعون تفجير منزلهم، وإشعال النيران فيه في أي وقت، ومن الممكن تماماً أن تسرق ممتلكاتهم أو حتى يَتمّ اغتيالهم. تساءل عما إذا كان هناك "خروج جماعي" للهندوس فعلاً، كان يعرف أن عدداً من الهندوس غادروا البلد ١٩٩٠، ولكن لأن إحصائيات التعداد السكاني الجديدة لا تجري تقديرات منفصلة لأعداد الهندوس والمسلمين، لم يكن هناك وسيلة لمعرفة عدد الذين رحلوا.

نظر سودهاموي إلى المكتبة، فوجد أن الغبار يتجمع على الكتب في رفوفها. حاول نفخه وتنظيفها. عندئذٍ لاحظ نسخة من كتاب إحصاء السكان لعام ١٩٨٦ الذي يحتوي أيضاً على إحصاءات أعوام ١٩٧٤، ١٩٨١.

في ١٩٧٤ كان يشكل الهندوس ١٣,٥% من إجمالي عدد السكان. في ١٩٨١ كانوا يشكلون ١٢,١% فقط. أين ذهب الباقون؟ هل مغادرة البلد كانت الحل الوحيد. ألم يكن ينبغي أن يبقوا في وطنهم، ويقاتلوا في سبيل حقوقهم؟ لعن سودهاموي الهندوس المهاجرين لكونهم جبناء. شعر بأنه ليس بخير. عندما تناول كتاب التعداد من فوق الرف شعر بضعف في يده اليمنى. والآن عندما حاول إعادته للرف لم يجد لديه القدرة على فعل ذلك.

نادى كيرونموي، ولكن حتى في ذلك، شعر بثقل غريب في لسانه. انتابه الرعب، بقسوة وصلابة.. حاول نقل قدمه خطوة، أدرك أن قدميه لا تستجيبان له، صاح بضعف:

- كيرون.. كيرون..

كانت زوجته قد بدأت في طبخ بعض الدال عندما سمعت نداء سودهاموي، فذهبت إليه. حاول الوصول إليها لكن يده سقطت بجانبه، همس:

- كيرون، أرجوك ارقديني على الفراش.

فوجئت كيرونموي بالتغيير الذي أصاب زوجها. لماذا يرتعش هكذا؟ ولماذا يتعلثم؟ ساعدته على الرقاد في السرير وسألته:

- ماذا يؤلمك؟

- أين سورنجان؟.

- لقد خرج تواً. طلبت منه البقاء ولكن لم يستمع لي.

- لست على ما يرام يا كيرون، أرجوك افعلي شيئاً.

- لماذا ثقُلَ كلامك. ما الذي يحدث؟

- لا أشعر بيدي اليمنى،وقدمي اليمنى لا تستجيب أيضاً! هل أصبت بالشلل يا كيرون؟

شعرت كيرونموي بالخوف، وأمسكت بذراعي سودهاموي قائلة:

- لا قدر الله! لا، لابد أنك تشعر كذلك بسبب الإرهاق. أنت لم تنم، ولم تأكل جيداً.

تقلب سودهاموي بلا راحة في الفراش وقال:

- كيرون اخبريني، هل احتضر؟ هل يبدو أنني أموت؟

- من استدعي؟ هل استدعي هاريبادا بابو؟

قبض سودهاموي علي يد كيرونموي بكل ما لدى يده اليسرى من قوة وصاح يائساً:

- لا.. يا كيرون.. لا تتحركي من هنا.. ابق بجواري.. أين مايا؟

- تعلم أنها ذهبت إلى منزل بارول، ولم تعد إلى الآن.

- أين ولدي يا كيرون؟

- كُفَّ عن الهذيان بهذه الطريقة؟

- كيرون، افتحي كل البواب والنوافذ. احتاج إلى بعض الضوء، بعض الهواء النقي.

- دعني استدعي هاريبادا بابو. استرخ بهدوء.

- كل الهندوس تركوا ديارهم ورحلوا. لن تجديهم.. استدعي مايا.

- كيف أرسل إليها.. قل لي؟ لا يوجد أحد هنا.

- لا.. لا تتحركي خطوة واحدة يا كيرون، استدعي سورنجان.

بعد ذلك أصبح صعباً إيقاف سودهاموي، أو فهم كلماته المتلعثمة.. كيرونموي أصابها الانزعاج الشديد. ماذا تفعل؟ هل تصرخ لجذب انتباه الجيران؟ سوف يساعدونها فهي تعرفهم منذ سنوات. ولكن وهي تفكر في هذا، أدركت أنه لن يجدي. أي جار سوف يساعدها؟ حيدر، أم جوتام، أم واحد من أسرة شفيق صاحب؟

شعرت كيرونموي بالعجز التام. رائحة الدال المحترق ملأت الغرفة.

كما حدث في جولته السابقة، لم يكن يعرف سورنجان إلى أين يتوجه اليوم. فكر في الذهاب إلى بلال، ولكن بمجرد عبور كاكاريل ارتعب من رؤية الأطلال المحترقة لمحل جالخبار المعروف. المناضد والمقاعد ملقاة خارج المكان محطمة. تطلع إلى

المشهد وتشاءم، وقرر أن يغير خط سيره فجأة، والذهاب إلى بولوك في شامبياغ، نادى على عربة ريكشا.

لقد مضى وقت طويل لم ير فيه بولوك، يسكن بجوار منزل بلال، حيث يقضي سورنجان وقته يضحك ويثرثر مع أصدقائه، دون أن يجد وقتاً للمرور على بولوك!

لم يجب أحد على صوت جرس الباب ولكن سورنجان لم يرفع يده عن الجرس.

وأخيرا سأل شخص من داخل المنزل بصوت يكاد ألا يسمع:

- من الطارق؟

- أنا سورنجان .

- سورنجان من؟

سورنجان دوتا.

تمكن سورنجان من سماع صوت القفل. بولوك الذي فتح الباب بنفسه قال بصوت خفيض:

- ادخل.

- ما هذا ؟ لماذا تقوم بكل إجراءات الأمن هذه؟ ألا يمكنك ببساطة أن تعتمد على" العين السحرية"؟

لم يجب بولوك . أغلق الباب، وأعاد فحص القفل . اندهش سورنجان . قال بولوك بنفس الصوت الخفيض:

- كيف خرجت من منزلك ؟

- رغبت في ذلك .

- ماذا تعني؟ ألا تخاف مطلقا؟ ماذا لو كلفتك هذه الحماقة حياتك؟ أم تسعدك المغامرة فحسب؟

جلس سورنجان وقال :

- كيفما ترى.

لاحظ أن بلوك خائف حقاً، فقد جلس على مقعد آخر يتنفس بصعوبة وقال:

- هل لديك معرفة بكل ما حدث؟

- لا.

- الموقف بالغ السوء في بهولا، عشرات القرى والمناطق تعرضت لخسائر فادحة.حوالي ٥٠ ألف هندوسي من حوالي ١٠ آلاف عائلة انتهوا تماماً، العصابات أشعلت النار في بيوتهم بعد نهبها. سرقت ممتلكات لا تقل قيمتها عن ٥٠٠ مليون تاكا، قتل اثنان، وأصيب مائتان بجراح..

واصل بولوك سرد حوادث العنف الأخرى ضد معابد وبيوت الهندوس، وعندما انتهى سأله سورنجان:

- أين نيلا؟

- إنها خائفة للغاية ؟ ماذا عنك ؟

- يمكنني فحسب أن أقول إنني حي.

أغلق سورنجان عينيه واسترخى. سأل نفسه لماذا لم يذهب إلى منزل بلال بدلاً من المجيء هنا؟ هل أصبح طائفياً، أم أن الموقف دفعه لذلك . فتح عينيه عندما سمع بكاء آلوك، ابن بولوك، الذي يبلغ عمره ست سنوات . قال بولوك :

- هل تعرف سبب بكائه ؟ أطفال الجيران الذين اعتادوا على اللعب معه يومياً رفضوا أن يشاركهم اللعب اليوم. يبدو أن حجور طلب منهم عدم الاختلاط بأطفال الهندوس.

- من هو حجور؟

- إنه الشيخ الذي يأتي إلى منزلهم ليعلم أطفالهم اللغة العربية.

- لكن جارك هو أنيس أحمد؛ إنه عضو في الحزب الشيوعي على ما أذكر، هل تقول إنه يعلم أطفاله اللغة العربية؟

- نعم.

مرة أخرى أغلق سورنجان عينيه. حاول أن يضع نفسه مكان آلوك. يرتعش الطفل الصغير ويبكي على أشياء بدأ يفهمها تواً. لقد حُرم من أصدقائه الذين يلعب معهم يومياً في لحظة. تذكر سورنجان كيف أتت مايا من المدرسة ذات يوم لتقول باكية:

- المدرس طردني من الفصل .

لقد تقرر على كل المدارس تخصيص دروس إجبارية في الدين، وطلب المدرس من مايا ترك الفصل في حصة الدين. كانت الهندوسية الوحيدة ولم يكن لديهما كتاب دين لها، كما لم يكن هناك مدرس هندوسي في المدرسة ليعطيها الدرس، ولذلك وقفت خارج الفصل تشعر بالضياع والوحدة الشديدة سألها سودهاموي:

- لماذا خرجت من الفصل؟

- لأنني هندوسية كما ترى.

قرب سودهاموي ابنته منه. كان مصدوماً ومجروحاً ومهاناً بدرجة أعجزته عن الكلام لبرهة . في نفس اليوم ذهب إلى مدرس الدين وقال له:

- في المستقبل أرجو ألا تخرج ابنتي من الفصل، وألا تشعرها بأنها مختلفة.

بعد ذلك أصبحت مايا أسعد حالاً عندما سُمِحَ لها بحضور دروس الدين، وذات يوم سمعتها كيرونموي تردد أثناء لعبها بمفردها" الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين". شعرت كيرونموي بالخوف وسألت زوجها:

- ما هذا ؟ هل من الإجباري أن يتخلى المرء عن عرقه ودينه ليحصل على نصيب عادل من التعليم؟

التطور الجديد أقلق سودهاموي أيضاً. من الصواب أن يحافظ على سلامة ابنته العقلية بالسماح لها بتعلم مبادئ الإسلام، ولكن هناك مشكلة جديدة: ماذا لو انشغلت مايا بالإسلام؟ ولهذا أرسل شكوى كتابية إلى ناظر المدرسة يقول فيها إن الدين شيء شخصي جداً ولا ينبغي أن يكون جزءاً إجبارياً من المنهج الدراسي، وأنه كأب لا يرغب في السماح لأطفاله بتلقي أي معلومات عن أي دين على الإطلاق، فكيف إذن تجبرهم سلطات المدرسة على اتباع تعاليم دين بعينه. واقترح سودهاموي أنه بدلاً من دروس الدين فالأكثر فائدة تدريس مادة جديدة عن سير العظماء وأفكارهم وتعاليمهم لأن من شأن هذا أن يفيد أبناء كل الطوائف بالمثل،ولا يتسبب في إصابة الاقليات بعقدة الدونية. على أية حال فقد تجاهلت سلطات المدرسة رسالة سودهاموي، ولم يتغير شيء. دخلت نيلا الغرفة. كانت فتاة نحيلة جميلة. عادة كانت تتأنق ولكن ليس اليوم. هناك دوائر سوداء تحت عينيها الممتلئتين بالخوف والقلق، قالت بعصبية:

- سورنجان ـ دا، لماذا لم تزرنا منذ وقت طويل؟ ألا ترغب في السؤال عنا ومعرفة ما إذا كنا لا نزال أحياء؟ إننا نعلم دائماً عندما تأتي لزيارة الجيران.

عند هذه الجملة انهارت وبكت. لماذا تبكي لمجرد أن سورنجان لا يأتي لزيارتهم؟

هل هو الإحساس بالعجز الناشئ عن الشعور بالاضطهاد هو ما جعلها تبكي؟ هل شعرت أن سورنجان وبولوك وآلوك يشعرون بعدم الأمان والتعاسة مثلها؟ فجأة شعر سورنجان بقرابة شديدة لهذه الأسرة. منذ خمسة ايام فقط قضى ساعات في منزل بلال يثرثر ويستمتع بوقته مع الأصدقاء، ولم يرغب في زيارة بولوك وأسرته وقتها، الآن تختلف مشاعره.

- لماذا أنت عصبية ؟ لن يمكنهم عمل الكثير في دكا . البوليس يتواجد في شانكهاري بازار، وإسلامبور، وتانتيا بازار.

- البوليس كان متواجد في المرة الأخيرة أيضاً. ولكنهم سرقوا معبد داكشواري، وأشعلوا فيه النيران في حضور رجال البوليس الذين لم يفعلوا شيئاً.. أليس كذلك؟ ما الذي أخرجك اليوم؟ يجب ألا تثق بالمسلمين. قد تعتقد أن شخصاً ما صديقك، ولكن لا تفاجأ إذا جاء وقطع رأسك فجأة.

أغلق سورنجان عينيه من جديد، هل يساعده ذلك في تقليل معاناة قلبه وروحه؟

في الخارج قدر كبير من الصراخ والصياح. ربما يدمرون أحد محلات الهندوس..

بعينين مغلقتين أمكنه الإحساس بشيء يحترق، كما استطاع أن يرى بعيني عقله عدداً من المتعصبين يرقصون بالأسلحة البيضاء، والقضبان الحديدية، في المساء السابق زار جوتام. وجد صديقه راقداً، والكدمات تحت عينيه وصدره وظهره، وضع يده على قلبه، وجلس بجوار سريره دون أن يتكلم. قال له جوتام:

- دادا، لم أفعل لهم شيئاً. كانوا عائدين من المسجد بعد صلاة الظهر، وكنت ذاهباً لشراء بعض البيض.. لم أتصور أن هناك ما يجب أن أخشاه، لأن محل البيض قريب. وأنا أدفع ثمن البيض فوجئت بركلة في ظهري. فوجئت بستة أو سبعة أشخاص منهم. ماذا أفعل بمفردي؟ صاحب المحل، وكل المارة وقفوا يضحكون أثناء قيامهم بضربي. حتى عندما ألقوا بي، وضربوني لم أقل شيئاً بالمرة، وأثناء ذلك استمروا في شتمي:

- أيها الهندوس الوضعاء الملعونون.. سوف نقتلك يا ابن الحرام. هل تظنون أنكم ستفلتون بعد تدمير مسجد بابري؟ سوف نطردكم جميعاً من هذا البلد.

استمع إليه سورنجان دون أن يجد كلمات يطمئن بها صديقه. شعر بدقات قلب جوتام العنيفة. هل يدق قلبه بنفس الطريقة؟ أحضرت نيلا الشاي، وأثناء تناوله تحدثوا عن مايا:

- أنا قلق على مايا. ماذا لو قررت فجأة أن تتزوج جاهانجير؟

- يا الله الطيب، هل هذا صحيح يا سورنجان دادا؟ أرجوك امنعها قبل فوات الأوان. أنت تعلم كيف أننا نتخذ قرارات متسرعة دائماً عندما نكون تحت ضغط الظروف.

- ربما أمر عليها أثناء عودتي إلى البيت لأصحبها معي. لقد لاحظت تغيراً واضحاً في مايا. ربما ترغمها الرغبة في النجاة على تغيير اسمها... منتهى الآنانية.

بدت عينا نيلا وكأنهما تعكسان حقيقة موقفهم الجماعي. وراح آلوك في النوم، خداه يحملان، أثر الدموع. وقف بولوك،وأخذ يتمشى بعصبية. أصاب سورنجان بعض قلقه. لقد نسيا شايهما الذي برد الآن، أراد سورنجان أن يغلق عينيه ويفكر. هذا البلد قولاً وعملاً هو بلده وبلد أبيه، كما كان بلد جده،وجد جده! لماذا برغم ذلك يشعر بهذه الغربة ؟ لماذا يشعر بأنه لا يستطيع ممارسة حقوقه في هذا البلد، بلده؟.. ليس لديه الحق في الكلام بحرية،ولا الانتقال كما يشاء، أو ارتداء الملابس التي يريد ارتداءها، لا يستطيع، باختصار، عمل أي شيء بإرادته الحرة. كما لو أن أحد يخنقه. لا إرادياً امتدت يداه إلى عنقه وضغطتا بقوة حتى شعر بأنفاسه تهرب منه، خفف سورنجان قبضته على عنقه وصاح بيأس:

- بولوك، أ شعر أنني لست على ما يرام!.

قطرات من العرق كانت متجمعة على جبين بولوك. لماذا يعرق هكذا في يوم شتوي؟ امتدت يد سورنجان إلى جبينه، فوجئ بأنها مبتلة بالعرق أيضاً. هل هو الخوف؟ لا أحد يضربهما أو يخنقهما فعلاً. لماذا يشعران بالرعب إذن؟ لماذا تدق قلوبهما بهذه السرعة ؟ توجه سورنجان إلى التليفون وطلب رقم ديليب دي، صديقه الذي كان من زعماء الطلبة المشهورين، وجده في البيت لحسن الحظ. اخبره ديليب دي بمزيد من الحوادث التي جرت في شيتاجونج. وهو يضع السماعة طلب منه بولوك أن يتصل بديبابراتا

ليرى ما إذا كان على ما يرام. بعد ديبا براتا اتصل سورنجان بمزيد من أصدقائه الهندوس للاطمئنان عليهم. كان يتحدث إليهم لأول مرة منذ وقت طويل جداً، الآن كان يشعر بالقرابة لهم. دق جرس التليفون. التقطه سورنجان. كان أحدهم يطلب بولوك من بازاركوكس. بعد نهاية المحادثة قال بولوك:

- جماعة شبير في بازار كوكس أحرقوا العلم الوطني.

فوجئ سورنجان بان المعلومة لم تهمه. المفروض أن يمتلئ بالأسى والألم، والغريب أنه شعر بلا مبالاة تامة تجاه إحراق العلم الوطني، في النهاية هو ليس علمه، أليس كذلك؟ كان غريباً أن يشعر هكذا تجاه الأمر. حاول أن يلملم نفسه ويعيد توجيه مشاعره.. كيف يكون ضيق الأفق وأنانياً هكذا؟ شعور اللامبالاة لم يغادره،كان يجب أن يشعر بالغضب . أتى بولوك وجلس بجوار سورنجان وقال:

- لا تعد إلى البيت اليوم. ابق معنا، لا تعلم ماذا يمكن أن يحدث في الشوارع، لا أحد منا يستطيع الخروج الآن.

لوتفور نصحه بنفس الشيء ليلة أمس، ولكن سورنجان تعجب من أنه يجد نصيحة بولوك مخلصة، بينما شعر أمس أن نصيحة لوتفور كانت إعلاناً عن تكبره وقوته. تنهدت نيلا بيأس وهي تقول:

- اعتقد أننا لن نستطيع الاستمرار في هذا البلد. نحن في أمان اليوم، غداً قد نكون الضحايا. أي خوف نضطر جميعاً إلى العيش فيه! الأفضل أن يعيش المرء فقيراً على أن يعيش غير مطمئن.

كان سورنجان على وشك قبول عرض بولوك بالبقاء عندما تذكر أن سودهاموي وكيرونموي وحدهما في البيت، فقرر أن يرحل، وقال :

- سأغامر بالذهاب في كل الأحوال. على الأكثر سأصبح شهيداً. سوف يجد الناس جثة مجهولة تحت زهور، وأوراق أشجار الأمة، وسوف ينظرون نحوي ويقولون "مجرد حادث عابر.." ما رأيك؟

ضحك سورنجان عالياً، لكن نيلا وبولوك لم يبتسما مجرد ابتسامة صغيرة. في الخارج وجد سورنجان عربة ريكشا، ولكن الساعة كانت لا تزال الثامنة. لم يشعر برغبة في العودة إلى البيت. فكر بشيء من المرارة في حظ بولوك الطيب.. لقد وجد فتاة لطيفة، واستقراراً مادياً. سورنجان وحده الذي لم يستطع تحقيق أي شيء. في وقت ما كان لديه الحافز على الزواج وتكوين أسرة، بعد زواج بارفين قرر التخلص من هذه الفكرة نهائياً، ولكن منذ شهرين التقى بفتاة اسمها راتنا، فاشتعل الدافع القديم مجدداً. لم يجد، بالطبع، وقتاً ولا فرصة لإخبار راتنا بحبه لها. في أول مرة التقيا معاً سألته راتنا:

- ماذا تفعل بوقتك؟

- لا شيء .

- ألست في الخدمة العامة، أو البيزنيس، أوالأجرة ؟

- لا.

- ألست منخرطاً في السياسة؟

- انسحبت منها.

- علمت أنك كنت عضواً باتحاد الشباب؟.

- لم أعد أحب كل هذا.

- ما الذي تحبه؟.

- التنقل.. ولقاء الناس.

- ألا تحب الأشجار، والأنهار..؟

- نعم أحبها ولكن أحب الناس أكثر، هناك قصة ما، أو سر داخل كل إنسان.. وأنا أحب إختبار هذه الأشياء المجهولة في عقل الإنسان.

- هل تكتب الشعر؟

- لا، على الإطلاق. ولكن بعض أصدقائي شعراء.

- لماذا لم تتزوج؟

- لم ترض بي واحدة.

- ولا واحدة؟

- واحدة فعلت .. ولكنها رفضت في النهاية أن تخاطر.

- لماذا؟

- لأنها مسلمة، وأنا كما تعلمين، أدعى هندوسياً. لم أطلب منها أن تصبح هندوسية ولكن كان يجب أن أغيِّر أنا اسمي إلى شيء مثل "عبد الصبور".

ضحكت راتنا عندما سمعته يقول ذلك، وقالت:

- أفضل شيء في الدنيا عدم الزواج، الحياة قصيرة والأفضل أن يعيش المرء دون روابط أو التزامات.

- هل هذا سبب عدم زواجك أيضاً؟

- بالضبط.

- اعتقد أنه شيء طيب بمعنى ما.

- طالما أن لدينا نفس الآراء فسوف تصبح صداقتنا قوية.

- بالنسبة لي الصداقة شيء واسع للغاية، ليس مجرد اتفاق على بعض الأمور.

- هل ينبغي أن يصلي المرء ليحظى بصداقتك؟

ضحك سورنجان وقال:

- منذ متى أصبحت محظوظاً هكذا؟

- يبدو أن ثقتك بنفسك قليلة.

- ليس هذا، ثقتي بنفسي كبيرة ولكن ليس بالآخرين.

- لماذا لا تجرب أن تثق بي؟

في هذا اليوم شعر سورنجان بسعادة كبيرة. أراد أن يستعيد هذا الإحساس في عقله. وتذكر راتنا لأنه كان يحتاج إلى رفع روحه المعنوية. في الأيام الأخيرة، عندما يغرق في الكآبة، يفكر في راتنا. تري كيف حالها؟ هل يذهب إلى آزيمبور لزيارتها.

سوف يذهب ببساطة ليطمئن عليها. هل ستشعر ببعض الحرج عندما تراه؟

لم يعرف سورنجان ماذا يفعل. في الأيام الأخيرة يسعى الهندوس إلى الالتقاء ببعضهم للاطمئنان على بعضهم البعض. ألن تعتقد راتنا أن هذا هو سبب زيارته؟أن يطمئن على سلامتها؟ وربما لا تشعر إذن بغرابة في مشاهدته أمام عتبة منزلها.

طلب من سائق الريكشا أن يستدير باتجاه أزيمبور.فكر مجدداً في راتنا . لم تكن طويلة، وبالكاد تصل إلى كتفيه. جميلة وذات وجه مستدير، وهناك حزن في عينيها يستغربه سورنجان ويتساءل دوماً عن سببه.. فتح مفكرة جيبه ليراجع عنوانها.

* * *

لم تكن راتنا في المنزل. فتح رجل عجوز باب البيت الأمامي فتحة صغيرة وأخبره بأنها ذهبت إلى مدينة سيلهيت، وأن موعد عودتها غير معروف.

هل ذهبت إلى سيلهيت لقضاء مهمة خاصة بالعمل ؟ أم أنها في إجازة؟ أم هربت من دكا ؟ أم إنها لم تذهب على الإطلاق؟ هل يقولون سيلهيت ليتخلصوا منه؟

ولكنه أخبرهم باسمه، وهو اسم هندوسي بوضوح.. لا ينبغي أن يخافوا منه، ملأت هذه الأفكار رأسه وهو يتمشى في شوارع آزيمبور.

لم يتعرف أحد على هويته الهندوسية. معظم المارة يرتدون الطواقي على رؤوسهم. بعض الشباب الثائرين واقفين في دائرة، وآخرون كانوا يتسكعون فحسب. ولكن أحداً لم يتعرف عليه، استغرب سورنجان الأمر، لو استنتج واحد منهم أنه هندوسي فسوف يمسكون به،ولن يتركونه إلا جُثّة هامدةً في المقابر بكل تأكيد. ليس لديه شك في هذا، لأنه لن يستطيع الدفاع عن نفسه بمفرده. مرة أخرى سمع دقات قلبه العالية، كما سمعها عند فراش جوتام. أمكنه أن يشعر بالعرق المتصبب على جبهته.

إحساس غريب أن تبتل جبهته بالعرق، بينما يشعر جسده بالبرد بسبب الريح الجليدية التي تخترق قميصه الخفيف.. مشى سورنجان حتى وصل إلى بالاش. وهنا فكر في المرور على نيرماليندو جوون للاطمئنان عليه... كان صديقه يستأجر غرفة في مجمع سكني لموظفي الفصل الرابع بكلية الهندسة. سورنجان يكن إحتراماً عميقاً لجوون، لأنه شريف ومثقف، ولا يتردد في الإعلان عن آرائه. عندما طرق الباب فتحت له طفلة صغيرة في حوالي الثانية عشرة. كان جوون جالسا في فراشه يشاهد التليفزيون.. وبمجرد أن رأى سورنجان أنشد بيتا من أغنية لطاغور تقول:"أرجوك ادخل إلى غرفتي المتواضعة.." سأله سورنجان:

- هل هناك فائدة من مشاهدة التليفزيون؟

- أشاهد الإعلانات. بطارية تعمل بالطاقة الشمسية، ساري من الحرير الفاخر، معجون أسنان جديد، كما أشاهد أيضاً حمادثات والقرآن.

لم يستطع سورنجان منع نفسه من الضحك وقال:

- هل هكذا تقضي يومك؟ لا اعتقد أنك خرجت من المنزل؟

- هناك طفل مسلم عمره أربع سنوات يعيش في منزلي. إننا نعتمد عليه فعلياً في إنقاذ حياتنا، بالأمس ذهبت إلى منزل آشيم، كان يسير أمامي وأنا أتبعه. ضحك سورنجان مجدداً وقال:

- ولكن الباب فُتح دون الاستعلام عن هوية الطارق. هل كنت تتوقع زائراً آخر؟

ضحك جوون بدوره وقال:

- ليلة أمس في حوالي الثانية صباحاً، وقف بعض الشباب في الطريق يعدون لتنظيم مسيرة، ويناقشون الشعارات التي سيشتمون بها الهندوس . فجأة صحت عليهم "من هناك؟" فابتعدوا بهدوء. أنت تعرف أن الكثيرين يعتقدون أنني مسلم بسبب شعري ولحيتي.

- هل لا زالت تكتب الشعر؟

- لا. ما الفائدة؟ لقد توقفت عن كل هذا.

- هل يعرضون أي شيء في التلفزيون؟ أعني هل قالوا أي شيء عن المعابد التي يتم تدميرها؟

- لا، إطلاقاً. إذا شاهدت التليفزيون سيواتيك الانطباع بأن الوئام الطائفي يسود هذا البلد، وأنه لا توجد أحداث عنف هنا، في الهند فقط تحدث مثل هذه الأشياء.

- بالأمس قال أحدهم إن ما لا يقل عن أربعة آلاف حادث عنف قد وقع في الهند. مع ذلك لم يغادر مسلمو الهند وطنهم، ولكن الهندوس هنا يضعون قدماً في بنجلاديش والأخرى في الهند، لمزيد من الوضوح، المسلمون في الهند يقاتلون في سبيل قضيتهم، أما الهندوس في بنجلاديش فيهربون.

قال جوون باسى:

- المسلمون في الهند في موقف يسمح لهم بالقتال، لأن الهند دولة علمانية. هنا، السلطة في أيدي الأصوليين. لا مجال للقتال هنا. الهندوس مواطنون من الدرجة الثانية. منذ متى يكون لدى المواطنين من الدرجة الثانية حق القتال؟

- لماذا لا تكتب عن هذا؟

- أرغب دائماً في الكتابة عن هذه الأشياء، ولكن لو فعلت سوف يتهمونني بالدعاية للهند. في الواقع أرغب في الكتابة عن عدد كبير من الموضوعات، ولكنني لا أفعل. ما الفائدة على أية حال؟

عاد جوون لمتابعة التليفزيون. أحضرت جيتا بعض الشاي. لم يرغب سورنجان في تناول الشاي بسبب التأثير الذي تركه كلام جوون عليه، قام وقد زاد إحساسه بالألم والمعاناة التي تجذرت في قلبه. هل المعاناة تعدي؟ ترك بالاش خلفه وتوجه إلى تيكاتولي. قرر عدم تأجير ريكشا لأن كل ما تبقى لديه كان خمسة تاكا. اشترى سيجارة من ناصية بالش. عندما طلب نوع "باتجلا فايف" نظر إليه صاحب المحل باستغراب. سقط قلب سورنجان بين قدميه. هل خَمَّن البائع أنه هندوسي؟ وهل يعلم أنه منذ أن هُدم مسجد بابري فأنه يمكن ضرب أي هندوسي دون عقاب؟ دفع ثمن السيجارة بسرعة وابتعد. أدهشه أن يشعر بهذا الخوف الذي لم يعرفه أبداً من قبل.

لقد غادر المحل دون أن يشعل سيجارته، لمجرد أنه فكر في احتمال أن يكتشفوا أنه هندوسي! هوية المرء الدينية ليست مكتوبة على جسمه بالطبع. ولكن سورنجان خشي أن يستطيعوا التعرف عليه من سلوكه وكلامه ومشيته! عندما دخل منطقة تيكاتولي عوى ،فجأةً، كلبٌ ضال بصوت مرتفع، فقفز سورنجان خارج جلده تقريباً من شدة الرعب.

في نفس اللحظة سمع بعض الصبية يصيحون: "امسك..امسك". ودون أن ينظر خلفه انطلق يعدوا بأسرع ما يمكن. تصبب جسده عرقاً، انفتحت أزرار قميصه، ولكنه واصل الجري. بعد مسافة بعيدة توقف عند الناصية وتلفت خلفه، لم يكن هناك أحد على مرمى البصر. هل جرى دون سبب على الاطلاق؟ ألم تكن هذه الكلمات تعنيه؟ هل بدا يسمع أصواتاً غير حقيقة؟ أم أن كل هذا هلاوس صوتية؟

لم يطرق سورنجان باب البيت الأمامي، لأن الوقت كان متأخراً. فتح باب غرفته الجانبي ودخل.عند ذلك سمع كلمات "بهاجافان.. بهاجافان.." تختلط مع صوت نحيب. تساءل عما إذا كان بعض أقاربه أو أصدقائه الهندوس في زيارة. دخل غرفة والديه فوجد كيرونموي تنحني أمام تمثال طيني صغير في أحد الأركان، وتبتهل بالصلوات وهي تزداد انحناءً وبكاءً محزناً، "بهاجافان.. بهاجافان.." .فوجئ سورنجان بهذا المشهد غير المتوقع. وللحظة لم يعرف ماذا يفعل. هل يلتقط التمثال ويلقي به إلى الخارج؟ أم يرفع رأس كيرونموي المنحني بيديه. شعر بالغثيان من رؤية أمه تنحني بهذه المعاناة. وقف عند رأسها وساعدهاعلى النهوض وهو يقول بخشونة:

- ماذا جرى لك؟ لماذا تجلسين مع تمثال؟

أجهشت كيرونموي بالبكاء قائلة:

- يدا أبوك وقدماه أصيبت بالشلل، ولسانه يتلعثم.

استدار سورنجان إلى والده. كان راقداً يتمتم بكلام غير مفهوم. جلس بجواره وأمسك بيده اليمنى، لا إحساس بها على الإطلاق. أثقل الموقف على سورنجان. مثل هذا الحالة أصابت جده. قال الأطباء إنها صدمة، ووصفوا له كثيراً من الأقراص، وأكدوا ضرورة العلاج الطبيعي،وعلى مدىً طويل . حدق سودهاموي بشرود في سورنجان وكيرونموي.

لا أحد من أقاربهم هنا.. إلى من يمكن أن يذهب؟ في الحقيقة لم يعد لديهم أقارب من الدرجة الأولي في هذا البلد. شعر سورنجان بالضياع الشديد والعجز. كان يُنتظر منه أن يتحمل مسئوليات الأسرة، ولكنه ابن مسرف غير نافع، يواصل التسكع والبحث عن شيء يفعله. غير قادر على الاستمرار في أي عمل، أو إنجاز أي شيء.

إذا واصل سودهاموي الرقاد في فراشه، لن يجدوا شيئاً يأكلونه، وسينتهي بهم المطاف إلى الشوارع.

- هل جاء كمال أو أحد غيره؟

أجابت كيرونموي وهي تهز رأسها؟

- لا.

أمر لا يصدق. لا أحد أتى للاطمئنان على أحواله!، في حين أنه جاب أنحاء المدينة كلها، يسأل عن الجميع، ووجدهم كلهم بخير، باستثناءه هو وأسرته. فكر في ذلك، ووجد أنه ليس هناك أسرة أخرى يعرفها تواجه هذا القدر من الفقر والخسارة، وعدم الأمان مثل أسرته! قبض سورنجان على يد أبيه الميتة، وشعر بأسى شديد من أجله. مع كل الأمور التي احتشدت ضده، هل شلّ نفسه عامداً؟ سأل سورنجان فجأة:

- ألم تعد مايا؟

- لا.

صاح سورنجان:

- لماذا لم تعد؟

غضبه غير المتوقع فاجأ كيرونموي. حملقت فيه بدهشة. مهما كانت أخطاؤه فهي لم تسمعه يرفع صوته عليهم من قبل. ما الذي أصابه؟ ليس هناك خطأ في ذهاب مايا إلى منزل بارول. على العكس كان أمراً مطمئناً لأنها سالمة هناك. تمشى سورنجان بعصبية قي الغرفة وقال:

- لماذا لديها كل هذه الثقة في المسلمين؟ كم من الوقت سيسمحون لها بالعيش هناك؟

كيرونموي ألجمتها الدهشة تماماً. هنا سودهاموي يقاتل في سبيل الحياة، وكل ما يفكر فيه سورنجان هو ذهاب مايا إلى بيت مسلم. دمدم سورنجان من بين أسنانه:

- لا بد من استدعاء طبيب. من سيدفع ثمن العلاج؟ عندما هدده بعض الصبية التافهين باع بيتاً ثمنه مليون تاكا مقابل ٢٠٠ ألف. ألا يخجل من الحياة هكذا، الآن فقيراً وعاجزاً؟

ردت كيرونموي بحدة:

- هل تعتقد أنه فعل ذلك بسبب هؤلاء الصبية فقط؟ لقد باع البيت بسبب القضية أيضاً.

رفس سورنجان أحد المقاعد ساخطاً. وقال:

- ابنتك ذهبت لتتزوج مسلماً. إنها تعتقد أن هؤلاء المسلمين سوف يضعونها في أعينهم، ويوفرون لها كل ما تحتاج إليه. إنها تريد أن تصبح ثرية.

غادر سورنجان البيت. في الجوار كان هناك طبيبان، هاريبادا تاشاريا الذي يسكن عند تقاطع تيكاتولي، وأمجد حسين على بعد بيتين من منزلهم. من نستدعي؟ مشى متحيراً. لماذا يشتم مايا؟ ألإنها لم تعد؟ أم لأنها تعتمد على المسلمين بهذا القدر؟

تساءل سورنجان عما إذا كان في طريقه لان يصبح طائفياً. زادت شكوكه عندما وجد نفسه يتوجه إلى تقاطع تيكاتولي.

اليوم الرابع

أتى حيدر إلى منزل سورنجان ليس للاطمئنان، ولكن لتبادل الشائعات، حيدر كان عضواً بحزب "رابطة عوامي". في وقتٍ ما انضم إليه سورنجان لبدء مشروع صغير، ثم انسحب عندما أدرك أنه يفضي إلى لا شيء. موضوع حيدر المفضل هو السياسة.

سورنجان، أيضاً، كان مغرماً جداً بالسياسة، ولكن فقدَ اهتمامه بها مؤخراً.

ما فعلته حكومة ارشاد، وما تفعله خالدة، وما قد تفعله حسينة، جعل السياسة عنده أقل أهمية من قضاء فترة راحة لا إزعاج فيها، كان حيدر يُطنِبُ في الحديث حول موضوع الإسلام، كدينٍ قوميٍ، عندما قاطعه سورنجان وهو ينهض من الفراش.

- بالمناسبة يا حيدر، أي حق يملكه بلدكم، أو برلمانكم للتمييز بين الناس وفقا لانتمائهم الديني؟

كان حيدر يجلس على المقعد، ويمدّ قدميه على المائدة، يقلب في صفحات كتابٍ.

انفجر ضاحكاً عندما سمع سؤال سورنجان وقال:

- ما الذي تعنيه ب"بلدكم" ؟ أليس هو بلدكم أيضاً؟

رسم سورنجان ابتسامة مُتكلفة وقال:

- سوف أسالك بضعة أسئلة، انتظر منك الإجابة عليها بشكلٍ مباشر.

أنزل حيدر قدمه عن المائدة وقال:

- إجابة سؤالك هي النفي، هذا البلد لا يفرق بين الناس على أسس دينية.

سحب سورنجان نفساً طويلاً من سيجارته وقال:

- هل لدى البلد أو البرلمان الحق في تفضيل، أو مناصرة دين على بقية الأديان؟

- لا.

- هل لدى البرلمان الحق في تعديل أهم مادة في الدستور وهي العلمانية؟

- بالتأكيد لا.

- استقلال البلد مبني على قاعدة المساواة بين الناس في إطار الحقوق. باسم التعديلات الدستورية ألم تتهدم هذه القاعدة؟

نظر حيدر إلى سورنجان متشككاً. هل يمزح؟ لماذا يسأل أسئلة أجيب عنها بالفعل؟ واصل سورنجان سؤاله السادس:

- بإعلان الإسلام ديناً قومياً، ألا يُحرم مواطنو هذا البلد غير المسلمين من دعم الأمة؟

- نعم.

أثناء الحديث كان سورنجان وحيدر يعلمان الإجابات، والأكثر من ذلك أن سورنجان كان يدرك تماماً أن وجهات نظر حيدر تتفق مع وجهات نظره في هذه المسائل. ولكن السبب وراء محاصرة حيدر بالأسئلة الخاصة بتعديل المادة الثامنة هو اكتشاف ما إذا كانت غرائز حيدر الطائفية يمكن أن تطفو أم لا. أطفأ سورنجان سيجارته وقال:

- سؤالي الأخير هو: خلال آخر عهد الحكم البريطاني قُسمت الهند إلى بلدين، وتسبب هذا في تعقيدات كثيرة، اليوم لماذا تُستدرج بنجلاديش مرة أخرى إلى دوامة في الجدل حول الأمتين؟ لمصلحة من هذا الموقف؟

لم يجب حيدر هذه المرة. أشعل سيجارة، ونفخ بعض دخانها ثم قال:

- الحقيقة أنه حتى جناح تجاهل قضية الأمتين، والعرقية كجزء من بُنية البلد الأساسية، وأعلن قولته: "من اليوم فصاعداً لن

يتم تعريف الهندوس والمسلمين والمسيحيين والبوذيين بديانتهم المحترمة، لكن بهويتهم الباكستانية".

اعتدل سورنجان في جلسته وقال:

- لقد كنا أفضل كباكستانيين، ألا تعتقد ذلك؟

نهض حيدر فجأة، وقد أثاره كلام سورنجان وقال:

- لا، باكستان لم تكن خيراً بالمرة، وعندما كانت باكستان، لم يكن لدى أحد منكم شيء يتطلع إليه. بعد مولد بنجلاديش سمحتم لأنفسكم بالاعتقاد بأنكم ستنالون شرف التمتع بالحقوق والامتيازات كمواطنين من الدرجة الأولى، لأن هذه الدولة علمانية. ولكن عندما اكتشفتم أن آمالكم وأحلامكم لم تتحقق شعرتم بالألم فعلاً.

انفجر سورنجان ضاحكاً. وقال مبتسماً:

- حتى أنت تقول "أحلامكم، آمالكم"! من هو "أنتم"؟ الهندوس؟ بعد كل هذه السنوات من عدم الإيمان بأي دين تصفني بالهندوسي؟

انتزع سورنجان نفسه من الفراش وبدا يجوب الحجرة قلقاً: في الهند قتل أكثر من ٦٥٠ شخصاً. اعتقل البوليس ثمانية من الزعماء الأصوليين، من بينهم رئيس حزب بهارتيا جاناتا، وأعلن عن حالة الحداد اعتراضاً على هدم مسجد بابري، اختفت حوادث العنف في بومباي، ورانش، وبعض المدن الأخرى. أطبق سورنجان قبضته في استياء من المتعصبين الهندوس. لو أن الأمر بيده، لجمع المتعصبين من كل أنحاء الأرض وأطلق عليهم الرصاص. زعماء الطوائف في بنجلاديش أعلنوا أن: "الحكومة الهندية مسؤولة عن هدم مسجد بابري.. ولكن مقابل هذا الخطأ لا يجب أن يتحمل هندوس بنجلاديش المسؤولية. ليس لدينا مشاعر سلبية، تجاه هندوس هذا البلد، ولا تجاه معابدهم: فلننهض بروح الإسلام الحق ونحافظ على الوحدة الوطنية".

بث التليفزيون والراديو الرسالة، ولكن تبين أن هذا مظهر خادع. ففي يوم الإعلان عن الاحتجاج على هدم المسجد، انفتحت

أبواب الجحيم، وتوابع المأساة التي تركها القتلة، وقطاع الطرق خلفهم لم تكن مسبوقة. باسم الاحتجاج عاد قتلة ١٩٧١، لينهبوا ويحرقوا مقر لجنة جاتاك دالال نيرمول اليسارية، ومكتب الحزب الشيوعي.

لماذا؟ لقد التقى وفد من حزب الجماعة الإسلامية بقادة حزب بهارتيا جاناتا الهندي.

ما الذي ناقشوه؟ أية مؤامرة خططوا لها؟ حاول سورنجان البحث عن إجابات لهذه الأسئلة.

في كل أنحاء شبه القارة تندلع أحداث العنف باسم الدين، وتتعرض الأقليات للأذى. وكون سورنجان من الأقلية فهو يفهم مأساتهم تماماً. ليس هناك مسيحي في بنجلاديش يمكن اعتباره مسؤولاً عن فظائع البوسنة والهرسك. وبالمثل ليس هناك هندوسي في بنجلاديش يمكن أن يُحاسب على ما ارتكب ضد مسلمي الهند على أيدي أبناء بلدهم الهندوس. كيف يمكن لسورنجان أن يبرر هذا المنطق البسيط؟ ومن سيسمع له؟ قال حيدر:

- هيا، هيا استعد، سنذهب وننضم إلى منظمة "الترابط الإنساني" التي ستعقد مسيرة لتأييد الوئام الطائفي.

الترابط الإنساني! الفوز بالاستقلال، والأحلام التي صحبته، كانت بوضوح ثمرة الوحدة الوطنية، والرؤية التي اشترك فيها الجميع، وكذلك الجهود التي بذلت للحفاظ على الاستقلال، و سيادة دولتهم. في ١٩٧١ بدأت حركة لمكافحة كل التأثيرات الطائفية والفاشية، وتقوية روح الصداقة، والتفاهم في كل أنحاء البلد. كما بُذل الجهد لترسيخ السلام العالمي أيضاً بالدعوة إلى "الإخاء الدولي" من خلال نشاط اللجنة المتعددة الطوائف والأعراق القومية التي جاهدت لتأسيس فروع "الترابط الإنساني" في كل أنحاء البلد. سأل سورنجان:

- ما علاقة هذا بي؟

- ماذا تعني؟ ألا يعنيك الأمر مطلقاً؟

- لا.

وقف حيدر مصعوقاً، سقط كرسيه، أشعل سيجارة، وقال:

- هل يمكن أن تُعدَّ لي كوباً من الشاي؟

- ليس لدينا سكر في البيت.

كان حيدر على وشك الكلام مجدداً عن مسيرة" الترابط الإنساني" عندما قاطعه سورنجان:

- ماذا قالت حسينة في اجتماع"رابطة عوامي" أمس؟

- اقترحت إرسال قوة عسكرية إلى كل منطقة لكي تحافظ على السلام.

- هل سينقذ هذا الهندوس، أعني نحن؟

نظر حيدر لسورنجان دون أن يقول شيئاً. ثم غيَّر الموضوع بشكلٍ مفاجئ:

- أين مايا؟

- ذهبت إلى الجحيم.

صُعِقَ حيدر، وفي محاولة لامتصاص الصدمة حاول أن يجعل الأمر نكتة، فقال باسماً:

- هل تستطيع أن تصف لي شكل الجحيم؟

- الثعابين تعض، والعقارب تلدغ، والنيران تحرق الأجساد تماماً، ولكنك لا تموت.

- عظيم! أنت تعرف عن الجحيم أكثر مما أعرف أنا.

- ينبغي عليَّ ذلك. ففي النهاية نحن الذين سنذهب إليه.

- لماذا يخيم السكون على البيت؟ أين والداك؟ هل أرسلتهما إلى مكانٍ ما.

- لا.

- هل لاحظت شيئاً يا سورنجان؟ الجماعة الإسلامية يعرضون قضية غلام عزام في ضوء مختلف باستغلال مسجد بابري كمبرر.

- ربما، ولكنني لا أشعر تجاه غلام عزام مثلك، ولا يهمني أن يُحكم عليه بالإعدام أم لا.

أشعل حيدر سيجارة أخرى. لم يفهم رغبة سورنجان في البقاء في البيت. يوم المسيرة.في ٢٦ مارس من هذا العام، عندما عقدت محكمة الشعب كان سورنجان هو الذي أتى وأيقظ حيدر. لم يرغب حيدر في الذهاب بسبب المطر، وحاول إقناع سورنجان بالبقاء معه، ولكنه رفض وأصرّ على أن يذهبا رغم الريح والمطر. من التاسعة حتى الحادية عشرة صباحاً حاول حيدر أن يقنع سورنجان بالذهاب معه، لكنه لم ينجح في ذلك.

* * *

أتت كيرونموي بمايا من منزل بارول. فور وصولها إلى البيت ارتمت على صدر أبيها باكية. لم يستطع سودهاموي تهدئتها، وفي الغرفة المجاورة كان سورنجان يستشيط من الغضب.إنه يكره الدموع التي لا نفع منها. هل حققت الدموع أي شيء في العالم؟ ما يحتاج إليه سودهاموي هو رعاية طبية عاجلة. لقد اشترى الأدوية التي وصفها الدكتور هاريبادا لثلاثة أيام، وربما كان هناك مزيد من الأدوية في دولاب كيرونموي لا تعلم بأمرها.

غَضَبُ سورنجان اختلط بالرثاء على الذات.. شعر أنه لا يوجد أحد في الأسرة يهتم به، وكل هذا لأنه عاطل عن العمل الآن. صحيح أنه لم ينجح في الحصول على عمل دائم ولكن سبب ذلك هو كراهيته لأن يعمل لدى الآخرين. وهو يفكر في إحياء مشروع العمل القديم مع حيدر شعر بالجوع الشديد.. ومرة أخرى رثى لحاله. من يمكن أن يعد له الطعام في هذه الساعة ؟.. لامايا ولا أمه كلفت نفسها بالمجيء إلى غرفته لمعرفة ما إذا كان جائعاً. هل تتجاهلانه لأنه بلا عمل وكسول؟

لم يذهب لرؤية والده اليوم. وهذا كان مظهراً من مظاهر علاقته بأسرته. إنه تقريباً لا يقوم بأي مساهمة لهم، ومع ذلك يتوقع الكثير منهم. روتينه اليومي كان بلا هدف أو تخطيط، ويتكون أساساً من ساعات التسكع مع أصدقائه وأصحابه، والانخراط في السياسة. ما الذي جناه من وراء ذلك؟

انصرف حيدر. الذهاب معه لم يكن ليحرره من إحساسه المتعمق مؤخراً بأنه كائن ضائع. هو وحيدر كانا صديقين لسنوات طويلة. وخلال حياتهما المشتركة كثيراً ما كانا يتناقشان عن فوائد وأهمية المنطق والعقل والوعي، ويناديان بحماية التراث الوطني الثقافي، ويتحمسان في الدفاع عن حقوق الإنسان. اليوم أدرك سورنجان أن جهودهما كانت بلا طائل. والأفضل له إما أن ينخرط في حياة تمتلئ بمتع الشراب واللهو، أو أن يصبح عضواً مسؤولاً بكليته في الأسرة.

المثالية لا نفع لها، وهي التي زادت من الهموم والقلق. أشعل سيجارة، وانسحب اهتمامه إلى كتابٍ صغيرٍ على المائدة، لم يره من قبل، كان عن الصراع الطائفي عام ١٩٩٠، فتحه واستغرق في سطوره المفزعة.

* * *

قام الدكتور هاريبادا بتدريب كل من مايا وكيرونموي على تدليك ضلوع سودهاموي، ومساعدته على استعادة قوته.. بدأت صحته في التحسن بفضل العلاج الطبيعي والدواء. ولكنه لم يتمكن من استعادة نفسه القديمة مرة أخرى، وأكثر من آلمه ذلك كانت ابنته مايا. رؤية أبيها القوي الممتلئ بالحياة راقداً في فراشه مثل لوح من الخشب. أفقدتها الكثير من حيويتها وحماسها. كانت تجفل بالألم كلما ناداها سودهاموي بصوته المختنق "مايا.. مايا". حتى في رقاده هذا، كأنه مجرد ظل من نفسه القديمة، كانت عيناه اللتان بلا تعبير تبدوان وكأنهما تحملان شيئاً ما لابنته. كان أبوها ينصحها دائماً أن تكون كالسهم المستقيم، وصادقة مع نفسها. هو نفسه كان دائماً شريفاً بإفراط ومعارضاً لأي تقاليد اجتماعية يرى أنها مُقيِّدة.

كيرونموي كانت تُذكره دائماً بأن ابنتهما تتقدم في السن ولابد أن يفكرا في زواجها، ولكن سودهاموي كان يعارضها قائلاً:

- يجب أن تدرس .. ثم تحصل على عمل، وإذا رغبت بعد هذا أن تتزوج فلتفعل.

تتقبل كيرونموي كلام زوجها بتنهيدة استسلام، ثم تعود إلى موضوع آخر تفضله، وهو إرسال مايا إلى خالها في كالكتا. انجالي وأبها، ونيليما، وشيباني كنّ جميعاً من عمر مايا، وكلهن ذهبن إلى كالكتا لإستكمال الدراسة.

- لماذا تذهب؟ هل هناك ما يمنع التعليم في هذا البلد؟ هل ألغوا المدارس والكليات؟

- ابنتنا كبرت ولا أستطيع النوم ليلاً من قلقي عليها.. ألم يتعرض الصبية لبيجويا أثناء ذهابها إلى الكلية؟

- هذه الأشياء تحدث لبنات المسلمين أيضاً.. هل تريدين أن تقولي لي إن المسلمات لا يتعرضن للاغتصاب أو الاختطاف؟

في الحقيقة أدركت كيرونموي أن زوجها لن يوافق أبداً على خططها لمايا، وإن مايا نفسها لم تبد أي رغبة في الذهاب إلى كالكتا. مرة واحدة فقط ذهبت إلى خالتها ولم تستمتع مطلقاً. وجدت أبناء خالتها تافهين وأنانيين ولا يبالون بها. لم يكونوا يدعونها أبداً لمشاركتهم أنشطتهم فكانت تقضي معظم اليوم وحدها تفكر في بيتها في بنجلاديش.

وفقا للخطة الأصلية كان المفروض أن تقضي إجازة عيد البوجاس في كالكتا.

ولكن قبل أن تنتهي إجازتها بوقتٍ طويلٍ طلبت من زوج خالتها أن يعيدها. قالت خالتها:

- ولكن ديدي أرسلتك لعشرة أيام.

لمعت عينا مايا بالدموع وقالت:

- افتقد منزلنا..

كالكتا خلال البوجاس تمتلئ دائماً بالأضواء والمرح والتسلية ولكن هذا لم يجذب مايا، فعادت بعد سبعة أيام بالرغم من أن كيرونموي كانت تأمل في أن تبدأ في حب المكان والبقاء هناك.

جلست مايا عند رأس سودهاموي، وفكرت في جاهنجير. تحدثت إليه مرتين في تليفون منزل بارول.. بدا أنه فقد حماسه القديم لصحبتها، قال إن عمه في أمريكا دعاه لاستكمال دراسته هناك، وإنه يُعد ترتيبات المغادرة. صُدمت مايا وكادت أن تصرخ، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- هل ستسافر فعلاً؟

- نعم، إنها أمريكا بالطبع سأذهب.

- ماذا ستفعل هناك؟

- سأشغل نفسي بأي شيء لبعض الوقت حتى أحصل على الجنسية.

- ألن تعود؟

- ماذا سأفعل هنا إذا عدت؟ هل يمكن لأي إنسان عاقل أن يبقى في هذا البلد؟

- متى ستذهب؟

- الشهر القادم. شاشا يتعجلني. إنه يخشى من إحتمال تورطي في السياسة هنا.

ولا مرة واحدة خلال محادثتها سأل جاهنجير ماذا ستفعل مايا في غيابه. هل يتوقع منها أن تلحق به، أوعلى الأقل تنتظره؟ حبهما الذي دام أربع سنوات، ولقاءاتهما في المطاعم، ومناقشاتهما الدائمة حول زواجهما على ضفاف بحيرة كرسنت.. كيف تنسيه أحلام أمريكا كل هذا؟ كيف تنسيه طموحاته جائزة حياته، مايا؟.

جلست مايا بجوار سودهاموي لا تفعل شيئاً سوى التفكير في جاهنجير. تحاول ولا تستطيع أن تنساه. وحتى تزيد همومها أضيف إليها آلام أبيها شبه المشلول.

عذاب كيرونموي كان أعمق، ويستحيل تخفيفه. كانت تستيقظ فجأة في منتصف الليل باكية. لماذا تبكي أو على من؟ كانت أسراراً لا تبوح بها. تجف الدموع، وتواصل تأدية أعمال المنزل في صمت، المطبخ...، مراعاة زوجها...

توقفت كيرونموي عن استخدام السيندور في تفريق شعرها، واللوها، والسانخا في تزيين رسغيها كما تفعل الهندوسيات المتزوجات. طلب منها سودهاموي أن تتوقف عن هذا ١٩٧١، وفي عام١٩٧٥ توقفت كيرونموي عن إرتداء الزي الهندوسي، ودهاموي أيضاً توقف عن ارتداء الدهوتي الذي يحبه. ذهب إلى الخياط تارو خليفة وطلب منه تفصيل مجموعة من البيجامات. عندما عاد إلى المنزل في هذا اليوم أصابه صداع وحمى. كانت كيرونموي تعرف أن سودهاموي يصاب بالحمى عندما يكون مهموماً.

الذي فاجأ مايا وحيرها هو سلوك سورنجان الذي ظل بمعزل عن الأسرة حتى في هذا الوقت العصيب. يقبع في حجرته طيلة اليوم، لا يبالي بواجباته، ولا يطلب الطعام عندما يجوع، والغريب أنه لم يكن حتى قلقاً على أبيه المريض المحتضر.

أصدقاؤه يزورونه في حجرته، حيث يجلسون ويخوضون مناقشات حامية، يخرج عندما يريد دون أن يخبر أحداً بوجهته أو موعد عودته. لا أحد يطلب منه مالاً، ولكن أليس من واجبه كابن أن يُعزي والده على الأقل؟ أن يُحضر له الدواء، ويستدعي الطبيب، أو أقل القليل أن يجلس بجواره ليشجعه ، لأن جميعهم كانوا يعلمون أن سودهاموي يرغب في أن يأتي ابنه ليجلس معه، ويثبت له إنه مهتم به.

تحسن سودهاموي كثيراً تحت علاج الدكتور هاريبادا. أصبح كلامه أقل تلعثماً، ولكنه لا يزال يجد صعوبة في تحريك أطرافه المشلولة. الطبيب أكد له أنه مع استمرار العلاج الطبيعي ستتحسن

حالتـه أكـثر. بقيـت مايـا مـع أبيـها طيلـة الوقـت لتلبيــة احتياجاتــه. استطاعت توفير كل هذا الوقت لأنها كـانت قد توقفت عـن إعطـاء الدروس لتلميذتيها. أم آخر تلميـذة أخبرتـها ذات يـوم بـأن ابنتـها لـن تتلقى مزيداً من الدروس لأنهم راحلون إلى الهند. سألتها مايا:

- لماذا الهند؟

أطرقت أم التلميذة، ميناتي، دون أن تـرد بشـيء. تذكـرت مايـا شيئاً آخر عن تلميذتها ميناتي. كانت تدرس في مدرسة بـهيكارونيا. ذات يـوم أثنــاء درس الحسـاب سـمعتها تتمتـم: "الحمــد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.." ولما أبدت مايا دهشتها قالت الفتاة:

- إننا نتلو فقرات من القرآن في طابور الصباح.

- هل هذا صحيح؟ أيتلون القرآن في طابور الصباح؟

- نعم سورتين، ثم النشيد الوطني بعد ذلك.

- ماذا تفعلين عندما تتلى السور؟

- أتلو مثلهم، وأغطي رأسي أيضاً.

- أليس هناك صلاة للهندوس أو البوذيين أو المسيحيين؟

- لا.

وجدت مايا أن هذا محير جداً. وبدا لها أنه شيء لا أخلاقي أن واحدة من أشـهر مـدارس العاصمـة لا تراعـي وضـع صلـوات مـن مختلف الأديان لتلاوتها في طابور الصباح.

تذكرت مايا التلميذة الأخرى التي كانت تعلمها، اسـمها سـومية وكانت من أقارب بارول. ذات يوم قالت لمايا فجأة.

- ديدي، لا أريد أن تعلميني أكثر من ذلك..

- ولم لا؟

- آبا يقول إنه سيجد لي معلمة مسلمة.

كانت هذه هي الكيفية التي فقدت بها مايا تلميذتيها، ولكنها لم تذكر ذلك لأي أحد في المنزل حتى لا تقلقهم دون داع. سورنجان يأخذ نقوداً من مصروف البيت. وإذا فعلت هي نفس الشيء فكيف تتدبر كيرونموي أمرها.

كانت كيرونموي في المطبخ تعد الأرز والدال، المفروض أن تعد أيضاً بعض الحساء وعصير الفاكهة لسودهاموي، ولكن من يأتي لها بالفاكهة؟ تعجبت كيف يمكن لابنها أن يرقد في الفراش طيلة اليوم، بينما هم يحتاجون إليه بوضوح. انزعجت مايا من أخيها لسببٍ آخر أيضاً. لقد توسلت إليه في السابع من ديسمبر كي يجد لهم ملجأً، ولكنه لم يرفع إصبعاً واحداً للمساعدة، إنهم لا يزالون يتعرضون لخطرٍ كبيرٍ، ولكن كل ما يفعله أخوها غير النافع هو الكسل.

مُحبطة ومُكتئبة بسبب لا مبالاة أخيها، ومع الفتور العام الذي يقبض على أفراد أسرتها، بدأت مايا أيضاً في التوقف عن التفكير في خطط يتجاوزون بها الأزمة. أصبحت سلبية تدريجياً، وتعلمت أن تقبل الأشياء كما هي، طالما أن سورنجان لم يكلف نفسه أن يقلق على سلامتهم أو صحتهم فماذا تفعل هي؟ في النهاية هي لا تعرف أحداً يمكنهم الذهاب إليه. حتى في منزل بارول لم تشعر بالراحة، بارول كانت دون شك صديقة مخلصة جداً،ولم يكن أحد في بيتها يتساءل عن وجودها في منزلهم. ولكن هذه المرة، نظرات عيون أهل بارول كانت مختلفة، على الرغم من أنهم يعرفونها جيداً، بدا لأول مرة وكأنهم يستغربونها. كأن نظراتهم تقول "لماذا أنت هنا؟" بارول أيضاً قالت إن منزلها ليس آمناً بشكلٍ كافٍ لبقاء مايا فيه لوقتٍ طويلٍ.

فكرت مايا: أي ظلم هذا أن يثار سؤال الأمان معها فقط، وليس مع بارول مثلاً؟ هل يمكن أن تضطر بارول إلى المجيء والبحث عن ملجأ في منزل مايا؟ بعض أقارب بارول كانوا في زيارة لهم عندما سألوا مايا:

- ما اسمك؟

- مايا.

- ما اسمك كلاما؟

في هذه اللحظة تدخلت بارول وقالت بسرعة إن اسم صديقتها هو زكية سلطان . فيما بعد شرحت لمايا سبب إصرارها على إخفاء اسم مايا:

- إنهم مختلفون عنا..شيء مثل رجال الدين الكبار.ولن يدهشني أن يذهبوا ليقولوا عنا إننا نأوي الهندوس في منزلنا.

حاولت مايا أن تفهم وجهة نظر صديقتها ولكنها ظلت تتألم. أي جريمة في أن يأووا الهندوس؟ لماذا ينبغي على الهندوس أن يبحثوا عن مأوى أصلاً؟ لقد اجتازت مايا امتحاناتها بتفوق وحصلت على نجمة في امتحانات المرحلة المتوسطة، بينما نجحت بارول بدرجات متدنية جداً، وحتى الآن، يبدو وكان بارول تملك أوراق اللعب كلها.

- بابا، أطبق أصابعك، حاول أن ترفع يدك.

أطاع سودهاموي مثل طفلٍ صغيرٍ مطيع. تشجعت مايا من عودة بعض القوة إلى أصابعه، فأمسكت بيديه.

- ألن يأكل دادا؟

- من يعرف؟ لقد رأيته نائماً..

بدت كيرونموي غير مبالية إطلاقاً بسورنجان. هي أيضاً لم تأكل ولكنها أعدت لمايا نصيبها من الطعام . مايا المرهقة كانت تتعس، وتطرق برأسها فجاة . أصوات الشعارات الغاضبة في الخارج تصل إلى الغرفة المظلمة القاتمة، المغلقة الأبواب والنوافذ. "أيها الهندوس إذا أردتم أن تحيوا، ارحلوا عن هذا البلد". سودهاموي أيضاً سمع الشعارات وضغط بأصابعه على يد مايا. علامة أخرى على أنه استعاد بعض قوته.

معدة سورنجان تقلصت من عضات الجوع. قبل ذلك، سواء جاع أم لا، طبق من الأرز كان يبقى في انتظاره على مائدة الطعام. واضح أن اهتمام أسرته به تضاءل، ولكنه قرر ألا يطلب منهم الطعام. خرج إلى الصالة، غسل وجهه في الحمام وتنشف، ثم

عاد إلى حجرته وغيَّر قميصه وغادر المنزل. في الشارع لم يكن قد قرر بعد إلى أين يذهب؟.. إلى حيدر؟ ولكنه لن يكون في البيت في هذه الساعة، إلى بلال أو كمال؟ ربما، ولكن ماذا لو اعتقد أنه جاء يبحث عن مأوى؟ أو شفقة؟ لا، لن يذهب إليهما. سوف يتجول حول المدينة وحده. في النهاية المدينة ملكه. في وقت ما لم يكن يستطيع تحمل الرحيل عن ميمنسنج، وفي ليلة باع سودهاموي البيت دون أن يخبر ابنه. وعندما استيقظ في الصباح التالي لم يكن يدرك أن المكان الذي وُلِدَ فيه، المعبق بالزهور، والبركة الكريستالية الرائقة، التي كان يسبح فيها، كل منزل آل دوتا، وأرضهم لم تعد ملكه. عندما عرف أنهم سيتركون البيت في خلال أسبوع، ثار وانفجر غاضباً، وخرج ولم يعد إلى المنزل لمدة يومين.

لم يفهم سورنجان أبداً سبب عاطفيته الشديدة هذه. ولماذا يجرح أي شيء كبرياءه؟ أحياناً يشعر بان اللوم يقع على أفراد أسرته كلهم، وهو منهم. أحياناً يشعر أن بارفين كانت هي المخطئة. لقد جعلته يعتقد أنها تحبه.. كانت دائماً تهرع إلى حجرته وتقول:

- هيا لنرحل بعيداً.

- إلى أين؟

- بعيداً إلى التلال.

- أين هي التلال؟ يجب أن نذهب إلى سيلهيت أو شيتا جونج لنجد تلالاً.

- سنفعل ذلك، ونبني بيتنا هناك.

- وماذا نأكل؟ العشب؟

عندئذ كانت تضحك بارفين وتلقي بنفسها على سورنجان قائلة:

- لا أستطيع أن أحيا دونك.

- هناك كلمات طائشة تقولها البنات عادة. في الواقع أنهن لا يمتّن.

سورنجان كان على حق. بارفين لم تمت . بالعكس لقد تزوجت مثل طفلة مطيعة من الشخص الذي جاء به والدها. قبل يومين من زواجهما جاءت إليه لتخبره بأن أسرتها تريد منه اعتناق الإسلام، ضحك سورنجان وقال:

- أنت تعلمين جيداً أنني لا أؤمن بالأديان .

- لا، لا بد أن تصبح مسلماً.

- لا أريد أن أصبح مسلماً.

- وهذا يعني أنك لا تريديني .

- بالطبع أريدك، ولكن لماذا ينبغي أن أصبح مسلماً؟ ألمجرد أن أفعل ذلك؟

تلوّن وجه بارفين بحمرة الغضب على الفور.

كان يعرف سورنجان كَمَّ الضغط الذي تمارسه عليها أسرتها لتتركه . وتساءل عن موقف أخيها حيدر. إنه صديقه، ولكن لم يعلق أبداً على علاقتهما. صمته ضايق سورنجان جداً، ولكن لم يكن هناك وسيلة يجبره بها على إبداء رأيه. لم يعتنق سورنجان الإسلام، وبالتالي نبذت بارفين حلمها بالعيش في التلال معه. هل يمكن نبذ الأحلام بهذه السهولة؟ مثل تماثيل البوجاس الصغيرة التي تُلقى في الماء، هل هدف الآلام فقط هو منح الناس إحساساً مؤقتاً بالسعادة؟ لقد تزوجت بارفين من رجل أعمال مسلم، ولكن الزواج سرعان ما اصطدم بالمشاكل. حيدر قال له ذات يوم:

- ربما تُطلق بارفين من زوجها.

تُطلق؟... بعد عامين من الزواج؟! أراد سورنجان أن يقول هذا ولكنه منع نفسه. لقد طرد بارفين من رأسه، ولكن أخبار طلاقها المحتمل أسعدته، وأحيت ذكرياته معها .

ألا يزال محتفظاً باسم بارفين بعناية ورقة فائقتين، ملفوفاً بأمانٍ في قلبه؟ ربما!

كم مضى منذ رآها آخر مرة؟ شعر بالحنين، وبذل جهداً حتى يحول أفكاره نحو راتنا.

راتنامتيرا فتاة جميلة تناسب سورنجان جداً. إذن سوف تنطلق بارفين: كيف يفترض أن يؤثر هذا فيه؟ لقد تزوجت من شخص مسلم، ووافقت عليه أسرتها. كلهم توقعوا خيراً من هذا الزواج، كأنه أمر مضمون أن الزواج من نفس الدين والطائفة لا بد أن يدوم. لماذا تعود إذاً ؟ ألم يصحبها زوجها إلى التلال؟ ألم يحقق أحلامها؟ وأين مكانه في ذلك؟ إنه مجرد شاب هندوسي عاطل لا يفعل شيئاً سوى التجول في الشوارع.

استقل سورنجان عربة ريكشا من تقاطع تيكا تولى. بارفين لم تغادر عقله. من داخل قلبه كان وجهها يطل متقافزاً، ويستولي على اهتمامه. حين كانا يلتقيان كانت تقبله ويحتضنها بقوة ويقول لها:

- أنت عصفور صغير.

فتضحك بارفين وتقول:

- وأنت قرد.

هل هو قرد فعلاً؟بالطبع هو قرد، وإلا فلماذا ركدت حياته هكذا ؟ خمس سنوات مضت مثل عناقيد الماء الأصفر التي تتكاثر في الأحواض الآسنة، ولكن هل استفاد شيئاً من الوقت والحياة؟ على الإطلاق! لم تقل له واحدة غير بارفين " أحبك" . اليوم الذي قالت له بارفين هذا سألها:

- هل راهنت شخصاً ما على إنك تستطيعين أن تقولي لي هذه الكلمات؟

- لا على الإطلاق.

- هل تعنين ما قلته؟

- أنا أعني ما أقوله دائماً.

نفس هذه الفتاة التي حدثته بهذه الثقة انهارت في اللحظة التي فتحت فيها أسرتها موضوع الزواج. كل أحلامها تبخرت، فرديتها والأشياء التي أرادت تحقيقها، كل شيء ذهب. حتى أنها لم تعترض على زواجها مرة واحدة ولم تقل: "أريد أن أتزوج القرد الذي يعيش في هذا المنزل !" بيته كان على بعد خطوتين من بيتها، ذهبت كيرونموي ومايا إلى حفل الزفاف ولكنه لم يذهب.

قال لسائق الريكشا أن يذهب إلى شاميل باج. ضوء الغسق كان يسقط على المدينة، شعر بالجوع الشديد. كان يعاني من عسر الهضم في الماضي ولكن الآن يعاني من الصفراء أيضاً. وصف أبوه له مضادات للحموضة، ولكنه يكره الأدوية التي تُبيّض لون شفتيه. بجانب هذا فقد نسي الأقراص في البيت. قرر الذهاب إلى بولوك ليأكل شيئاً. سيكون في بيته بالتأكيد على اعتبار أنه لم يخاطر بالخروج منذ خمسة أيام.

أول شيء قاله سورنجان عندما فتح له بولوك:

- أرجوك احضر لي شيئاً أكله. لا اعتقد أنهم طبخوا أي طعام في منزلنا.

- لماذا؟

- الدكتور سودهامي دوتا يعاني من أزمة صحية، وزوجته وابنته مشغولتان بتمريضه. سودهاموي دوتا، ابن الثري سوكومار دوتا، عاجز اليوم عن دفع ثمن علاجه.

- الحقيقة إنه يجب عليك أن تفعل شيئاً مفيداً، أن تحصل لنفسك على عمل.

- أوه لقد حاولت! ولكنك لا تستطيع الحصول على عمل في بلد مسلم. بجانب ذلك من يرغب في العمل عند هؤلاء الجهلة ؟

صُدم بولوك وقال:

- هل تشتم المسلمين يا سورنجان ؟

- لا داعي للرعب. أنا اشتمهم حقاً، ولكن لك أنت فقط. هل تعتقد أن من الممكن أن تشتمهم في وجوههم؟ ألن يفصلوا رأسي عن جسدي؟

في الحال قدمت له نيلا بعض الأرز والخضراوات بالكاري. وسألته بقلق:

- سورنجان ـدا، ألم تأكل شيئاً طيلة اليوم؟

ابتسم سورنجان بضعف وقال:

- من يهتم بأمر أكلي ؟

- لا بد أن تتزوج.

ابتلع سورنجان طعامه وقال:

- أتزوج؟ من ترضى الزواج مني؟

- ليس من العدل أن تتوقف عن التفكير في الزواج لمجرد أن هذه البنت، بارفين...

- ليس هذا هو السبب. لقد كنت أجهل أنني قد أضطر إلى الزواج.

لم يكن سورنجان يستمتع بالطعام كما لو أنه فقد حاسة التذوق، أو يأكل لمجرد إسكات جوعه. سأل بولوك وهو يأكل:

- هل يمكن أن تقرضني بعض المال؟

- كم تريد؟

- القدر الذي تستطيع التخلي عنه. لا أحد في البيت يخبرني بشيء عن الوضع المالي. ولكني اعتقد أن كيس أمي خاوي.

- حسناً، سوف أعطيك ما تريد. ولكن هل لا زلت تتابع آخر تطورات الموقف في البلد؟ في ابهولا، وشيتا جونج، وسيلهيت، وبازار كوكس، وبيروزبور ؟

- أعلم ما تريد أن تخبرني به ..لقد دمروا معابد كثيرة، ونــهبوا وأحرقـوا بيـوت الـهندوس، وقتلـوا وضربـوا رجالـهم، واغتصبـوا نسائهم .. إذا كان هناك أي جديد اخبرني به.

- هل كل هذا طبيعي بالنسبة لك؟

- بـالطبع أنـه طبيعـي. مـاذا تتوقـع غير هـذا فـي هذا البلد؟ أنـت تجلس عاري الظهر، ولا تستطيع أن تتحرك عندما يضربونك عليه!

جلس بولوك في مواجهة سورنجان صامتاً لبرهة، ثم بدأ يسرد عشرات الأماكن والمواقع المختلفـة التـي تعرضـت للنـهب والحـرق والاعتداء، حتى أن سورنجان قاطعه قائلاً:

- هل هذا صحيح؟

- كل الأشياء حدثت يا سورنجان. لا أعلم حقاً كيف سننجو في هـذا البلـد. فـي شـيتا جونـج، الجماعـات والحـزب الوطنـي البنغـالي تعاونوا معاً في تدمير المنازل والمعابد.

لقد أخـذوا الآنيـة والملابـس مـن أكبر عـدد ممكـن مـن بيـوت الهندوس، وأخرجوا الاسماك من أحواضـها . منذ أيـام والـهندوس لا يجدون ما يأكلونه.. ألن نعترض على أي شيء من هذا؟

- هل تعلم ماذا سـيحدث إذا اعترضنـا؟ تتذكر قصيدة د.ل.روى التـي تقول "إذاً أنا رفستك، كيف يمكن أن تكون وقحاً وتتألم بسبب هذا ؟".

عاد سورنجان بظهره إلى الوراء، وأغلق عينيـه بينمـا واصـل بولوك:

- لقد دمروا أكثر من ألـف منزل فـي بـهولا. هـذا الصبـاح تـم رفـع حظر التجول لمدة اثنتي عشرة سـاعة . وخـلال هـذه السـاعات القليلة اعتدى رجال مسلحون بالعصي والقضبان الحديدية علـى دار عبادة لاكشمينارا للمـرة الثالثـة. واكتفـى رجـال البوليس بـالوقوف ومشاهدة كل شيء، سعداء أكثر منهم منزعجين. فـي بورهـا نوديـن هوجـم أكثـر مـن ألـف وخمسـمائة شـخص، ودُمّـر ألفـا مـنزل علـى الأقل. في تاجمودين، دُمـر ألفـان ومائتـا مـنزل تمامـا،ً وألفـا مـنزل جزئيا. وفي بهولا دُمر مئتين وستة معابد.

ضحك سورنجان وقال:

- أنت تعطينا وصفاً تفصيلياً مثل الصحف . هل تشعر بالأسف على حدوث هذه الأشياء؟

حملق بولوك في سورنجان بتعجب وقال:

- ألا تشعر أنت بالأسف ؟

ضحك سورنجان مرة أخرى وقال:

- لا، لا اشعر بالأسف على الاطلاق .

بدت الحيرة على وجه بولوك وهو يقول:

- في الحقيقة لدي عدد من الأقارب هناك، ولا يمكنني إلا أن أشعر بالقلق عليهم.

- المسلمون فعلوا فعلتهم، ولكن لن يحدث أن يسعى الهندوس إلى الثأر! أخشى أنني لا أستطيع التعاطف معك يا بولوك. أنا آسف حقاً.

نظر بولوك باستغراب إلى سورنجان. ثم غادر الحجرة وعاد بألفي تاكا قدمها لسورنجان الذي سأل:

- كيف حال آلوك ؟ هل ضمه أصحابه إلى فريقهم؟

- لا. إنه وحيد طيلة اليوم، وليس هناك ما يفعله سوى مراقبة أصحابه يلعبون، بينما هو يعاني وحده في هذه الحجرة.

- هل تعلم يا بولوك، هؤلاء الذين نعتقد أنهم غير طائفيين أو أنهم أهلنا وأصدقاؤنا هم في الحقيقة طائفيون حتى أعماقهم .. إننا نختلط ونندمج كثيراً مع المسلمين في هذا البلد، ولا نتردد في أن نقول "السلام عليكم" أو قول كلمة "باني" بدلاً من "جال" و"جوسول" بدلاً من "سنان" إننا نحترم ممارساتهم الدينية، ونتجنب شرب الشاي أو التدخين علناً خلال شهر رمضان. بل إننا لا نذهب حتى إلى مطاعمهم في هذا الشهر، رغم أنها مفتوحة. ولكن ما مدى قربهم منا في الواقع؟ ولمن نقدم هذه التضحيات؟ ما عدد الإجازات التي نحصل عليها في البوجاس؟ ومع هذا فمطلوب من الهندوس أن

يعملوا لساعات أطول في المستشفيات، بينما هم يتمتعون بإجازتي عيد طويلتين. لقد مُرِّرَ التعديل الثامن، وأطلق حزب "رابطة عوامي" احتجاجه الصاخب ولكن هذا كل شيء. حسينة نفسها غطت رأسها كما تفعل النساء بعد العودة من الحج. إنهم متشابهون جميعاً يا بولوك وليس أمامنا سوى الانتحار أو الهجرة.

تحرك سورنجان نحو الباب. لقد طلبت منه أمه مؤخراً أن يذهب لزيارة رئيس الدين الذي باعوا له منزلهم في ميمنسنج بمبلغ بخس، علّه يساعدهم على تجاوز أزمتهم المالية الحالية. ولكن سورنجان رفض أن يطلب المساعدة من رئيس الدين.

لقد كان يكره الاقتراض في كل الأحوال، ولكن الأزمة حادة ولا بد من دفع نقود للبقالة، وأشياء أخرى. بدلاً من الذهاب إلى رئيس الدين اقترض من بولوك. ربما لأن سورنجان سبق أن ساعده من قبل، أو ربما، مرة أخرى، لأنه هندوسي مثله، فإن بولوك يمكن أن يفهم أكثر من غيره متاعب الأقلية. في الحقيقة، خلال اليومين الماضيين توصل سورنجان إلى قرار بعدم طلب المساعدة من أي مسلم.

ودّع بولوك وأسرته واتجه إلى البيت. وهو يمشي، فكر بالطريقة التي يعاملونه بها في البيت. لا أحد يريد أن يُحمّله مسؤولية شيء. ربما لأنهم يعتقدون أنه وطني لا يهتم سوى بمصلحة الوطن العامة، وليس لديه وقت لأي شيء آخر. سوف يعطي المال إلى كيرونموي اليوم. أدهشته الطريقة التي تحافظ بها كيرونموي على تماسك الأسرة.

لم تشكُ أبداً من أي شخص، ولا حتى ابنها عديم النفع. شعر سورنجان فجأة بأن حياته لا تستحق أن يحياها. ها هو سودهاموي معلق بين الموت والحياة، يحتاج إلى شخص بجواره دائماً. ما فائدة حياة مثل هذه؟ ولماذا ينبغي أن يعيش سورنجان نفسه؟ فكر للحظة في شراء بعض إمبولات البيثيدرين وقتل نفسه. وللحظة استطاع أن يتخيل موته بوضوح. سوف يرقد في فراشه ميتاً، ولكن أسرته لن

تعلم بموته. سيعتقدون أنه متعب ويستريح ولا يجب أن يزعجوه. سوف تأتي مايا وتقول:

- يا داد، انهض.. يجب أن نفعل شيئاً من أجل بايا..

ولكن داد لن يرد. استغرق في مثل هذه الأفكار أثناء مشيه، ولاحظ مسيرة تمر عند ناصية بيجوا ناجار. إنها مسيرة الوئام الطائفي. كانوا يرددون شعارات تؤكدعلى الإخاء بين الهندوس والمسلمين. لم يستطع سورنجان أن يمنع نفسه من إبتسامة ساخرة. قبل أن يعود إلى البيت، مرَّ على منزل جوتام. كان أحسن حالاً، ولكن لا يزال يرتعب وينزعج من أقل ضوضاء.

الغريب أن شخصاً مثل جوتام شغل كل وقته بمهنته كطبيب دون أن يهتم بالسياسة، والأكثر من هذا ليس له أعداء في المنطقة، يتعرض للضرب بلا رحمة. هكذا لأن مسجد بابري هُدم في الهند! أم جوتام جلست بالقرب منهما وهمست في أذن سورنجان بحرص:

- سوف نرحل.

- ترحلون؟

- نعم، نعد الترتيبات لبيع المنزل.

لم يرغب سورنجان في معرفة مكان رحيلهم. إذا جلس أكثر من ذلك قد يضطر إلى سماع الحقيقة المرعبة لأنهم سيرحلون عن هذا البلد كله، ولذلك دفع مقعده للوراء، ونهض بسرعة ليرحل. ولكن أم جوتام أوقفته، وقالت بصوتٍ تخنقه الدموع:

- لا يا بني، لا تذهب، الله أعلم إذا كنا سنلتقي مرة أخرى قبل رحيلنا أم لا. ابق معنا بعض الوقت..

- أنا آسف يا ماشيما، ولكن لدي بعض العمل في البيت. سآتي لأراكم مرة أخرى.

لم يستدر سورنجان ليرى جوتام أو أمه. بعينين منخفضتين خرج من البيت دون أن ينجح في إخفاء تنهيدة يأس.

اليوم الخامس

بيروباكشا شاب مجتهد، ينتمي إلى نفس حزب سورنجان السياسي. هذا الصباح لم يكن سورنجان قد نهض من فراشه بعد عندما دخل بيروباكشا غرفته.

- إنها العاشرة ولا تزال في الفراش؟

- لست نائماً لكنني أستلقي فقط. عندما لا يكون هناك شيئاً تفعله فالأفضل أن ترقد، ليس لدينا الشجاعة على تدمير المساجد ولذلك ليس أمامنا سوى الرقاد.

- أنت على حق. إنهم يدمرون مئات المعابد، ولكن إذا ألقينا حجراً واحداً على مسجد فهل تتخيل العواقب! الباكستانيون حوّلوا معبد كاليباري رومانا الذي يرجع عمره إلى ٤٠٠ سنة مضت إلى تراب، ولكن ليس واضحاً إذا ما كانت الحكومة ستعيد بناءه.

- حسينة تتكلم دائماً عن إعادة بناء مسجد بابري ولكن في بنجلاديش، حتى لو كان هناك أمل في تعويض الهندوس، فإن شيئاً لا يذكر إطلاقاً عن إعادة بناء المعابد، يبدو أنهم لا يدركون أن الهندوس لم يأتوا إلى بنجلاديش مع مياه الفيضان. إننا مواطنون هنا مثل أي شخص آخر. لدينا الحق في الحياة، وأيضاً الحق في حماية حياتنا، وممتلكاتنا، وأماكن عبادتنا.

- واضح أن هذا النهب والسرقة ليسا بسبب مسجد بابري، في صباح ١٢ مارس ١٩٩٢ اختطف مسلمان ابنة رجل هندوسي يعيش في نفس المنطقة واغتصباها.

- يونس ميا رئيس منطقة أوبازيلا، علي ميردا عضو حزب الاتحاد اضطهدا عائلات منطقة موني كانايلال كثيراً لإجبارهم على الهجرة.

واصل الاثنان تبادل الأخبار من هذا النوع عن الهندوس الذين تعرضوا للسرقة، أو الخطف، أو الإجبار على الرحيل، أو الاغتصاب، ووجد سورنجان نفسه يُستدرج إلى المحادثة. أشعل سيجارة، وعندما انتهت نهض من الفراش، وذهب ليغتسل. في طريقه إلى الحمام توقف ليطلب من كيرونموي كوبين من الشاي، كان قد أعطى الألفين تاكا لأمه في الليلة الماضية.حتماً هي لا تشعر الآن بأن ابنها عديم المسؤولية تماماً. تبدو أقل توتراً اليوم، ربما لأن موقفها المالي أفضل مؤقتاً، عاد إلى حجرته ليجد بيروباكشا جالساً مهموماً. طلب منه سورنجان أن يبتهج قليلاً، هو نفسه يشعر بتحسن الآن، فكر في الذهاب إلى حجرة سودهاموي للاطمئنان عليه، في نفس الوقت جاءت مايا بكوبين من الشاي قال سورنجان مازحاً:

- لقد نحفت خلال الأيام الماضية. ألم تكوني تحصلين على طعامٍ كافٍ في منزل بارول؟

تجاهلت مايا سؤاله وخرجت، منزعجة جداً من أخيها. سودهاموي مريض وليس من اللائق بالطبع أن يضحك ويطلق النكات، في هذه الساعة عاد بيرو باكشا من أفكاره قال:

- سورنجان ـ دا، أنت لا تؤمن بالدين، وأعلم أنك لا تصلي وأنك تأكل لحم البقر ايضاً، لماذا لا تخبرهم بأنك لست هندوسياً تماماً، وأنك نصف مسلم؟

- الحقيقة هي أني إنسان، وهذا أكثر ما يعترضون عليه، الغريب أنه لا يوجد تناقض بين المتعصبين الهندوس والمسلمين. لا بد أنك لاحظت أوجه التشابه بين الجماعات هنا، وبين حزب بهارتيا جاناتا في الهند، كلا الحزبين يسعيان إلى السيطرة على بلديهما المحترمين.

- في الهند ليس حزب بهارتيا جاناتا، ولكن حزب المؤتمر هو المسؤول عن أحداث العنف.

واصل الصديقان مناقشتهما عن موقف الأحزاب في كلا البلدين من التعصب الطائفي، وطريقة استغلالها لأحداث العنف في سبيل الحصول على مزيد من الأصوات الانتخابية.قطعت مايا الحديث بدخولها إلى الغرفة. وضعت مظروفاً مغلقاً على المائدة وقالت:

- ماما طلبت مني أن أعطيك هذا، قالت إنها لا تحتاج إليه.

قبل أن يسأل سورنجان استدارت وتركت الغرفة. فتح سورنجان المظروف فوجد الألفي تاكا التي أعطاها لأمه ليلة أمس. شعر بإهانة بالغة. ماذا تفعل كيرونموي؟ هل يرفض كبرياؤها مساهمته؟ أم أنها تعتقد أن ابنها العاطل قد سرق هذا المال؟ انزعج سورنجان جداً، حتى أنه رغب في ألا يتحدث مع أي أحد، ولا حتى بيرو باكشا، وتمنى أن يتركوه لوحده.

أبو كيرونموي كان محامياً معروفاً، زَوَّجَ ابنته ذات الستة عشر ربيعاً إلى طبيب شاب، ورحل مع عائلته كلها إلى كالكتا، على أمل أن تلحق به ابنته وزوجها عاجلاً أو آجلاً. كيرونموي أيضاً أملت في أن يحدث هذا، خاصة وأن معظم عائلتهم هناك، ولكنها عائلة غريبة هذه التي تزوجت منها، فقد بقيت مع حمويها ست سنوات، حَزَمَ فيها كثير من الأصدقاء والأقارب أمتعتهم ورحلوا، لكن زوجها لم يفكر في هذا مرة واحدة. كيرونموي كانت تذرف الدموع سراً. ومن كالكتا كتب إليها أبوها قائلا:

"عزيزتي كيرون..

هل قررت عدم المجيء بعد كل شيء؟ اطلبي من سودهاموي أن يفكر في الأمر مرة أخرى. نحن أيضاً لسنا سعداء بترك بلدنا، ولكننا كنا مجبرين على هذا. أيضاً لسنا سعداء جداً هنا ونشتاق إلى بلدنا، ولكن ينبغي ان نكون عمليين وواقعيين. أنا قلق عليك".كانت تقرأ كيرونموي هذه الرسائل، وحدها، وتبكي. أحياناً.

في الليل كانت تحاول إقناع سودهاموي في الرحيل دون جدوى. لا أحد في عائلة زوجها بدءاً بوالد سودهاموي وحتى

سورنجان كان يفكر في ترك بنجلاديش. ولم يكن لديها بديل سوى قبول قرارهم . ولكن مسؤولية الحفاظ على الأسرة خلال كل الأزمات التي تعرضوا لها وقعت على عاتقها. لم تتذمر أبداً، وكانت آخر تضحية لها هي بيع زوج من أساورها الذهبية إلى زوجة الدكتور هاريبادا. لم تخبر أي أحد في البيت بالأمر. في النهاية الذهب ليس أهم من زوجها وشفائه. عندما تحصل على بعض الوقت للتفكير في علاقتها بزوجها كانت تتساءل عن هذا النبع العميق داخلها الذي ينشأ منه حبها لزوجها. لم يكن رابطاً جسدياً، ذلك أنهما لم يمارسا الحب منذ ١٩٧١، وكان كثيراً ما يقول لها سودهاموي :

- كيرونموي، اعتقد أنني خدعتك،

وبالرغم من أنها كانت تفهم مقصده، لم تكن تجيب بشيء، مع أنها كانت ترغب حقاً في أن تقول:

- لا.. أنا لم أخدع. من قال هذا؟

لكنها لم تكن تجد الكلمات الصحيحة لتعبر عن نفسها فتسكت. وكان سودهاموي يقول بتنهيدة يائسة:

- هل ستتركينني وترحلين يا كيرو؟ أتعلمين أنني أرتعب أحياناً.

لم يكن لهذا السؤال معنى، لأنها لم تكن لتتركه أبداً، أبداً. في النهاية هل الجنس هو العنصر الهام الوحيد في العلاقة بين الرجل المرأة؟ هل كل شيء آخر تافه؟ هل خمس وثلاثون سنة من الرباط الزوجي ليس لها قيمة إطلاقاً؟ هل من السهل أن تتجاهل الأحداث المؤسية والمفرحة التي اجتازاها معاً لاستكمال دائرة حياة الأسرة.

لا، كانت تردد كيروموى لنفسها . لسوء الحظ، جزءٌ من حياتهما تعطل، ولكنها استطاعت تقبل الأمر. وعندما كان يوقظها سودهاموي في منتصف الليل ليعتذر لها ويسألها عما إذا كانت تعاني بسبب عجزه، كانت تقول دائماً:

- لا، لماذا يجب أن أعاني؟

لكنها كانت تعلم أن سودهاموي يمتلئ بالألم والإحباط من عجزه، خاصة عندما يدفن رأسه في مخدته. وكانت كيرونموي بدورها تستدير نحو الحائط وتقضي ليلها مؤرقة.

أحياناً كان سودهاموي يقول:

- إذا رغبت في بدء حياة جديدة لن أمانع.

ليس صحيحاً أن كيرونموي لم تشعر بالرغبة أبداً. عندما كان يأتي أصدقاء سودهاموي لزيارته، ويقضون الوقت في الحديث كانت ظلالهم تقع أحياناً على حِجْر كيرونموي. ودون إرادة تقريباً، كانت تتمنى أن تصبح هذه الظلال حقيقية، وتتخيل جمال أن يتحول أحد الظلال إلى لحمٍ ودمٍ، يمكنه أن يُريحَ رأسه على حِجْرها. لكن رغبة كيرونموي الجسدية لم تكن تدوم طويلاً، وسرعان ما كان يعتاد جسدها الحرمان.

الحياة لم تتوقف عند أي نقطة، وواصلت التحرك، وبينما العمر يمر بها، كان يتلاشى حنينها السابق. لقد مرت إحدى وعشرون سنة، ولم تعد تشعر بالحرمان الكثير. أحياناً تفكر: ماذا لو كنت ذهبت مع رجل آخر، وتبين أنه عاجز أيضاً؟ أو حتى إذا كان عاشقاً جيداً، هل سيكون لديه قلب كبير وطيب مثل سودهاموي؟

عرفت كيرونموي أن سودهاموي يحبها جداً. شعرت بذلك بطرق عديدة، وملأها هذا بالإحساس أنها بخير. لا يأكل أبداً دونها، ودائماً ما يضع الجزء الأكبر من السمك في طبقها، وإذا حدث أن غابت الخادمة،قبل أن تتدهور حالتهم المادية، كان يعرض عليها المساعدة في الغسيل وتنظيف البيت. في الأمسيات عندما تجلس وحدها وتبدو وحيدة كان يقترح عليها أن يصفف لها ضفائرها، أو يطلب منها الذهاب إلى السوق وشراء زوج من الساري، أو يقول لها:

- لو كان عندي ما يكفي من المال يا كيرو لاشتريت لك منزلاً أكبر. ولكان بإمكانك أن تسيري حافية في الفناء، والحديقة المزروعة بكل أنواع الفواكه والخضراوات والزهور. في الحقيقة منزل براهما بالي كان يناسبك للغاية، ولكنك تعرفين المشكلة.. المال لم يكن مهماً عندي، ولا هدفي. لم أكن أتخيل يوماً أنني لن أستطيع كسب المال. أبوك اطمأن على موقفي المالي، وحَكَمَ على ذلك من بيتي. الآن لم يعد لديَّ بيت ولا ثروة. أعلم أننا نعيش فترة صعبة الآن. يمكنني أن أنجح، ولكنني متأكد أنك تعانين يا كيرون.

كانت كيرونموي تفهم من هذا كله، وغيره، أن هذه الروح البسيطة، المستقيمة، تُحبها بإخلاصٍ وصدقٍ. إذا كان على المرء أن يخسرَ بعضَ مُتع الحياة الصغيرة، أو حتى بعض المتع الكبيرة، ويحظى في المقابل بحُبِ شخصٍ مثل هذا، فالاختيار لن يكون صعباً. بالتأكيد منذ كان عمرها ثمانية وعشرين عاماً لم تتحقق بعض رغباتها، ولكن في أعماق قلبها وروحها، كان يَتقلبُ ،ويَتحرك كل هذا الحب غاسلاً في طريقه جراح الجسد في كل مرةٍ تظهر فيها.

تحولت أفكارها إلى ابنها. أعطاها سورنجان بعضَ المال. لقد اقترضه بالتأكيد، ربما لأنه شعر بأنه غير نافع، ولكنها لم تعط ظهرها للحائط بعد، ولا تزال تستطيع الاستمرار ببعض المال المتبقي معها، كما أنه لا يزال لديها بعض الحلي الذهبية. لذلك أعادت المال إلى سورنجان، دون أن تدرك كم يمكن أن يؤذيه هذا، ولذلك حملقت فيه بدهشة عندما دخل حجرتها وسألها غاضباً:

- هل تعتقدين أني سرقت هذا المال؟ أم تخجلين من أخذِ نقودٍ من شخصٍ عديم الجدوى وعاطل! أعلم أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً لك.. ولكنني أتمنى لو أنني استطعت. ألا يمكنك أن تفهمي هذا؟

كلماته طعنت قلبها ولم تنطق بكلمة.

* * *

طرق سورنجان باب راتنا . فتحت بنفسها، لم تبد عليها الدهشة من رؤيته. وكأنها كانت تتوقع مجيئه، أخذته مباشرة إلى غرفتها. كانت ترتدي سارياً بسيطاً من القطن، راح يتأمل جمالها. تركته وذهبت لإعداد الشاي. كل ما نطقت به هو" كيف حالك"؟ ولم يكن هو الآخر أكثر منها تحدثاً. خانته الكلمات، لأنه أدرك أنه جاء ليحب إنسانة أخرى بعد بارفين. لأول مرة منذ أيام حلق لحيته، وارتدى قميصاً نظيفاً، ووضع بعض الكولونيا أيضاً.

والدا راتنا كانا عجوزين جداً. لها أخ متزوج ولديه أطفال. هؤلاء الأطفال الذين لم تقدمه لهم، كانوا فضوليين جداً بشأنه،وظلوا متعلقين بالقرب من الباب، وهم يطلقون صفيراً من شفاههم بين وقتٍ وآخر. نادى سورنجان الطفلة ذات السبع سنوات وسألها عن اسمها، فقالت بسعادة:

- مرتيكا.

- يا له من اسمٍ جميلٍ. هل تقربين لراتنا؟

- إنها عمتي.

- أوه.

- هل تعمل في مكتب عمتي؟

- لا أعمل، أنا أتسكع فقط.

بشكل ما، بدا أن مرتيكا أعجبها تعبير "أتسكع" كانت على وشك مواصلة الحديث عندما دخلت راتنا الغرفة بصينية عليها الشاي والبسكويت والحمص الساخن ونوعان من الحلوى. قال سورنجان:

- ويقولون إن الهندوس لا يجدون طعاماً في بيوتهم هذه الأيام لأنهم لا يستطيعون الخروج. ولكن يبدو أن هذا لا ينطبق على بيتكم. يمكنك أن تفتحي محلاً بكل هذا الطعام! إذاً متى عدت من سليهت؟

- لم أكن في سليهت. وإنما في هابيجونج، وسونا مجونى، ومولفى بازار. وأمام عيني في هابيجونج أحرقوا ثلاثة معابد.

- من قام بذلك؟

- من غيرهم؟ المسلمون الذين يرتدون الطواقي، ويطلقون اللحى. بعد أن دمروا معبد كالي في السوق الرئيسي نهبوا عيادة أحد أقاربي، الدكتور تابان، ودمروها. في الثامن من ديسمبر دمروا معبدين في سونامجونا، وفي التاسع نهبوا أربعة معابد وخمسين محلاً ثم أحرقوها تماماً. في مولفا بازار دمروا ستة معابد، وفي براهمان بازرا نهبوا سبعة محلات.

- لا بد أنها كانت محلات هندوسية.

لم تستطع راتنا منع نفسها من الضحك وهي تقول:

- بالطبع.

قدمت الشاي والحمص الساخن إليه وقالت:

- هل تعتقد أنه من الممكن البقاء في هذا البلد؟

- ولما لا؟ هل هذا البلد من ممتلكات المسلمين؟

ابتسمت راتنا، ومسحت لمسة من الحزن ابتسامتها.

- إنهم يبيعون بيوتهم وممتلكاتهم بأرخص الأسعار في بهولا، هذا إذا استطاعوا أن يبيعوها أصلاً.

- من يعيش في بهولا؟ الهندوس؟

- دون شك.

تناول سورنجان بعض الحمص وقال:

- إذاً لماذا لا تقولين هذا؟

كان يعلم أنها لا تحتاج إلى توضيح. حقيقة أن من يتعرضون لهذه المعاناة هم الهندوس. مع ذلك أصرّ على أن تقول إن "الهندوس" هم الذين يُطردون. ومهما كان ما فهمته راتنا من

سلوكه، فإنها لم تفعل شيئاً سوى التحديق فيه وهو يأكل. عقل سورنجان كان مركزاً على شيء واحد فقط، هو أنه أصبح مستعداً ذهنياً، اليوم، أن يقول لها دون تردد: "أحبك كثيراً. وإذا كنت تهتمين بذلك يسعدني أن أتزوجك".

عندما نهضت راتنا لإحضار كوب من الماء لامست يده حافة ساريها أثناء مرورها أمامه. ارتعش من اللمسة، وفكر أن زواجه منها سيكون شيئاً جميلاً. إنه لا يريد أن يتزوجها لكي يرسخ حياته الضائعة، وإنما لعلمه بأنه سيسعد معها. ولكن ماذا عنها؟

ما الذي يختبأ في أعماق عينيها؟ شعر سورنجان ببعض الإحباط من أنه لا يعلم .قال لها:

- جئت لأرى إن كنت "سليمة".

- "سليمة"؟ الكلمة لها معنى واحد لدى الرجال، ومعنى مختلف لدى النساء.ما الذي جئت لتراه فعلاً؟

- الاثنين..

ضحكت راتنا وأطرقت رأسها. لم يكن هناك أيُّ بريقٍ يتلألأ في ابتسامتها،شعر بمتعةٍ وهو يراقبها، ودون أن يرفع عينيه عنها تساءل إذا ما كان كبيراً في السن بالنسبة لها؟ هل هو غير مناسب للزواج بالمرة؟ بينما تدور هذه الأفكار في رأسه لاحظ أن راتنا عادت تحدق فيه من جديد. بدا أن هناك نظرة من الافتتان في عينيها. سألته بابتسامة:

- ألا تزال مصراً على قرارك بعدم الزواج؟

فكر سورنجان بعض الوقت قبل أن يجيب :

- الحياة مثل النهر، هل تعرفين؟ النهر لا يتوقف عن التدفق عند أي نقطة؟ القرارات أيضاً تتغير، إنها لا تبقى ثابتة طيلة الوقت.

استمعت إليه راتنا. وعندما نهض ليرحل، ضحكت بغنج وقالت:

- الحمد لله!

باعتبار ما يتعرض له الهندوس، والموقف العام، بدا أنه من غير اللائق قليلاً أن يسمع كلمات "الحمد لله"، ولكن سورنجان لم يتضايق. لم يحتج أن يسألها عما تعنيه، لأنه عرف بالضبط ما الذي دفعها إلى إبداء تلك الملاحظة. أمدته راتنا بنوع من السعادة النقية الخالصة، وأراد أن يمسك بأصابعها النحيلة الصغيرة بين أصابعه ويقول: "هيا، لنذهب إلى الغابة، حيث نستطيع أن نستلقي معاً تحت حماية القمر، وسنطلب منه ألا يخفي ضوءه.." كما أراد أن يقول: "فلنغير هذه الأفكار المتخشبة، والقرارات القديمة، ولنصنع شيئاً معاً". لكنه لم يستطع أن يقول أي شيء من هذا. نظرت إليه راتنا وهو ينزل السلم وقالت:

- أرجوك عد للزيارة فقد شعرنا الآن بالاطمئنان لأن هناك من يقف بجوارنا، وأننا لسنا وحدنا..

شعر سورنجان مجدداً بحيوية الربيع التي أيقظتها في قلبه ذات مرة العصفورة الصغيرة البهيجة بارفين. ورأى أنه في طريقه للتحليق في سماء السعادة التي فتحتها له بارفين مرة أخرى.

اليوم السادس

التقط سورنجان الجرائد مع كوب شاي الصباح . شعر اليوم باسترخاء ، بعد أن قضى ليلة من النوم الهادئ. بعد تصفح الجرائد نادى أخته قائلاً:

- ماذا بك يا مايا؟ لماذا تبدين كئيبة هكذا طيلة الوقت؟

- لا شيء بي ..أنت الذي تتصرف بغرابة . إنك حتى لم تجلس بجوار أبينا ولو مرة واحدة .

- لا أستطيع مواجهة هذه المواقف. لا أستطيع أن أرى رجلاً اعتاد أن يكون وافر القوة والعافية راقداً هكذا مثل الخشبة! والأسوأ أن أراكما تجلسان هنا تبكيان . بالمناسبة، لماذا أعادت لي أمنا النقود التي أعطيتها لها؟ هل لديها الكثير من المال؟

- لقد باعت أساورها الذهبية.

- حسنا، هذا شيء جيد فأنا لا أحب الحلي.

- لا تحبها؟ إذاً لماذا أهديت بارفين خاتماً من اللؤلؤ؟

- كنت ساذجاً وغير ناضج وقتها،ولا أتمتع بكثير من الذكاء إذا أردت الحق..

سألته مايا بابتسامة:

- هل نضجت الآن؟

أسعدت الابتسامة سورنجان، فقد مرّ وقت طويل لم ير فيه ابتسامة أخته. وحتى يطيل من ابتسامتها فرد أمامها الصفحة الأولى من الجريدة وقال:

- انظري. أننا نعيش في بلد يحيى فيه الناس من مختلف الطوائف في وئام،كُفوا عن الطائفية وعَاقِبوا الذين ارتكبوا أعمال الشغب الجماعية من قتلٍ ونهبٍ وسرقةٍ..

هذه هي الرسالة العاجلة "لوفد سلام كل الأحزاب". في الهند هدأت أعمال العنف.

أعلنت المحكمة العليا عدم قانونية احتلال أراضي مسجد بابري بالقوة. وأعلن نارشمها راو أن هدم المسجد هو بالكامل من عمل الحكومة المحلية لولاية اتار باريشار، وأن الحكومة المركزية ليست مسؤولة بأي شكل من الأشكال. ولايات غرب البنغال وجوجارات، وماهارا شترا لا تزال تحت حماية الجيش. قوى اليسار أعلنت الحرب الشاملة ضد الطائفية. اليوم يعقد اجتماع في بالتان، دعى إليه الحزب المركزي البنغالي. حزب "رابطة عوامي" أعلن عن تشكيل فريق سلام للحفاظ على الوئام الطائفي. لجنة التنسيق بين المدن طالبت بالقبض على المسؤولين عن إثارة حوادث الشغب. لجنة محو الطائفية دعت لاجتماع آخر. مسيرة سلام كل الأحزاب تُعقد في تونجي. كتلة الثقافات المتعددة رفعت شعار" بنجلاديش ستنتصر على الطائفية بالتأكيد". خمسون شخصية بارزة أعلنوا أن كل المواطنين يتحملون مسؤولية الحفاظ على الوحدة الوطنية. الكولونيل أكبر أعلن أنه لا بد من اجتثاث جذور الجماعات الفاشية. في باريثال تشكلت لجنة من مختلف الطوائف. اتحاد مدرسي جامعة دكا أعلن أن انهيار الوئام الطائفي من شأنه أن يدنس حرمة "شهر النصر" القادم. قُبض على ٢٨ شخصاً في دهاموي بتهمة نهب المعابد. جيوتي باسو حاكم غرب البنغال قال إنه يشعر بحزن عميق لأن الهند فقدت احترامها في نظر العالم.

- أنت تقرا الأخبار الجيدة فقط.

عارضته مايا وهي تجلس على الفراش تضع ساقاً فوق أخرى وأخذت الصحيفة منه وقالت:

- ماذا عن بقية الأخبار . عشرة آلاف أسرة تعرضت للتشريد في بولا. حرق سبعمائة منزل في شيتا جونج. تدمير المعابد في كيشور جوني . حرق ٧٠٠ منزل في ميرساري .

قال سورنجان بحزم :

- لن أستمع إلى أية أخبار سيئة اليوم، لأنني في مزاج رائق.

- لماذا؟ لأن بارفين ستطلق؟ لقد جاءت بالأمس. قالت إن زوجها كان يضربها كل ليلة.

- ثم ماذا؟ لقد كانوا مقتنعين بأنها لن تكون سعيدة إلا مع زوج مسلم. مزاجي لا علاقة له ببارفين. هذه المرة ليس فيها مسلمون.. حتى لا نُطالب عندما نقرر الزواج بتغيير ديننا.

ضحكت مايا من قلبها. مرّ وقت طويل لم يسمع فيه هذه الضحكة الجميلة! فجأة قال سورنجان بجدية:

- كيف حال بابا الآن؟ ألن ينهض قريباً؟

- إنه أحسن نسبياً. يمكنه الكلام جيداً الآن. ويمكنه الذهاب إلى الحمام مع المساعدة. لقد بدأ في تناول الطعام المهروس. بالمناسبة بلال بهاي أتى ليلة أمس ليسأل عنك والتقى بأبي. وقال إنه لا يجب أن تخرج من البيت هذه الأيام لأن هناك خطورة كبيرة في هذا.

قفز سورنجان فجأة. اعتقدت مايا أنها تعرف سبب تعجله وقالت:

- هل ستذهب إلى مكان ما؟

- وهل أنا من النوع الذي يبقى في البيت؟

- ماما ستقلق جداً إذا خرجت. داد، أرجوك لا تخرج. أنا أيضاً قلقة وخائفة.

- لا بد أن أعيد المال إلى بولوك؟ هل معك بعض النقود؟ أنت تعملين، اعطني بعض النقود من أجل السجائر.

- لا، لن أعطيك نقوداً من أجل السجائر. لا أريد لك أن تموت صغيراً.

ذهبت مايا وأحضرت مائة تاكا. نظر سورنجان إلى أخته بإعجاب وتذكر حادثة قديمة جرت منذ سنوات طويلة. كانت مايا صغيرة جداً عندئذٍ وقد انهارت عندماغاظتها بعض فتيات المدرسة قائلات: "يا هندوسية، يا هندوسية.. الهندوس يأكلون رأس البقرة" وعندما عادت سألت سورنجان:

- هل أنا هندوسية يا داد؟

- نعم.

- لا أريد أن أكونَ هندوسية بعد اليوم. إنهم يضايقونني بسبب ذلك.

سودهاموي الذي سمع حوارهما قال:

- من قال إنك هندوسية؟ أنت إنسانة. ليس هناك أرقى من هذا.

في هذه اللحظة دق قلب سورنجان احتراماً لأبيه. لقد تعامل مع رجال كثيرين، ولكن لا أحد منهم كان في نبل، وصبر، وفهم وتسامح أبيه .

في ١٩٦٤ تدخل سودهاموي لإيقاف فتنة لم تنتشر لحسن الحظ بسبب تدخل الشيخ مجيب . كانت من تدبير حكومة أيوب خان لكي تعطيها مبرراً لمنع ازدهار الحركات المعارضة لها. ادعت الحكومة أن أحداث العنف كانت ضدها، وقاضت الطلبة والزعماء السياسيين ومنهم سودهاموي . لم يكن سودهاموي من النوع الذي يغرق في النوستالجيا. ولكن بلا إرادة منه تقريباً كان الماضي يعود إليه متقطعاً، ويؤدي به إلى الحزن. تكريس حياته لخدمة البلد ورفاهيته ومستقبله.. إلى أين أدى كل هذا؟ منذ ١٩٧٥ والعناصر الأصولية تتولى إدارة البلد بازدياد. الناس يدركون هذا ولكن لا أحد يريد أن يقوم بأي رد فعل. أليس لدى هذا الجيل إحساس بالقيم؟

أين ذهبت روح الماضي؟ الروح التي ألهبت الشباب ١٩٥٢ للخروج في مظاهرات جماعية من أجل جعل البنغالية اللغة القومية؟ وتعرض الشباب لمذبحة جماعية بسبب قضيتهم. أين أمثال هؤلاء الشباب الذين ضحوا بحياتهم في انتفاضة ١٩٦٩؟

أين الثلاثة ملايين وطني الذين خرجوا ١٩٧١؟ من ورث شجاعتهم وإحساسهم بالرسالة؟ أين هذا الحماس والإثارة التي دفعت سودهاموي داخل الحركة الشعبية؟

لماذا يبدو جلد الشباب اليوم بارداً مثل جلد الثعبان؟ ولماذا تنتشر الطائفية هكذا في بلد علماني؟ كأن أحداً لا يدرك أية مرحلة خطيرة تتهدد البلد؟ استولت هذه الأفكار على سودهاموي. حاول أن ينهض من فراشه ولكنه فشل. الألم والفشل اللذان يعاني منهما انطبعا على وجهه المتعب.

وزير الحقوق في حكومة حزب رابطة عوامي حَرّك في البرلمان "قانون مُلكية العدو" الذي وضعه أيوب خان، وحظي بكراهية شديدة تحت اسم مختلف هو "قانون المُلكية المكتسبة". تحت نظام الحكم القديم كانت ممتلكات الهندوس الذين يغادرون البلد يتم إعلانها "ملكية عدو" ويستولي عليها. بكلمات أخرى، هل أعمام سودهاموي أعداء للوطن؟ كان لديهم الكثير من الممتلكات والأراضي الشاسعة.

اليوم يعيش سودهاموي في منزل مظلم، رطب في تيكاتولي، وعلى بعد خطوات منه منزل ضخم كان ملك أحد أعمامه ذات يوم، ولكن الحكومة استولت عليه وفقاً لقانون "الملكية المكتسبة"الذي خلف قانون "ملكية العدو". لو أن هذا القانون صدر لصالح اقرب الورثة الأحياء لمن يهاجرون، لخفت معاناة الهندوس الباقين بشكل كبير. وقد اقترح هذا على عدد من أصحاب المناصب الرفيعة والهامة دون جدوى.

وكان هذا فشلاً آخر من خيبات حياته. اليوم وهو محكوم عليه بان يعيش نصف مشلول، لم يجد سبباً للاستمرار في الحياة، وفكّر

في أنه لو مات في سريره لما تأثر أحد بذلك بكل تأكيد. على العكس، ستستريح كيرونموي من سهر الليالي، والمعاناة المتواصلة. ومرة أخرى لم يستطع منع نفسه من التفكير في فشل الحكومة في حماية المواطنين الهندوس. دستور البلد يكفل نفس الحماية، ويضمن نفس الحقوق لكل مواطنيه ولكن قانون ملكية العدو يُعد انتهاكاً واضحاً للدستور، وعلامة على عدم احترام الشخصية المستقلة للبلد واستقلاله. فكرسودهاموي في نياز حسين، وفاز لول غلام، وأنور أحمد، وكثيرين غيرهم رحلوا إلى الولايات المتحدة أو بريطانيا مع عائلاتهم، وتركو ورائهم أقارب بعيدين أو مستأجرين لأراضيهم. ولم تعتبر ممتلكاتهم "ملكية أعداء" على الإطلاق. وهو يفكر في هذا الظلم حاول سودهاموي القيام من سريره. تقصد جسده بالعرق. لا أحد في البيت! أين ذهبت مايا وكيرونموي وسورنجان؟.

* * *

تمشى سورنجان في شوراع دكا القديمة. لا يزال يتذكر ميمنسنج جيداً، بالرغم من أنه يعيش في دكا منذ سنوات طويلة. لقد وُلِدَ فيها، وقضى طفولته وشبابه. عندما وضع قدميه في مياه بورجانجا في دكا، سرحت أفكاره مع نهر براهما بوترا في ميمنسنج. إذا أراد المرء أن ينكر حقيقة ميلاده، يمكنه فقط أن ينكر مكان ميلاده، أو النهر الذي يجري في مكان ميلاده. عائلة جوتان ستترك البلد وترحل. بدأوا يشعرون أن البلد لم يعد مكاناً آمناً يمكن العيش فيه. إذا كان هذا هو شعورهم، فلماذا يبكون كثيراً قبل رحيلهم؟ منذ خمس سنوات جاء خال سورنجان الذي يعيش في كالكتا لزيارتهم، انهار وبكى مثل الطفل. يومها سألت كيرونموي سورنجان ما إذا كان يريد الذهاب إلى كالكتا مع خاله لكنه رفض الفكرة تماماً. منذ حوالي خمس أو ست سنوات ذهب سورنجان إلى ميمنسنج لحضور حفل عمل. جلس بجوار نافذة القطار وتطلع إلى حقول الأرز الخضراء الزاهية، وصفوف الأشجار، والأكواخ الطينية، وأكوام القش، والأطفال الذين يلهون شبه عرايا في البرك

الصغيرة، ويحاولون صيد الاسماك بشبكاتهم البدائية، والفلاحين الأبرياء الذين يلتفتون في كل مرة يمر فيها القطار بجوارهم. سيطرت المشاهد على سورنجان، وشعر أنه دخل لب قلب هذا البلد. الشاعر جيربا ناندا داسا تأثربهذا الجمال لدرجة أنه رفض أن يذهب لمشاهدة أجمل الأماكن الطبيعية في أي مكان آخر بالعالم. لكن حماس سورنجان خَفَّ عندما لاحظ أن محطة راملا كشما نبور تغير اسمها إلى أحمد باري. وكان اسم محطة كالي بازار قد تغير إلى فاطيمة ناجار، وكيرشنا ناجار، تحولت إلى عليان ناجار.

كل البلد تمت أسلمته، والآن لا يمكنهم حتى إنقاذ محطات السكة الحديد الصغيرة في ميمنسنج!

وأدرك السبب الذي جعل اسم كلية باريسال بروموبو موهون يختصر إلى كلية ب.م. وجعل اسم كلية موراي شاند إلى كلية م.ش. ذلك أن الناس تحت أي ظرف لا يريدون اسماً هندوسياً.

في دكا القديمة لاحظ سورنجان أن محلات الهندوس لا تزال مغلقة. كيف يفتحوا محلاتهم؟ ومن يؤكد لهم أنه ليس هناك داع للخوف؟ لقد أعادوا فتحها بعد أحداث عنف ١٩٩٠ وتكررت الأحداث في ١٩٩٢، ربما لأن جلد الهندوس سميك على ما يبدو. لهذا تمكنوا من إعادة بناء بيوتهم ومحلاتهم المنهوبة والمحطمة. على الأقل يمكن بناء البيوت والمحلات بالرمل والطوب والملاط، ولكن ماذا يستخدمون لجبر قلوبهم المهشمة؟

عاد عقله إلى حوادث ١٩٩٠ الفظيعة. عشرات من دور العبادة والبيوت والمحلات الهندوسية نُهبت وأحرقت ودُمرت، شاهد بعضها بعينيه، وسمع عن بعضها الآخر. ظل سائراً دون هدف لبعض الوقت لا يعلم إلى أين يذهب.

مايا أعطته مائة تاكا. لا يريد إنفاقها. فكر في عدد المرات التي اشترى فيها علب سجائر "بانجلا فايف" ولكن السجائر لا تدوم.. فما الفائدة؟ ليس لديه ضعف نحو المال.. عندما كان يعطيه سودهاموي نقوداً لتفصيل قمصان وبنطلونات كان ينفقها على

الأصدقاء. إذا أراد أحدهم أن يهرب ويتزوج فان سورنجان يمده بالمال. ذات مرة أنفق المال المخصص لرسوم إمتحاناته على ولد اسمه رحمان. أم الولد كانت في المستشفى، وليس هناك من يدفع ثمن علاجها.

فكر في الذهاب إلى راتنا. ثم واصل المشي بلا هدف. عندما ترك المنزل شعر بأن هناك أشياء عديدة سيفعلها. المدينة من حوله تمتلئ بأناس يمشون. كل في طريقه نحو هدفه. وهو وحده ليس مشغولاً بشيء، وليس لديه ما يفعله في مدينة الرعب والفزع هذه. أراد أن يجلس في مكانٍ ما ويتحدث إلى شخصٍ ما. هل يذهب إلى دولال أم إلى ماهديف دا؟ ربما يذهب إلى كاجال ديبناث. لماذا يفكر في الهندوس فقط؟

بالأمس أتى بلال لزيارته، ويمكنه أن يرد الزيارة بالتأكيد؟ أول أمس زاره حيدر، ولن تكون فكرة سيئة أن يزوره أيضاً. ولكن هناك عائق أساسي يمنعه من زيارتهم، وهو احتمال مناقشة قضية مسجد بابري، وما يحدث في الهند، وعدد الموتى، وما يقوله زعماء حزب بهارتيا جاناتا، والمدن التي نزل فيها الجيش بقواته، والذين قُبض عليهم، والأحزاب التي حُظرت. سورنجان كان متعباً من كل هذا. بهارتيا جاناتا في الهند هو الجماعة الإسلامية في بنجلاديش. الهدف واحد وهو تأسيس ما يمكن أن يسمى بالأصولية. لو أن من الممكن فقط حذف الدين من جدول الأعمال السياسي في كلا البلدين!

الدين يفرض نفسه بقوة على المناخ الإجتماعي. ومن الصعب جداً على شعوب العالم الثالث الفقيرة،والضعيفة،والمعذبة أن تهرب من قبضته الحديدية. تذكر أحد أقوال كارل ماركس المفضلة لديه: "إن المشاكل التي تتعلق بالدين هي في الحقيقة تجلٍ لأوجه النقص العملية واعتراض عليها أيضاً. الدين هو تنهيدة المعذب والمضطهد، قلب هذا العالم الذي لا قلب له، وروح المجتمع الذي لا روح فيه. الدين هو أفيون الشعوب".

ردد سورنجان هذه الكلمات لنفسه أثناء سيره في شوارع المدينة المزدحمة. تمشى حتى ما بعد الظهر، وفي النهاية وصل إلى منزل كاجال. مثل كل الهندوس هذه الأيام كان في بيته. وكان هناك آخرون:

- ما الحكاية؟ إنه اجتماع هندوسي تماماً كما أرى.

لم يضحك أحد على تعليق سورنجان، هو وحده ضحك، ثم سأل:

- ما الأمر؟ لماذا يعبس الجميع هكذا؟ لأن الهندوس يُضربون؟

قاطعه سوبهاس:

- هل هناك شيء يدعو للسعادة؟

كاجال ديبنات كان عضواً في جمعية وحدة الهندوس والبوذيين والمسيحيين. لم يؤيد سورنجان الجمعية لأنها بدت له ذات نكهة طائفية. لو وقف بجانب أي من هذه الجمعيات، فلن يكون هناك معنى لمناداته بتحرير السياسة من الدين. كانت وجهة نظر كاجال أنه بعد ٤٠ سنة من الآمال والتطلعات، تأسست الجمعية كخندق حماية أخير للحفاظ على احترامهم لأنفسهم واستقلالهم.

- هل اعترفت خالدة أبداً بأن الطائفية تغزو هذا البلد؟

عندما أثار أحد الحاضرين هذا السؤال أجابه شخص آخر:

- وما الذي فعلته "رابطة عوامي" بهذا الخصوص؟ إنهم يعطون أعذاراً ،ويحاولون تفسير الموقف، لكن هذا هو ما تفعله الجماعة الإسلامية أيضاً. عندما فازت رابطة عوامي بالحكومة في الانتخابات الأخيرة أثاروا وعداً زائفاً بأن كلمة "بسم الله" سوف تحذف من الدستور. الآن بعد أن فقدوا السلطة رأوا أنهم بمعارضتهم للتعديل الثامن سوف يخسرون شعبيتهم. هل ساسة رابطة عوامي يريدون مجرد الفوز بالانتخابات أم إنهم يريدون أن يكونوا أصحاب مبادئ؟ لو أن المبادئ تعني لهم شيئاً، فلماذا لا يقولون شيئاً ضد التعديل الثامن؟

قال سيد الرحمن مدافعاً عن "رابطة عوامي":

- ربما يعتقدون أن من العملي أن يسعوا إلى السلطة أولاً، ثم يقومون بالإصلاح بعد ذلك.

قال كاجال:

- لا يمكن أن تثق بأحد . أي شخص سيصل إلى السلطة سوف يمتدح الإسلام، وفي الوقت نفسه ينتقد الهند بقدر الإمكان. الناس هنا مغرمون بشيئين: انتقاد الهند ومعارضتها ، وامتداح الإسلام.

- ولكن يا كاجال دا، ألا تعتقد أن من الأفضل أن تتشكل جمعية غير طائفية أفضل من هذه الجمعية؟ ولماذا لا يكون سيد الرحمن عضواً فيها؟

غياب سيد الرحمن ليس بسببنا، ولكن بسبب هؤلاء الذين اخترعوا فكرة الدين القومي.من قبل لم يكن لدينا سبب لتشكيل هذه الجمعية. لماذا شكلناها الآن؟

ببساطة لأن بنجلاديش لم توجد من تلقاء نفسها. ولكن بفضل الجهود المشتركة للهندوس والمسلمين والبوذيين والمسيحيين. أن نعلن أن ديناً بعينه هو الدين القومي هو نوع من التمييز الطائفي ضد أصحاب الديانات الأخرى. حب المرء لبلده لا يختلف في الدرجة من شخص إلى آخر، أو من طائفة إلى أخرى. إنه شعور عالمي.

ولكن عندما تجد مجموعة من الناس أن دينها يعتبر من الدرجة الثانية، أو الثالثة لأنهم لا ينتمون إلى الدين القومي، وعندما يكونون مصنفين أيضاً كمواطنين من الدرجة الثانية، فإن كرامتهم تُجرح بشدة. فهل يمكن أن تلومهم بعد ذلك إذا تحولت قوميتهم إلى طائفية؟

بما أن السؤال كان موجهاً إلى سورنجان فقد أجاب مضطراً بصوت خفيض:

- ولكن في دولة حديثة كيف يمكن أن تبرر وجود هذه الجمعية الطائفية؟

أجاب جاتين شاكر فارتي بسرعة:

- من المسؤول عن هذا الإحساس بالطائفية بين الأقليات؟

استمر الحديث عن الأصولية والعلمانية ومظاهر التمييز بين المسلمين والهندوس في مختلف المجالات في بنجلاديش. تمدد سورنجان على السجادة بجانب كاجال وقد أنهكه الجوع والتعب. سمع سوبهان يتحدث عن الاقتراحات التي تقدم بها إلى الحكومة لتعويض الهندوس عن ديارهم ومعابدهم، فقاطعه قائلاً:

- هذه الحكومة لن تقبل اقتراحاً واحداً من اقتراحاتك

وأكد كبير شودهري على كلامه:

- أتفق معك أن وزير الإسكان غير جدير بمنصبه وخائن.

قال سيد الرحمن:

- من المرعب أن يكون هؤلاء الخونة في الحكم الآن. لقد غفر لهم الشيخ مجيب، ومنحهم ضياء الرحمن السلطة، واستثمرهم ارشاد في سلطات أوسع، ووصلت خالدة إلى السلطة بدعم منهم.

تاباس بال الذي كان ينتظر دوره في الكلام صابراً انتهز الفرصة ليندفع في سرد قائمة طويلة من حوادث العنف الجديدة ضد معابد وبيوت ومدارس الهندوس.

وعندما بدا أنه لا نهاية لقائمته قاطعه سورنجان:

- أرجوك بحق الله توقف. بدلاً من هذا لماذا لا تغني لنا أغنية؟

أصيب الجميع بصدمة بالغة. حاول تاباس بال أن يتكلم مجدداً، موضحاً لسورنجان خطورة ما حدث، إلا أنه قاطعه مرة أخرى مُغيِّراً الموضوع:

- كاجال- دا، أنا جائع جداً، هل يمكن أن تقدم لي بعض الأرز؟

- أرز في هذه الساعة! ماذا أصاب سورنجان:

استمر تبادل أخبار العنف. سورنجان شبه النائم كان يستمع إلى شذرات متفرقة عن الممتلكات التي يُستولى عليها، والنساء اللواتي يُغتصبن. فجأة نادى أحدهم عليه:

- اصح يا سورنجان اصح، الأكل وصل

لابد أن كاجال- دا هو الذي ناداه. هكذا كانت تناديه مايا دائماً: "دادا، تعال، الأرز جاهز، هيا..". فكر سورنجان بشكل ضبابي: لابد أن يشتري بعض الحبوب المنومة الليلة بالنقود التي أعطتها له مايا. يشعر أنه لم ينم منذ وقت طويل.بق الفراش يبدأ في القرص بمجرد هبوط الظلام. سريره كان يمتلئ ببق الفراش. تذكر كيف كانت كيرونموي تنظف فراشه في طفولته. عندما يعود سوف يطلب من مايا تنظيف الفراش. البق يعضه طيلة الليل، حتى في رأسه. مجرد تذكر ذلك يجعل رأسه يتألم. شعر بالإعياء. عندئذٍ سمع أحدهم، ربما كان تاباس، يقول إن ثلاثين معبداً تعرضت للاعتداء بجوار مسكنه ،وكذلك كل البيوت المحيطة بها. وسرعان ما التقط الخيط شخصٌ آخر ليسرد ما حدث في منطقته.. لو يغلق سورنجان أذنيه بقطع من القطن! كل شيء حوله يتمحور حول مسجد بابري، وحكايات الحرق والتدمير، لو أنه ينعم ببعض السلام والهدوء. ما أروع أن يستطيع الهروب إلى ميمنسنج حيث الأضرار أقل بكثير! لو يستطيع أن يستحم في مياه براهما بوترا لعل الشعور باحتراف ظهره يخف بعض الشيء. وقف على قدميه. معظم الموجودين رحلوا. كان سورنجان على وشك الرحيل أيضاً عندما قال كاجال دا:

- الطعام على المائدة. ألن تأكل؟ كيف تنام في هذه الساعة؟ هل أنت بخير؟

تمطى سورنجان وقال:

- لا يا كاجال دا، لا أريد أن آكل. أنت على حق، أشعر أنني لست بخير

- ماذا تعني؟

لا أعني شيئاً، ولكن أخبرني، ماذا أفعل؟ أحياناً أشعر أنني جائع جداً، وقبل أن آكل يتلاشى إحساسي بالجوع. لابد أنها الحموضة. أشعر بالنعاس ولكنني لا أستطيع النوم.

وضع جاتين شاكرا فارتي يده على كتفي سورنجان وقال:

- أنت تنهار، تمالك نفسك. لن ندع ذلك يحدث لأيّ منّا . في النهاية لا بد أن نستمر.

كان سورنجان واقفاً منكس الرأس.كلمات جاتين دا تبدو مثل نصائح سودهاموي . لقد مرّ وقت طويل لم يجلس فيه قرب أبيه المريض. قرر أن يعود للبيت حالاً. هذا ما يحدث دائماً عندما يزور كاجال دا، يكون هناك عدد كبير من الناس، ومناقشات حامية في السياسة والقضايا الأخرى، حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.

رحل دون أن يأكل. لا بد أن وقتاً طويلاً قد مر على آخر مرة أكل فيها في البيت. فكر في أن يفعل ذلك اليوم بصحبة مايا وكيرونموي وسودهاموي. الحواجز تفصل بينه وبين بقية أفراد أسرته. والسبب هو. قرّر أن يكسر الحواجز اليوم، أن يضحك ويتحدث مع الجميع، ويشعر بالرضا والسعادة، كما كان يشعر في الصباح. لن يذهب إلى شخصٍ آخر. لا إلى بولوك ولا راتنا. سوف يذهب مباشرة إلى تيكاتولي، يأكل أي شيء يتوفر، ويسهر معهم، ثم ينام بسلام.رافقه كاجال دا حتى البوابة وقال له بقلق:

- لا يجب أن تتنقل كثيراً. نحن لا نغامر بالخروج إلى أبعد من المنطقة المجاورة، وها أنت تجوب البلدة كلها وحدك.

لم يكن لدى سورنجان ما يقوله. بدا السير بخطوات واسعة. معه ما يكفي لاستئجار عربة ريكشا، ولكن قلبه لم يطاوعه لإنفاق نقود مايا. إنه لم يدخن طيلة اليوم، ولكن الآن في نهاية اليوم، وعلى

الرغم من قلقه على النقود، اشتاق إلى التدخين. توقف عند أحد المحلات وأشترى سيجارة "بانجلا فايف" وأشعلها. جعلته يشعر بأنه ملك. وصل إلى تقاطع كاكريل، واستأجر عربة ريكشا. هذه الأيام، كما فكر، تنام المدينة مبكراً مثل رجلٍ مريض. ما هي علة المدينة؟ وهو يفكر في هذا، تذكر صديقاً كان لديه "دُمل" في ظهره. كان يصرخ من الألم طيلة اليوم، لكنه لم يعالجه أبداً بسبب خوفه الشديد من العلاج، وخصوصاً الحقن. هل المدينة مصابة "بدمل" في ظهرها؟

فكر سورنجان بذلك، وهو يجلس في الريكشا باتجاه البيت.

* * *

سأل سودهاموي:

- مايا، ما حكاية سورنجان؟هل تعلمين أين يمكن أن يكون في هذه الساعة؟

- قال إنه سيذهب إلى بولوك دا. لا بد أنه هناك.

- هل هناك سبب يدعوه إلى البقاء في الخارج حتى حلول الظلام؟

- لا أعلم.. ولا أفهم. المفروض أن يكون قد عاد.

- ألا يدرك أننا قد نقلق عليه، وأنه يجب أن يعود إلى البيت في وقتٍ معقولٍ..

حاولت مايا أن تهدئ سودهاموي:

- لا تزعج نفسك. لا ينبغي أن تتكلم كثيراً. استرح فحسب، وبعد تناول الطعام سوف اقرأ لك إذا أردت، وفي العاشرة يجب أن تنام بعد أن تتناول أقراصك. عند ذلك الحين سيكون سورنجان قد عاد بالتأكيد، لا تقلق.

- أنت تمرضينني وتعيدين لي صحتي قبل الأوان يا مايا. لولاك لبقيت في الفراش أياماً أخرى. هناك عيوب في أن يكون المرء بصحته.

قالت مايا، وهي تجلس بجواره، وتسحق الأرز الخاص به:

- مثل ماذا؟

- أنت تطعمينني، وأمك تدلك لي جسدي، وتضغط لي صدغي.. هل كنت سأحظى بهذا الحب والعناية لو كنت بصحتي؟ عندئذٍ كنت سأنشغل بمرضاي، والذهاب إلى السوق، وربما الشجار معك..

ضحك سودهاموي عالياً. تأملته ابنته بدهشة.هذه أول مرة يضحك فيها منذ مرضه، بعد ذلك بقليل، طلب من كيرونموي فتح نوافذ البيت:

- ليدخل بعض الهواء المنعش. لا أشعر بهواء الشتاء إطلاقاً. هل تعتقدين أننا لا نحب الهواء النقي سوى في الربيع. عندما كنت صغيراً، كنت أجوب الشوارع لتعليق الملصقات على الحوائط في برد الشتاء القارص، وأنا لا أرتدي سوى قميص خفيف على ظهري. في كل المناطق الجبلية، في سوشونج دورجابور مع موني سينج. هل قلت لك شيئاً عن حركة تونك الشعبية، وعصيان هاجونج في تلك الفترة يا كيرونموي؟

ذهن كيرونموي كان أكثر استرخاءً، قالت لزوجها:

- قلت لي الكثير عن هذا بعد زواجنا . إذا كنت أتذكر الآن، فأنت قضيت ليلة مع موني سينج في بيتٍ غريبٍ في نيتراكونا.

قال سودهاموي فجأة:

- كيرونموي..هل ارتدى سورنجان ملابس ثقيلة؟

كشرت مايا بتهكم وقالت:

- بالطبع لا.. إنه أيضاً يرتدي قميصاً خفيفاً. كما كنت تفعل. إنه ثوري "مودرن " في النهاية! لا يتأثر برياح الطبيعة لأنه مشغول برياح التغيير!

قالت كيرونموي بغضب:

- السماء أعلم أين يحوم طيلة اليوم حتى الآن.. ماذا يأكل .. ما الذي يأكله بالمرة؟.. إن إهماله يزداد كل يوم!.

عندئذٍ سمعوا طرقة واحدة على الباب .هل عاد سورنجان؟ نهضت كيرونموي وذهبت لفتح الباب. هذه هي الطريقة التي يطرق بها سورنجان الباب، ولكنه عادة يذهب إلى غرفته مباشرة عن طريق الباب الخاص به، إذا كان الوقت متأخراً. بما أن الوقت غير متأخر جداً فلا بد أنه سورنجان. كانت مايا تخلط الدال بالأرز لإطعام سودهاموي. فكرت أنه إذا صنعت من الخليط كراتاً مستديرة ناعمة سيكون من الأسهل له ابتلاعها. منذ أن سقط مريضاً وهو يعيش على السوائل، وأخيراً سمح له الطبيب بتناول الطعام المهروس. أعدوا له سمكاً خفيفاً بالكاري مع الدال والأرز.

بينما كانت مايا تخلط السمك مع الأرز، سمعت الطرقة على الباب. اتجهت كيرونموي إلى الباب وسألت من الطارق، أرهف زوجها أذنيه ليسمع. كان هناك رد غير واضح. فتحت الباب. وفي ومضة اندفع سبعة رجال إلى الداخل،أبعدوا كيرونموي جانباً عن طريقهم. أربعة منهم مسلحين بالقضبان، كل شيء حدث بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان من الصعب معرفة بقية ما يحملونه. كلهم في حوالي الواحدة والعشرين من العمر. اثنان منهما يلبسان الطاقية والبيجاما، والباقون يرتدون القمصان والبنطلونات. لم يضيعوا وقتاً، على الفور بدأوا في تحطيم كل شيء في الغرفة بطريقة مرتبة، وببرود. لم ينطق أحدهم بكلمة واحدة. الأصوات الوحيدة كانت أصوات تحطم الموائد والمقاعد وجهاز التليفزيون والمرايا الزجاجية وأرفف الكتب والمراوح.. وقماش الملابس التي تتمزق إلى قطع صغيرة. حاول سودهاموي المرعوب أن يجلس مستقيماً، دون جدوى . صرخت ابنته: "بابا..". كيرونموي المذهولة ظلت

واقفة مكانها عند الباب المفتوح، وعندما اقتربوا من إنهاء مهمتهم، سحب أحدهم ساطوراً وقال مهدداً:

- يا أولاد الحرام! هل تعتقدون إنكم ستفلتون بتدمير مسجد بابري؟

بجنون ووحشية واصل الشبان تدمير ممتلكات ال دوتا. أفراد الأسرة العاجزة، الصامتة راقبوا بيتهم وهو يتحول إلى خراب.. ثم إنفكَ سحر الصمت عنهم عندما أمسك أحد المعتدين بمايا. صرخت أمها في رغب، وتأوه سودهاموي المريض. في محاولة يائسة للنجاة أمسكت مايا بيد السرير.اندفعت كيرونموي وألقت بنفسها فوق ابنتها، في محاولة مستميتة لحمايتها. ولكن المعتدين القساة رفعوا كيرونموي من فوق ابنتها، وخلصوا قبضة مايا عن السرير، ورحلوا بنفس السرعة التي جاؤوا بها، حاملين معهم الجائزة التي فازوا بها. استعادت كيرونموي نفسها،وانطلقت تركض ورائهم وهي تصرخ وتتوسل :

- أرجوكم اتركوها، أرجوكم اتركوا ابنتي.أ...رجووو...

في الخارج عربتا ريكشا كانتا بانتظارهم . يدا مايا لا تزالان ملطختان بالارز والكاري، ملابسها مفتوحة مثل عيناها الجاحظتين بالهلع، وهي تصرخ نحو أمها:

- أمي ..أرجوك، أمي ..أمي ي ي ي ي...

صارعت آسريها وهم يجرونها بعيداً، تنظر خلفها في ألم ورعب، تأمل أن تستطيع أمها إنقاذها. حاولت كيرونموي بأقصى ما تستطيع، دون أي مبالاة بسلامتها الشخصية، ألقت بنفسها عليهم وتفادت الساطور اللامع الذي وجهوه إليها، حاولت أن تمسك بمايا. ولكن الرجلين الممسكين بابنتها تفادياهجوم كيرونموي، وزجوا بمايا في إحدى العربتين. وبينما العربة تسرع، جرت كيرونموي خلفهم تصرخ وتنوح:

- إنهم يخطفون ابنتي..ساعدوني...أرجوكم يا ...

عند ناصية الشارع نفذت قوتها تماماً فتوقفت. شعرها وملابسها في حالة مزرية. رأت موتي ميا، أحد معارفها،تضرعت إليه :

- دادا، خطفوا مايا، ساعدني أرجوك

نظر إليها الرجل مشدوهاً، كما فعل الجميع من حولها، كأنها شحاذة مجنونة تتسول الفضلات. استجمعت كيرونموي ما بقي لديها من قوة، وغاصت في ظلام الليل، دون جدوى، تطارد ابنتها التي اختفت..

فوجئ سورنجان بأن الباب الأمامي مفتوح على مصراعيه. وهو يخطو إلى الداخل صعقه الدمار الذي ملأ عينيه. المناضد مقلوبة، الكتب مبعثرة في كل مكان ،المراتب والملاءات ممزقة فوق السرائر، دولاب الملابس محطم، والملابس مكومة. لهث سورنجان وهو يتنقل بين غرفة وأخرى. الزجاج يتكسر تحت قدميه. وجد أباه على الارض يتأوه من الألم. مايا وكيرونموي ليسا هناك. خاف أن يسأل أبيه عما حدث في غيابه. وهو يحاول صياغة الاسئلة وجد أن صوته يرتعش من الصدمة.قال أبوه بصوت بالغ الضعف:

- خطفوا مايا.

الصدمة تحولت إلى غضب وخوف،و...

- ماذا تعني؟ خطفها؟ من...؟ أين...؟ متى...؟

لم يستطع أبوه الرد، وسرعان ما انهارت قواه. رفعه سورنجان وأرقده على السرير برقة. أنفاسه القصيرة لاهثة، وجسده يتفصد بالعرق. همس سورنجان:

- أين مايا؟

وجه سودهاموي كان بالغ الشحوب. وبدا واضحاً أنه في سبيله إلى الموت إذا لم ينقذه أحد. حيرة سورنجان كانت مرعبة. هل يبقى مع أبيه، أم يذهب للبحث عن أخته؟ ارتعد من الخوف واليأس.

طفت برأسه رؤيا للبحر الثقيل الذي يهدد بابتلاعه. وتبعتها رؤية الكلاب الضالة التي تتحلق حول قطة ضعيفة عاجزة. اتخذ قراره وتوجه إلى باب الخروج. قبل أن يرحل، ربت يد أبيه الفاقدة للإحساس وقال:

- سوف أعيد مايا مهما حدث يا أبي.

توجه إلى منزل حيدر. طرق الباب بقوة أحدثت جلبة شديدة حتى أن حيدر جاء بنفسه مسرعاً وفتح الباب. اندهش من رؤية سورنجان .

- ماذا هناك يا سورنجان؟ ماذا حدث؟.

لم يستطع سورنجان أن يجيبه. كأن الألم واليأس الذين يشعر بهما انتزعا منه القدرة على الكلام . أخيراً نجح في أن يقول بصوتٍ مخنوقٍ من شدة الألم:

- لقد خطفوا مايا.

- متى حدث هذا؟

لم يجب سورنجان. تجهم وجه حيدر. كان عائداً للتو من اجتماع للحزب، وعلى وشك تغيير ملابسه عندما أتى سورنجان. صدمه مشهد سورنجان الذي بدا كإنسان ضاع منه كل شيء في الإعصار. كان يمسك بالباب ولكن يديه بدأتا في الارتعاش، حتى أنه كورهما في قبضتين. وضع حيدر يديه على كتفيه وقال في محاولة لتهدئة صديقه:

- اهدأ، فلندخل ولنفكر كيف نتصرف.

عندما لمس حيدر يد سورنجان انهار، وارتمى بذراعيه على حيدر باكياً:

- أعد مايا إلى البيت يا حيدر: أرجوك أعد مايا...

بدا عذابه واضحاً في هذه الشهقات الهائلة التي تهز جسده. وأخيرا سقط عند قدمي حيدر الذي نظر إليه برعب. لم يتصور أبداً

أن صديقه القوي الصلب سيكون بهذه الحالة!. أوقف سورنجان على قدميه، وبالرغم من جوعه قرر تأجيل الأكل، وقال :

- هيا، لنذهب ونرى ما يمكن أن نفعله.

فوق دراجة حيدر البخارية انطلقا خلال حواري وشوارع تيكاتولى. مر حيدر ببيوت صغيرة فقيرة، وأخرى فاخرة، تحدث إلى عابر مثير للشبهات، وتباحث مع شاب حسن الطلعة. دخل مناطق قريبة لم يكن سورنجان يعرف حتى أنها موجودة، وفي النهاية لم يخرج بشيء. تركا تيكاتولي باتجاه "الطريق الانجليزي" وأخترقا شوارع كثيرة، وأماكن عديدة، وكل جزء من المدينة اعتقد حيدر أنه يصلح كمكانٍ للاختباء ولكن لم يُعثر على أثرٍ لمايا. طرق حيدر أبواب بيوت كثيرة. تحدث وتحدث مع أناس لم يرهم سورنجان في حياته: والنتيجة لا شيء.

في كل مرة يتوقف فيها حيدر، كان الأمل يراود سورنجان.. أنه في هذه المرة سوف يجد مايا! لا بد أنها مقيدة وربما يضربونها، ولكنه سوف يعثر عليها. ولكن ماذا لو لم يكتفوا بضربها، وكانوا يفعلون شيئاً آخر؟ أرهف سورنجان أذنيه علّه يسمع بكاء مايا، فجأة أثناء عبورهما سوق لاكشمي طلب سورنجان من حيدر أن يتوقف. اعتقد أنه سمع بكاء مايا. تتبعا الصوت حتى مصدره ووجدا أنه صوت بكاء طفل في أحد البيوت. تأخر الوقت لكنهما واصلا البحث. لم يطيلا البقاء في أي مكان، لأن مجال البحث كان كبيراً. في كل زقاق يقف مجموعة من الشباب ينظرون إليهم بعيون حمراء ونظرات دموية. وعندما ينظر اليهم سورنجان يراوده اليقين بأن هؤلاء هم المسؤولون عما حدث لمايا.

- حيدر، أين مايا؟ لماذا لا تستطيع أن تجدها؟ لا بد أن أجدها الليلة، لا بد.

- لقد فحصت كل خرم في المدينة. ماذا أفعل غير هذا؟ سورنجان كان يدخن سيجارة وراء الأخرى. مزقته فكرة أنه اشتراها بنقود مايا.

- فلنذهب ولنأكل شيئاً في محل "سوبرستار". إنني جائع جداً.
طلب حيدر طبقين من الفطيرواللحم. حاول سورنجان أن يأكل. قطع الفطيرة إلى قطع، ولكن لم يستطع تحمل رفعها إلى فمه. بينما الدقائق تمر، بدا أن الخواء يكبر في قلبه. أكل حيدر بنهم، وبعد أن انتهى أشعل سيجارة. حثه سورنجان على مواصلة البحث:

- هيا، لنتحرك . لا زلنا لم نعثر عليها.

- أين يمكن أن أبحث أيضا؟ قل لي، لقد رأيت بنفسك كيف بحثنا في كل مكان!

- دكا مدينة صغيرة.كيف نفشل في تحديد مكانها؟ هيا لنذهب إلى قسم الشرطة.

عندما حكى سورنجان الواقعة كلها في قسم الشرطة، استمع إليه رجال الشرطة بنظرات جوفاء لا مبالية. في النهاية نجح في تحرير بلاغ مكتوب. في الخارج قال حيدر:

- لا اعتقد أنهم سيفعلون شيئاً.

- ربما يفعلون.

- فلنذهب إلى واري. هل تعلم بوجود أحد هناك؟

- لقد كلفت زملاء الحزب بالمهمة، وسوف يبحثون أيضاً، فلا تقلق كثيراً.

كان واضحاً أن حيدر بذل أقصى ما يستطيع، ولكن سورنجان لم يكتف. القلق كان يقوده. طيلة الليل واصلا التجوال بدراجة حيدر البخارية في المدينة القديمة.

ذهبا إلى كل "غرزة" ووكر في المدينة، إلى أن حان وقت صلاة الفجر. دائماً ما كان يحب سورنجان صوت الآذان، ولكنه اليوم لم يستطع احتماله. صوت الآذان كان يعني مجيء الفجر ومايا لم يُعثر عليها بعد! توقف حيدر في تيكاتولي، وقال بأرق ما يستطيع:

- لا تيئس يا سورنجان.فلنفكر فيما يجب أن نفعله.

في البيت جلست كيرونموي وسط الحطام تتطلع بشغفٍ ويأسٍ نحو الباب. حتى سودهاموي، المشلول، الذي ازداد ضعفاً بفعل الإثارة، وعدم النوم كان يأمل أن يعود سورنجان بمايا. ولكن عندما شاهدا ابنهما المتعب الحزين يعود خالي الوفاض تلاشت كل الآمال. هل هذا يعني أنهما لن يريا مايا مرة أخرى. كانا مسكونين بالخوف والحزن. جو الشؤم ملأ البيت الذي يفوح برائحة مُقيضة بسبب نقص الهواء النقي. كل الأبواب والنوافذ كانت مغلقة تماماً. لم يرغب سورنجان في التحدث مع والديه، الذين جلسا هناك صامتين ومهمومين ومرعوبين، تمتلىء عيونهما بالأسئلة. جلس على الأرض في ضجرٍ، ومدد ساقيه. شعر برغبة في التقيؤ. فكر، الآن، لا بد أن العصابة قد اغتصبتها. لو أنها تعود فحسب، كما فعلت بعد يومين من الاختفاء، وهي طفلة في السادسة من عمرها! الباب مفتوح وكل شيء سيكون على ما يرام إذا دخلت الآن، حزينة ومرهقة، ربما، ولكن حيّة، وعائدة إلى أسرتها الممزقة. يا ليتها تعود إلى هذا المنزل الصغير، المُنهار، المُدمر كلية.

حيدر وعده بمواصلة البحث في اليوم التالي. طالما أنه وعد فان سورنجان يستطيع أن يحلم بعودتها؟ ولكن لماذا خطفوها؟ لأنها هندوسية؟ كم سيتحمل الهندوس من الاغتصاب، وحمامات الدم، وضياع الممتلكات كثمنٍ لبقائهم في هذا البلد؟ يخفون رؤوسهم مثل السلاحف.. ولكن إلى متى؟إذا أراد أن يبحث عن إجابات عن هذه الإسئلة، فلن يحصل عليها.

جلست كيرونموي وظهرها إلى الحائط. تقول بصوت واهن يكاد ألا يسمع، دون أن توجه حديثها إلى أحد: لقد قالوا جئنا لنطمئن عليك ياماشيما، نحن من الجيران، افتحي الباب. كم كان عمرهم؟ لا يزيد عن واحد أو اثنين وعشرين عاماً. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أمام قوتهم؟ ذهبت إلى كل بيوت المنطقة أرجوهم المساعدة.. لكنهم اكتفوا بالاستماع، متعاطفين معي، ربما، ولكن أحداً منهم لم يساعدني. واحد منهم اسمه رفيق. سمعت واحداً منهم، يرتدي

طاقية، كان يناديه بـهذا الاسم.. لقد كـانت فـي بيـت بـارول. كـانت ستنجو لو بقيت هناك. هل ستعود مايا إلى البيـت؟ لمـاذا لـم يحرقـوا البيت ويتركوهـا؟ لأنـه ملـك رجـل مسـلم علـى مـا اعتقـد! لمـاذا لـم يقتلونـي ويتركوها؟. إنها طفلـة بريئـة. حيـاتي أنتـهت تقريبـاً، ولكـن حياتها على وشك أن تبدأ.

امتلأ رأس سورنجان بالدوار والألم الفظيع. اندفع نحو الحمام وتقيأ بلا تحكم.

اليوم السابع

عندما عمّ ضوء الشمس الشرفة، عبرتها قطة مرقطة. هل تبحث عن الطعام؟ أم أنها تبحث عن مايا؟

لقد اعتادت مايا على حمل القطة بين ذراعيها والتجول بها. واعتادت القطة على التسلل تحت غطاء سريرها والانكماش في دفئها. هل تعلم أن مايا لم تعد هنا؟ لا بد أن مايا تبكي بمرارة الآن. هل قيدوها من يديها وقدميها؟ ووضعوا قطعة من القماش في فمها؟ ارتعد سورنجان من التفكير فيما يمكن أن يفعله سبعة رجال لفتاة في الواحدة والعشرين من عمرها. ضربه الأسى والجزع. شعر بأنه متيبس وميت. هل سورنجان حي؟ نعم، بالطبع هو حي، مايا هي التي ذهبت. ربما إلى الأبد.

هكذا هو العالم، لا يستطيع فيه أحد أن يضحي بحياته من أجل شخصٍ آخر. من الراسخ تماماً أنه ليس هناك كائن حي في أنانية الإنسان. لماذا ينبغي أن يموت أقارب مايا؟ لمجرد أنها ذهبت؟

صحيح أن حيدر بذل مجهوداً هائلاً في البحث عنها. إلا أن سورنجان شعر بأنه لم يبذل قصارى جهده. إنه مسلم مثلهم في النهاية.

بينما يرقد في الشمس يراقب القطة خطر لسورنجان فجأة أن حيدر ربما يعرف الذين خطفوا مايا، ولكنه تظاهر بعكس ذلك. عندما كان يلتهم الطعام في محل "سوبر ستار" لم يبد القلق على وجهه. على العكس تجشأ باستمتاع بعد الوجبة، ودخن سيجارته ببساطة، كما لو أنه لم يكن يبحث عن شخص في خطر. فكر سورنجان في أن البحث نفسه لم يكن عملاً كبيراً بالنسبة لحيدر، وتذكر أنه دائماً ما كان يرغب في التجول ليلاً بدراجته. هل كان يحقق هذه الرغبة؟ هل بذل مجهوداً هائلاً في البحث عن مايا، أم

أنه كان يغالب مشاعره من أجل خاطر الصداقة؟ لم يكن مُقتِعاً في قسم الشرطة. شك سورنجان في أنه ترك أي تعليمات لزملائه في الحزب. ربما لا تكون لمايا أولية في برنامج أشياءه. هل هذا لأن الهندوس مواطنون من الدرجة الثانية؟ حتى الآن لا يستطيع سورنجان أن يصدق أن مايا ذهبت، وأنها ليست في الغرفة المجاورة تجلس بجوار سودهاموي، وتدلك ذراعه. شعر بأنه لو دخل هذه الحجرة سوف يسمع صوتها:

- دادا، ألن تخرج لتفعل شيئاً؟

فكر بأسف أنه لم يفعل أيَّ شيءٍ من أجلها. كل الأخوات يطلبن من إخوتهن الكبار أشياء طفولية.. اخرجني معك.. اشتري لي هذا.. اشتري لي ذاك..! نعم، بالطبع، طلبت منه هذه الأشياء، لكن سورنجان تجاهلها.

كان مشغولاً للغاية، مشغولاً بنفسه على أن يعتني بها، الأشياء المهمة بالنسبة له كانت الأصدقاء والسياسة والحزب. كل هذه السنوات لم يكن سودهاموي وكيرونموي ومايا مُهمين على الإطلاق.لم يهتم لا بأفراحهم ولا بأحزانهم. كل ما كان مهتماً به هو مستقبل البلد. عمل جاهداً من أجل علاج الأمراض التي تعاني منها بلده.. ولكن هل نجح؟

بمجرد أن دقت الساعة التاسعة هرع سورنجان إلى منزل حيدر المجاور لمنزلهم تماماً.

كان حيدر لا يزال نائماً، ولذلك انتظره في غرفة المعيشة. أثناء انتظاره راوده شك غريب حول أحد المعتدين، الشاب الذي يدعى رفيق، قد يكون أحد معارف حيدر، وربما من أقاربه. ارتجف سورنجان. مرت ساعتان. وأخيراً ظهر حيدر.

- هل عادت مايا؟

- هل كنت سآتي لو أنها عادت؟

بدا صوت حيدر لا مبالياً. كان يرتدي صدريته فقط. حَكَّ صدره العاري وقال :

- الجو ليس بارداً كعادته هذا العام؟ أليس كذلك؟

حَكَّ نفسه مرة أخرى وواصل :

- هناك اجتماع في منزل رئيس الحزب اليوم أيضاً. قد يرتبون لمسيرة. عندما وصل نشاط غلام عزام إلى ذروته بدأت كل هذه الاضطرابات: هذه الأحداث من تدبير الحزب الوطني البنجلاديشي بالتأكيد.. إنهم يسعون إلى تحويل القضية لصالحهم.

- بالمناسبة يا حيدر، هل تعرف شاباً اسمه رفيق؟ كان هناك شخص بهذا الاسم بين المعتدين.

- أين يسكن؟

- لا أعلم. إنه في حوالي الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين من العمر. ربما يكون من هذه المنطقة.

- لا اعتقد أنني أعرف أحداً بهذا الاسم. على أية حال سأكلف رجالي بالبحث.

- هيا نخرج.. لا يجب أن نضيع الوقت.. لا أستطيع أن أتحمل النظر إلى وجه أبي. إنه يعاني من أزمة صحية.. ومع كل هذا التوتر كل ما أمل فيه ألا تزداد حالته سوءاً

- لا اعتقد أنه من الصواب أن تظهر معي الآن.

- لماذا؟ لماذا ليس من الصواب أن...

- لماذا لا تفهم؟

بالطبع فهم سورنجان. ليس من المقبول أن يقوم هندوسي بملاحقة مسلمين أو اعتقالهم، حتى لو كانوا لصوصاً وقتلة... وربما يتوقع أكثر مما يجب حين يطالب بفك أسر فتاة هندوسية من أيدي مسلمين.

ترك سورنجان منزل حيدر خائب الأمل..أين يذهب الآن؟ إلى البيت؟ لا يرغب في العودة إلى هذا المكان الموحش.

لا يزال أبواه يأملان أن يعود إليهما بأخته.. حيدر قال إنه سيكلف رجاله بالبحث..

هل سيبحثون فعلاً؟ في النهاية أنهم لم يفقدوا شيئاً.. من هي مايا بالنسبة لهم؟ لماذا يجب أن يتعاطف المسلمون مع الهندوس؟ إن كانوا يتعاطفون فلماذا تتعرض منازل الهندوس فقط للنهب والحرق؟ لماذا تتعرض للاعتداء منازل سورنجان، وجوبال، وكاجا ليند، دون غيرهم؟

لم يعد إلى البيت، تجول في شوارع المدينة كلها بحثاً عن مايا.. مشى دون هدف تقريباً.. أحياناً كان يركض .. يشك في أي شاب في حوالي الواحدة والعشرين.. توقف عند محل بقالة.. عينا البائع لم تلتق بعينيه.أدرك على الفور بأنه يعرف أن أخته اختطفت. تسكع في الشوارع من جديد، وأخيراً توقف في نايا بازار ليستريح عند أنقاض دير الهندوس هناك.. لم يتحمل فكرة أن يلتقي بشخص يعرفه.. ما الفائدة على أية حال؟ سوف يواصلون النقاش حول مسجد بابري.. بالأمس لم يتردد سالم في أن يقول:

- طالما أنكم دمرتم مسجدنا، فلماذا تعتبرون حرق معابدكم أمراً سيئاً؟

في الحقيقة سالم كان يمزح عندما قال هذا. ولكن، كم من الأفكار الجدية يُعبر عنها الناس بنكاتٍ عابرةٍ؟ لو أن مايا تعود إلى البيت. ربما تعود. يجب أن تعود حتى لو كانوا قد اغتصبوها. على أمل أن يجدها في البيت عاد سورنجان .

لا شيء، على أية حال، تغير. سودهاموي وكيرونموي لا يزالان جالسين في انتظار المعجزة. أية أخبار يمكن أن تكون أسوأ من عدم عودة مايا؟ استلقى سورنجان على سريره ودفن رأسه في المخدة. في الغرفة الأخرى استطاع سماع تأوهات سودهاموي. فيما بعد، في منتصف الليل وصل إليه صوت بكاء كيرونموي الحاد،

المرتفع، ولم يسمح له بالنوم. لماذا لا يتناول ثلاثتهم سُماً ويتخلصون من حياتهم؟ على الأقل سيتوقف ألمهم ومعاناتهم الممزقة. كان واضحاً الآن أنه لا معنى لاستمرار الهندوس في البقاء في بنجلاديش.

* * *

استنتج سودهاموي أن انهياره الصحي ورائه جلطة في المخ أو انسداد في الشرايين. كان متأكداً من أنه سيموت إذا أصيب بنزيف، والآن يتمنى أن يحدث ذلك. الواقع أنه نصف ميت، لماذا لا يستطيع أن يُضحي بحياته في سبيل إنقاذ حياة مايا؟ إنها تحب الحياة. هربت إلى منزل بارول بمفردها، ولم يرجعها سوى مرضه ليخطفها هؤلاء الوحوش عديموا القلب. اجتاحه إحساس عميق بالذنب، مرة أخرى امتلأت عيناه بالدموع. رفع يده ليمسك بيد كيرونموي، ولكن لا أحد هناك، سورنجان ليس في البيت، ومايا اختفت.. كان يموت من العطش، وحلقه كان محتقناً وجافاً. كيرونموي عانت بسببه. أرادت أبداً أن تصلي بالطريقة التقليدية، ولكنه حذرها من أداء هذه الصلوات في المنزل. كانت مغنية ممتازة، ولكن عندما غنت علناً، شتمها الناس، ووصفوها بأنها هندوسية عديمة الحياء.. وأثرت هذه الشتائم في نفسها فاعتزلت الغناء.. عندما قدمت هذه التضحية الكبيرة هل وقف سودهاموي معها؟ هل أيدها؟ ربما شعر أيضاً أن من الأفضل تجنب هذه الأشياء غير المقبولة اجتماعياً. على مدار اثنين وعشرين عاماً بقي نائماً بجوار كيرونموي.. نائماً بمعنى الكلمة، لأنه لم يكن هناك شيء يتحدثان بشأنه. كان يحمي عفتها، ويساعدها على أن تظل زوجة وفية. ولكن ما ضرورة هذا؟ ألم يكن نوعاً من الخداع؟ كيرونموي لم تكن تميل أبداً إلى الملابس أو الحلي.. لم تقل له أبداً "أريد هذا الساري" أو "اشتري لي هذا الحلق".. سودهاموي كان يسألها:

- كيرونموي هل تخفين عني همومك؟

فكانت تجيبه دائماً:

- لا، كل ما يهمني هو رخاء وسعاذة الأسرة، سعادتي الشخصية لا تهمني.

تمنى سودهاموي دائماً أن يرزق بابنة، قبل أن يولد سورنجان وضع سماعته الطبية على بطن كيرونموي وقال:

- يمكنني أن اسمع دقات قلب بنتٍ يا كيرونموي. هل ترغبين بسماعها؟

وذات مرة قال لها:

- الابنة هي التي ترعى والديها دائماً عندما يكبران.. الأولاد ينتقلون للعيش مع زوجاتهم بعيداً، ولكن البنات.. إنهن يهملن منازل أزواجهن من أجل رعاية والديهن.. هذا حقيقي لأنني رأيت بنفسي البنات وهن يأتين للبقاء مع آبائهن المسنين والمرضى في المستشفى. الأولاد يأتون أيضاً ولكن كزائرين فقط.

طيلة فترة حملها الأول كان يجعل كيرونموي تستمع إلى دقات قلب الجنين الصغير. في العالم كله يتمنى الآباء ذكوراً ولكن سودهاموي تمنى بنتاً.. عندما كان سورنجان صغيراً، كان يلبسه الفساتين ويصحبه معه للتنزه. ثم تحققت أحلامه بمجيء مايا.. اختار لها الاسم بنفسه وقال:

- إنه اسم أمي.. لقد فقدت أماً، ولكنني حصلت على واحدة أخرى..

مايا كانت تعطيه دوائه كل ليلة.. لقد مرّ موعد تناوله للدواء منذ فترة طويلة. نادى "مايا.. مايا". الجيران كانوا نائمين، ولم يسمع أحد عويله المتألم سوى كيرونموي، وسورنجان، والقطة المرقطة.

اليوم الثامن

بعد هدم مسجد بابري في أيودها، بولاية آتار براديش استغرق القتل والدم الذي انتشر على نطاق واسع في الهند فترة حتى يهدأ.

عدد القتلى تجاوز حتى الآن ١٨٠٠ شخص. في بهو بنال وكانبور لا تزال أحداث العنف مستمرة. الجيش نزل إلى الشوارع لحفظ القانون والنظام في ولايات جو جارات، وكارناتا، وكيريلا، واندهرا براديش، واسام وراجاستان، وغرب البنغال. الأحزاب السياسية التي تم حظرها بقيت مجمدة النشاط.

في دكا نظمت الأحزاب كلها مسيرات تلقائية من أجل حفظ السلام والوئام، ولكن كل ذلك كان مظهراً خادعاً. خلف الواجهة القصة كانت مختلفة. في الكثير من المدن جرى اغتصاب عشرات النساء، ومئات المعابد، والمنازل، والمحلات أحرقت ودُمرت، البعض قُتلوا والعشرات جُرحوا.

قصص هذه المذبحة المستمرة في بنجلاديش كان يرويها بيروباكشا، ونايان، وديباباترا الذين جلسوا في مواجهة سورنجان يثرثرون دون أن يبدي أي إشارة تدل على أنه يستمع إليهم. كان يستلقي مغمض العينين ويفكر: لا أحد منكم يعرف أن بيوت الهندوس لم تُنهب فقط في بهولا، وشيتاجونج، وبيرو زيبور وسيلهيت، وكوميلا. هناك أيضاً بيت في تيكاتولي نُهب، وسُرقت منه فتاة جميلة تدعى مايا، النساء في النهاية بضاعة ولهذا يسرقن مثل الذهب والفضة. قال ديباباترا:

- ما الأمر يا سرونجان؟ لماذا لا تقول شيئاً؟

- أريد أن أسكر. ألا يمكن أن نملأ بطوننا اليوم حتى الثمالة؟

- هل تعني ما تقول؟

- نعم، أعنيه. هناك نقود في جيبي. فليذهب أحدكم ويشتري لنا زجاجة ويسكي.

- أتعنى أنك ستشرب في البيت؟ ووالديك؟

- فليذهبا إلى الجحيم، أريد أن اشرب، وسأفعل .بيرو اذهب من فضلك. هاتها من نوع ساكورا، أو بيازي.

- ولكن يا سرونجان- دا!.

- أرجوك، اذهب..

انبعث صوت بكاء كيرونموي من الحجرة المجاورة.. سأل بيروباكشا:

- من التي تبكي؟ ماشيما؟

أجابه سورنجان:

- حين تكون هندوسياً، فليس هناك وسيلة لتجنب الدموع.

حل الصمت على الشباب الثلاثة الموجودين. إنهم هندوس أيضاً، وفهموا سبب بكاء ماشيما لقد مس الحزن قلب كل هندوسي هذه الأيام. أسرع بيروباكشا بالرحيل مع النقود التي أعطاها له سورنجان، كأن الابتعاد سيجنبه عذاب الآخرين الذهني. سورنجان أراد تجنب العذاب أيضاً، ولكنه فضّل طريق الكحول. بعد ذهابه قال سورنجان:

- ديباترا، ألا يمكن أن تحرق مسجداً؟

بدّل ديباترا نظره بين سرونجان ونايان في رعبٍ:

- مسجداً؟ هل جُننت؟

- هناك عشرون مليون هندوسي في هذا البلد. إذا شئنا يمكننا أن نحرق مسجد باتيول مكرم.

- أنت لم تزعم أنك هندوسي أبداً. فلماذا تفعل اليوم؟

- نعم، قلت إنـي إنسـان، وآمنـت بالإنسـانية. لكـن هـؤلاء المسلمين لم يتركوني إنساناً. لقد جعلوني هندوسياً.

- لقد تغيَّرت كثيراً يا سورنجان.

- ليس ذنبي.

- ما الذي سنجنيه بتدمير المساجد؟ هل يعيد لنا معابدنا؟

- حتى لو لم نجن شيئاً، يمكننا على الأقل أن نثبت أننا نستطيع أن ندمر أيضاً. ألا ينبغي أن نبين أننا نستطيع الغضب أيضاً؟ مسجد بابري كان عمره أربعمائة وخمسين عاماً، ولكن بيت شيتانيا ديب كان عمره خمسمائة عام. ألم يدمروا أثراً عمره خمسمائة عام هنا أيضاً؟ أرغب في هدم مسجد سبحان باج. مسجد منطقة جولشان بارت بنته المملكة العربية السعودية. لماذا لا نستطيع نحن أن نبني معبداً؟

- ما الذي تقوله يا سورنجان؟هل جننت؟ألا تذكر أنك كنت تقول أنه لو كان هناك أحواض مياه بدلاً من المساجد والمعابد لقدمت إليها بعض البط.

- كنت أقول أكثر من هذا. كنت أقول اهدموا كل بيوت العبادة إلى الأساس، ولنبن مكانها حدائق ومدارس للأطفال. من أجل خدمة الإنسان فلتتحول دور العبادة إلى مستشفيات وملاجئ للأيتام ومدارس وجامعات. إلى معاهد للعلوم والفنون والحرف اليدوية، إلى حقول أرز خضراء تغمرها الشمس، وأنهار زرقاء متدفقة، وبحار صاخبة. فلتطلقوا اسماً آخر على الدين: وهو الإنسانية.

قال ديبا باترا:

- بالأمس كنت أقرأ مقالاً لديبش روي عن المغني بيد غلام علي. الرجل قام وسط غنائه ورقص على لحن ترتيلة "هاري أم تاتسات" الهندوسية. حتى اليوم يغني بيد غلام هذه الأغنية. ولكن الهندوس الذين هدموا مسجد بابري ووضعوا تمثال راما مكانه لم يسمعوا هذه الأغنية أبداً. رجال الدين لا يستمعون إلى هذه الأغاني، وهي لا تصل أبداً آذان الجماعات المتعصبة. إن أغنيات بيد غلام

علي تتشرب بروح "هاري ام تاتسات". المسلمون الذين يتملكهم الجنون لتدمير دور العبادة الهندوسية انتقاماً لتدمير مسجد بابري يصمون آذانهم عن هذه الأغاني أيضاً. كل ما يفهمونه هو أن تدمير مسجد يؤدي آلياً إلى تدمير معبدٍ.

- تقصد أن تقول أن الاعتداء على أحد المساجد لن يكون انتقاماً حقاً ضد تدمير المعابد؟ أنت مثالي مثل أبي إنني أكرهه. أكره هذا البائس العجوز.

طيلة هذا الوقت كان سورنجان مستلقياً، ولكنه قفز مستثاراً الآن.

- اهدأ يا سورنجان، اهدأ، ما تقترحه ليس حلاً.

- لمعلوماتك هذا هو الحل الوحيد الذي أسعى إليه. أنا أيضاً أريد سواطير وخناجر ومسدسات وقضبان حديدية. ألم يذهبوا ليبولوا على حطام المعبد في دكا القديمة؟أنا أيضاً أريد أن....

- بالله يا سورنجان، لقد أصبحت طائفياً!!.

- نعم أصبحت طائفياً، أصبحت طائفياً.. وماذا في ذلك؟

ديباباترا وسورنجان كانا يعملان معاً في نفس الحزب السياسي، لكن ديباباترا لم يستطع أن يتعرف على زميله القديم. أصابته صدمة شديدة من سلوك سورنجان. يريد أن يسكر، يعلن أنه أصبح طائفياً، ويشتم والده أيضاً. شعر ديباباترا برعب.

* * *

- حوادث العنف والشغب الطائفي ليست مثل الإعصار الذي يمكن أن تنجو منه وتحصل على بعض الطعام لتحيا به مؤقتاً. ولا هي مثل الحرائق التي يمكن أن تُطفأ فتستريح. عندما يندلع العنف يضع البشر إنسانيتهم تحت الاختبار. أسوأ ما في الإنسان يظهر خلال الشغب.حوادث العنف ليست كارثة طبيعية. إنها ببساطة انحراف للاإنسانية.

تنفس سودهاموي بعمق بعد هذا الكلام الذي ألقاه على مسمع من زوجته، التي جلست في الركن صامتة تدعو إلهها. التمثال الصغير لم يعد هناك، فقد تحطم في ذلك اليوم المشؤوم، لكنها عثرت على صورة لرادها وكريشنا في مكان ما . أتت بها بعناية، وأخذت تَمُسُّ جبهتها بها من وقتٍ لآخر. كانت تبكي في صمت بينما، يرقد سودهاموي عاجزاً يتساءل عما إذا كان لدى رادها أو كريشنا القدرة على إعادة مايا.

ما القوة التي تمتلكها صورة لتنقذ مايا من أيد الأصوليين. إنه مواطن في هذا البلد، شارك في الثورة من أجل اللغة، وحارب لطرد الباكستانيين والحصول على الاستقلال، ولكن هذا الوطن لا يمكنه أن يكفل له الحماية. كيف يستطيع رادها أو كريشنا إذن أن يحمياه؟ فكر، منذ طفولته المبكرة كان جيرانه هم الذين يرعبونه، في البداية استولوا على ممتلكاته والآن استولوا على ابنته. عندما يصبح الذين تعرفهم جيداً، الذين يفترض أنك تعتمد عليهم، هم الخطر الذي يتهددك، فكيف يمكن لكريشنا أن ينقذك؟ إذا كان هناك من لديه القوة لإنقاذك، فهو أناسك الذين يقررون أن يتجاوزا اختلافاتهم الطائفية والعقائدية ليصبحوا واحداً. نادى سودهاموي زوجته بصوتٍ واهن. قامت من ركنها ووقفت أمامه صامتة.

- ألم يذهب سورنجان للبحث عن مايا اليوم؟

- لا أعلم.

- اعتقد أن حيدر كلف بعض الرجال بالبحث. هل جاء اليوم؟

- لا.

- هل يعني ذلك أن نفقد الأمل؟ ألن يعثروا على مايا أبداً؟

- لا أعلم.

- هل يمكن أن تجلسي بجواري بعض الوقت يا كيرون؟

جلست كيرونموي بجواره بطريقة آلية. لم تمد يدها إليه، أو تنظر نحوه. الأصوات في الغرفة المجاورة كانت مرتفعة.

قال سودهاموي:

- لماذا يصيح سورنجان هكذا؟ ألم يذهب الى حيدر؟ لو كنت استطيع لذهبت بنفسي. لماذا أصبت بالمرض؟ هل كان يستطيع أحد أن يلمس مايا لو كنت بصحتي؟

كنت سأقتلهم! لو أن جسدي يسمح لي، لعثرت على مايا بأي وسيلة.

حاول سودهاموي أن ينهض، ولكنه سقط مهزوماً. لم تتحرك كيرونموي لتساعده. كانت تحدق بوجوم تجاه الباب المغلق، متى يطرقه أحد؟ متى تعود مايا؟

- لماذا لا تذهبين لتنادي ولدك؟ إنه نذلٌ من الدرجة الأولى! أخته مفقودة ولديه الجسارة على أن يشرب في البيت ويمرح؟ يجب أن يخجل من نفسه.

لم تذهب كيرونموي إلى سورنجان، ولا حاولت أن تهدئ سودهاموي، واصلت التحديق في الباب، ومن وقت لآخر كانت تنظر إلى صورة رادها وكريشنا في ركن الغرفة. في هذه اللحظة لم يكن بمقدور إنسان أن يعزّيها، لو أن الله ينظر إليها نظرة.

تمنى سودهاموي أن تواتيه القدرة على النهوض مرة واحدة. أراد أن يخبر العالم، مثل جوناثان سويفت، إننا جميعا نؤمن بكراهية بعضنا البعض، ولكن قِلّة صغيرة فقط يعرفون كيف يحبون بعضهم البعض. تاريخ الإنسانية ملطخ بالحروب الدينية، والحروب المقدسة. في ١٩٤٦ هتف سودهاموي بشعارات التآخي بين الهندوس والمسلمين. حتى الآن يردّد نفس الشعار لماذا يضطر المرء إلى ترديد مثل هذا الشعار لفترة طويلة هكذا؟ كم قرناً آخر سيتردد هذا الشعار في شبه القارة الهندية؟ ألا زلنا نحتاج إلى تنوير شعوبنا؟. المتعصبون الأغبياء المسؤولون عن تأجيج نار الطائفية. هل أنصتوا يوماً لهذا الشعار؟ إن لم يتعلم البشر كيف يقتلعون الطائفية من عقولهم وقلوبهم فلن ينفع أي شعار.

* * *

ذهب سورنجان إلى حيدر، لم يجده بالبيت، قالوا لـه إنـه ذهب إلى بـهولا لرصد الأضرار التي تعرض لـها الـهندوس، استطاع سورنجان أن يرى بعيني عقله: حيدر يتعاطف مع الضحايا. حيدر يلقي الخطب في أماكن عديدة، ويثني عليه الناس، يثنون على مشاركته الوجدانية، وموقفه اللاطائفي. ومن المؤكد أن حزب "رابطة عوامي" سيحصل على أصوات الـهندوس في الانتخابات! ولكن حيدر، فكر سورنجان بغضب، ليس مهتماً على الإطلاق بمايا التي تسكن بجواره، مع أنه قطع كل هذه المسافة إلى بـهولا ليعبر عن تعاطفه مع آخرين مثل مايا.

فتح سورنجان الزجاجة. صب كأساً ورفعه إلى فمه. أصحابه لم يكونوا راغبين في الشرب، ولكنهم وافقوا ليبقوا معه. على المعدة الخاوية كان للكحول تأثير مدمر.

قال سورنجان:

- أحب التنزه في المساء. مايا كانت ترغب في مصاحبتي دائماً لا بد أن أصحبها يوماً ما إلى شالبو فيهار.

اتجه الحوار إلى الأحداث السياسية مرة أخرى. كان سورنجان يقاطعهم بتدخلاته الساخرة اليائسة. فجأة دخل بولوك الحجرة، نظر حوله وقال:

- كيف تجلس هكذا وبابك مفتوح على مصراعيه؟!

- الباب مفتوح، نحن نصرخ ونشرب.. ليس هناك ما نخشاه. سنموت إذا لزم الأمر! كيف غامرت أنت بالخروج؟

- الحالة هدأت بشكل واضح.. ولهذا خرجت.

انفجر سورنجان بالضحك وهو يقول:

- وسوف تحبس نفسك مرة أخرى إذا تراجع الموقف، صح؟

صُدم بولوك. لقد استجمع شجاعته، وركب دراجته البخارية عبر شوارع المدينة متوتراً، وجاء إلى سورنجان الذي كان يتحرك

هنا وهناك ليجده قابعاً لا يفعل أكثر من شرب الخمر! إنه لا يصدق عينيه. ماذا حدث لصديقه؟

احتسى سورنجان جرعة من كأسه وواصل حديثاً كان قد انقطع بمجيء بولوك:

- غلام عزام، غلام عزام.. ما علاقتي بهذا؟ ما الذي سأجنيه إذا عوقب غلام عزام؟ لماذا أحاربه؟ ومايا..مايا يصيبها القرف من سماع اسمه، وتشعر برغبة في التقيؤ. هل تعرفون أن اثنين من أعمامي، وثلاثة من أخوالي قتلوا على يد الباكستانيين خلال حرب الاستقلال. لا زلت لا أفهم لماذا أبقوا على حياة أبي. ربما أرادوا له أن يستمتع بثمار الاستقلال. هل هو يستمتع الآن؟ هل الدكتور سودهاموي دوتا يرفل في نعيم الاستقلال مع زوجته وابنه وابنته؟

كان سورنجان جالساً على الأرض يمد ساقيه. جلس بولوك بجواره. الحجرة ممتلئة بالتراب. الكتب والأوراق مبعثرة في أنحاء المكان. قطع الأثاث المكسور مبعثرة هنا وهناك. أعقاب السجائر والرماد زادت من الفوضى. اعتقد بولوك أن سورنجان حطم الأثاث في سورة غضب. عندما لا يتحدث أحد منهم يصبح المنزل صامتاً كأنهم في صحراء. قال بولوك:

- إكرام حسين زار بهولا.. وفقاً لكلامه، فإن رجال الشرطة، والحزب الوطني هناك يواصلون القول بأن الأحداث رد فعل طبيعي لتدمير مسجد بابري. النهب والمذابح كانوا رد فعل تلقائي. في عمليات اقتلاع الهندوس من جذورهم. أحرقت قرية وراء الأخرى حتى الرماد. الهواء كان يمتلئ برائحة الحريق. كانوا يجمعون كل شيء في البيوت ويسكبون عليه الكيروسين ويشعلون النيران. حقول الأرز وبساتين الجوز أحرقت. جردوا الأطفال من ملابسهم، وخطفوا النساء والفتيات.

واصل بولوك الحديث دون انقطاع، وفجأة صاح فيه سورنجان:

- اغلق فمك.. إذا قلت كلمة واحدة أخرى سأضربك.

صُعق بولوك حتى أنه توقف في منتصف جملته، لماذا يتصرف سورنجان هكذا؟ هل شرب أكثر من اللازم؟ ربما، ابتسم بجفاف لديباباترا.

مر وقت طويل دون أن ينطق أحدهم بكلمة، واصل سورنجان الشرب. لم يكن معتاداً على الكحول. بين حين وآخر كان يشرب في المناسبات الاجتماعية بكميات قليلة. لكنه الآن يشرب بانتقام. هدوء غير طبيعي نزل على الغرفة منذ أن سكت بولوك. في وسط هذا الصمت فوجئ الجميع بانفجار سورنجان بالبكاء. وضع رأسه على كتف بولوك واستغرق في البكاء حتى سقط رأسه على الأرض. تملكهم الخوف لقد أصبح الأمر أكبر مما يحتمل.

الحجرة المعتمة امتلأت برائحة الكحول، وترددت بصدى نحيب سورنجان المعذب. لم يكن قد غَيَّر ملابسه أو استحم، وازدادت ملابسه اتساخاً. في النهاية أجهش قائلا:

- لقد خطفوا مايا ليلة أمس.

- ماذا تقول؟

نظر إليه بولوك برعب وكذلك ديباباترا ونايانوبيروباكشا، استمر جسد سورنجان في الاهتزاز بالبكاء. أطاح بالأكواب نصف الممتلئة بالويسكي، ازداد اتساخ الأرض، لكن أحداً لم يهتم. تملكهم الشحوب أمام الخبر. من شدة الذهول لم يجد أحدٌ منهم شيئاً يقوله. أي كلمات تعزيه تصلح في مثل هذا الموقف؟ في هذه اللحظة دخل بلال الغرفة تطلع حوله بسرعة ورأى سورنجان راقداً على الأرض توجه نحوه وسأل:

- سورنجان هل خطفوا مايا فعلاً؟

لم يرفع سورنجان رأسه

- هل حررت بلاغاً في قسم الشرطة؟

لم يجب سورنجان. نظر بلال إلى الآخرين في انتظار إجابة. لكن لم يكن لديهم أي شيء يقال.

- هل حاولت أن تعرف من الذي اختطفها؟

واصل سورنجان الصمت. جلس بلال على السرير وأشعل سيجارة، وقال:

- لا أعلم ما الذي يدور حولنا. اللصوص والمجرمون لديهم عيد الآن. وفي نفس الوقت يواصلون قتلنا في الهند.

سأله بيروباكشا:

- ما الذي تعنيه بـ"نحن"؟

- المسلمون. اتباع حزب بهاراتيا جاناتا يمزقوننا.

- آه، فهمت.

- عندما تصل مثل هذه الأخبار من الهند، طبيعي أن يفقد هؤلاء الناس عقولهم. من يستطيع لومهم؟ إننا نموت هناك، وأنتم هنا. ما الغاية من هدم هذا المسجد العتيق؟. الهنود دمروه ليبحثوا عن مكان مولد راما، وهو شخصية أسطورية! بعد أيام ربما يقولون إن هانومان ولد في تاج محل! والمفروض أنهم يطبقون العلمانية في الهند! لماذا اختطفت مايا؟ الأبطال الذين يسألون عن ذلك هم أمثال أدفاني وجوشي. اعتقد أن الموقف خطير جداً في كالكتا.

بقي سورنجان دون حراك مثل جثة لم يعلن موتها بعد، من الغرفة الأخرى وصل نحيب كيرونموي المتواصل وتأوهات سودهاموي المبهمة.

- أنا متأكد أن مايا ستعود. إنهم لا ينوون أكلها بالتأكيد، اطلب من كاكيما أن تصبر. ولماذا تبكي أنت هكذا مثل النساء؟ هل الدموع ستحل مشكلتك؟ لماذا تجلسون كلكم هكذا؟ ألا تذهبون لمعرفة ما الذي حدث للبنت؟

قال بيروباكشا:

- لم نعرف بما حدث سوى الآن. ثم منذ متى أصبح من الممكن أن يذهب المرء ببساطة ويستعيد شخصاً مخطوفاً؟ وأين يجب أن نبحث؟

- أنا متأكد أنهم مدمنو مخدرات. لا بد أنهم من صبيان الحي. لاحظوا وجود فتاة جميلة وواتتهم فرصة. فخطفوها. الناس الطيبون لا يفعلون هذه الأشياء. الصغار اليوم انحدروا إلى الحضيض. والسبب الأساسي هو عدم الاستقرار الاقتصادي. هل تفهمني؟

جلس بيروباكشبا منكس الرأس. لا أحد منهم كان يعرف بلال. أخرج سيجارة وولاعة. لم يشعلها وواصل الكلام.

- هل سيحل الخمر مشكلتك؟ قل لي، هل سيحلها؟ هل عرف هذا البلد حوادث الشغب في حياته؟ أنت لا تستطيع حقاً أن تسمي هذا شغباً. الأطفال يشتاقون لأكل الحلوى. ومن الطبيعي أن يهاجموا محلات الحلوى. في الهند، حتى الآن، حدث ما لا يقل عن ألف حادث شغب. آلاف المسلمين قُتلوا. قل لي، كم عدد الهندوس الذين ماتوا هنا؟ في كل منطقة يسكنها الهندوس ترابط سيارات الشرطة لأجل حفظ السلام.

لم يتكلم أحدٌ. ولا حتى سورنجان رغب في أن ينطق بكلمة على الإطلاق.

الخمر بدأ يؤدي مفعوله حيث شعر بالنعاس الشديد. لم يشعل بلال سيجارته. قال إن لديه عملاً ما ورحل. واحدٌ تلو الآخر رحل الباقون أيضاً.

اليوم التاسع

اعتدوا على منزل جوبال المجاور لبيتهم ونهبوه. جاءت أخت جوبال الصغيرة التي تبلغ حوالي الثانية عشرة لزيارتهم. حكت لهم عن تفاصيل الأضرار التي لحقت ببيتهم

سورنجان، الذي كان لا يزال راقداً على الأرض، راقبها وهي تتنقل هنا وهناك مثل قطة صغيرة.

بالرغم من عمرها كان هول الكارثة مطبوعاً على وجهها، جاءت إلى غرفة سورنجان، وقفت عند الباب وحدقت بعيون مفتوحة إلى الحطام في الداخل. نظر سورنجان إلى الشرفة المفروشة بالشمس وأدرك أن الوقت تأخر، استدعى الطفلة وسألها عن اسمها:

- مادول.

- إلى اي مدرسة تذهبين؟

- شير بانجلا باليكا بيديا لالا.

اسم المدرسة كان قبل ذلك مانديرناري شيكشا، وقد أسستها ليلا ناج، ولكن أين اسم ليلا ناج اليوم؟ كانت رائدة في مجال التعليم، في وقت لم يكن يُسمح فيه للبنات بالتعليم. كانت تذهب من بيت إلى آخر لتشجيع النساء على الدراسة. في مدينة دكا قاتلت من أجل إنشاء مدرسة للنساء. المدرسة لا تزال موجودة ولكن اسمها تغير، لأنه كيف يمكن أن يُسمح لاسم ليلا ناج بالوجود؟ اسم مانديرناري شيكشا أصبح أيضاً علامة على شيء ديني لا يشجعه الوقت الحاضر. ولذلك تغير الاسم كما حدث لكلية ب.م، وكلية م.ش. باختصار السبب هو التأكيد على إن الهندوس ليس لديهم أي مكان تحت الشمس في بلد مسلم. في ١٩٧١ ساد اتجاه بتغيير اسماء

الطرق في دكا. الباكستانيون قاموا بأسلمة اسماء أكثر من ٢٤٠ طريقاً. سألت الطفلة الصغيرة:

- لماذا تجلس على الأرض؟

- لأنني أحب ذلك.

- أنا أيضاً، كان لدينا فناء في منزلنا، سوف ننتقل الآن إلى منزل جديد ليس له فناء.

- إذن لن تستطيعي أن تلعبي.

جاءت البنت وجلست بجوار سورنجان واستندت بمرفقيها على السرير. كانت تستمتع بالمحادثة معه، وهو بدوره تخيل أنها طفلة اسمها مايا، أخته التي ضاعت منذ زمن طويل، والتي كان يقضي معها الساعات يتحدثان عن المدرسة ولعب الكرة، وأشياء أخرى عديدة.. آه كم مرَّ من زمنٍ منذ أن كان يجلس ويثرثر مع مايا! في طفولتهما كانا يصنعان أكواخاً من الطين على ضفاف النهر، وفي الليل كان الموج يأتي ويغسل أكواخهما. ذكريات أخرى انسابت. تذكر كيف كانا يحبان الحلوى التي تلون لسانيهما باللون الأحمر.. أو عندما هربا من البيت ليلعبا بين حقول القصب. مَدَّ سورنجان يده ليلمس البنت.. يداها ناعمة مثل يدي مايا.. من الذين يمسكون بيدي مايا الآن؟ لا بد أنها أيدي خشنة، ووقحة، وقاسية. هل يئست مايا من الهرب؟ ولكن ربما تحاول ولا تستطيع التخلص من قبضتهم. ارتجف جسد سورنجان بالألم من التفكير في هذا. لم يترك يد مادول.. إنها تشبه يد مايا كثيراً. إذا تركها قد يأتي أحدهم ويخطفها أيضاً. وربما يقيدونها بالحبال القوية.. فجأة قالت مادول.

- لماذا ترتعش يداك؟

- هل ترتعشان؟ الحقيقة إنني حزين جداً لأنك سترحلين.

- ولكننا لسنا ذاهبين إلى الهند.. إننا ذاهبون إلى ميربور فحسب. سوبول وأسرتها راحلون إلى الهند.

- ماذا فعلت عندما اقتحموا منزلكم؟

- وقفت في الشرفة أبكي. كنت خائفة، أخذوا التليفزيون وكل المجوهرات، وأموال أبي أيضاً.

- هل قالوا لك أي شيء؟

- قبل أن يرحلوا صفعوني بقوة على خدي، وقالوا لي "اخرسي، وكفي عن البكاء".

- هذا كل شيء؟ ألم يحاولوا أخذك معهم؟

- لا . لابد أنهم ضربوا مايا- دي أيضاً. أليس كذلك؟ لقد ضربوا أخي على رأسه ونزف كثيراً.

فكر سورنجان: لو أن مايا كانت في عمر مادول لتركوها. ولما أخذوها معهم. كم عدد الذين اغتصبوها يا ترى؟ خمسة؟ سبعة؟ أم أكثر؟ هل نزفت كثيرا؟

- ماما طلبت مني أن أزور ماشيما لأنها تبكي كثيراً.

- هل تخرجين معي في نزهة يا مادول؟

- ماما ستقلق عليّ.

- سوف أخبر ماما قبل أن نذهب.

كانت مايا تقول له "دادا، هل تأخذني إلى سوق كوكس؟ يمكننا أن نذهب إلى غابة مادهوبور. أو ما رأيك في الذهاب إلى ساندار بانس؟ أحب أن أذهب إلى هناك أيضاً". وتذكر عندما كانت تقرأ أشعار جيبانا ندا فترغب في الذهاب إلى ناتور. كان سورنجان يصدها ويتهكم عليها دائماً: "اذهبي إلى عشش تيججا لتري كيف يعيش الناس هناك. سيكون لهذا قيمة أكثر من تأمل الأشجار والنباتات". وكان حماس مايا يفتر على الفور. اليوم يتساءل سورنجان عن الذي جنياه من النظر إلى "الحياة".

ما فائدة أن يتمنى المرء الخير لكل الناس؟ حركات العمال والفلاحين، ثورة البروليتاريا، تقدم الاشتراكية.. كل هذه الأفكار المثالية التي تبناها منذ طفولته.. ولكن ما فائدتها على الإطلاق؟ لقد

سقطت الاشتراكية، وهوى تمثال لينين إلى الأرض، أليس منتهى السخرية أن يُساء إلى روح الإنسانية في وطن أكبر زعمائها؟

قامت مادول ببطء. سحبت يديها الناعمتين، اللتين تشبهان يدي مايا، من قبضة سورنجان. حيدر لم يأت اليوم أيضاً. لا بد أنه غير مهتم، بالرغم من أن لديه عذره في عدم الرغبة بالتورط. الآن بدأ سورنجان يدرك أنه ليس هناك فائدة من البحث عن مايا حتى لو عادت، هل ستعود مثل مايا ذات الستة أعوام، التي عادت منذ سنوات بعيدة؟ شعر سورنجان بالفقدان والأسى. عندما ذهبت مايا للبقاء عند بارول كان المنزل صامتاً وهادئاً، ولكن ليس هكذا. لم يكن بهذا البرود والموت. عرف ثلاثتهم أن مايا لن تعود. تحول الصمت الآن إلى صمت القبور. كأن شخصاً منهم قد مات حقاً. نظر إلى زجاجات الويسكي المبعثرة، والأكواب الفارغة الملقاة هنا وهناك. امتلأ قلبه الموحش بالدموع. هذه الدموع التي يجب أن تكون في عينيه، كانت تملأ قلبه.

هذه المرة لم يكلف كمال ورابيول نفسيهما بالسؤال عنه. استغرق في التفكير في مواقف أصدقائه المسلمين.. وجد على مائدته قطعتين من البسكويت وثمرة موز، لا بد أن كيرونموي تركتها له. بدلاً من الطعام شعر برغبة في شرب ما تبقي من الويسكي. الليلة الماضية كانت باردة.. أثناء رقاده زارته مايا لتشعره بمزيد من الخسة والذنب. عندما يفتح عينيه يراها تبتسم، وعندما يغلقهما كان كل ما يراه هو مجموعة من الكلاب المفترسة.

واضح أن حيدر لم يواصل البحث لأنه عرف أن الإرهابيين في المنطقة يعرفون أن سورنجان ذهب ليطلب مساعدته. لو لم يكن قد فعل هذا لاستطاع سورنجان أن يذهب للبحث بنفسه. ردد لنفسه بسخرية أن ذلك قد زاد الأمر سوءاً، حتى أن المجرمين لم يعودوا مضطرين إلى التستر على نشاطاتهم. ولم يعودوا مضطرين إلى البحث عن أزقة يغتصبون فيها نساء الهندوس. ربما يغتصبون النساء علناً الآن، كما يسرقون ويحرقون . وهذا بفضل الدعم غير المباشر من الحكومة. إنها ليست حكومة علمانية. الحقيقة إنهم

يناصرون مصالح الأصوليين. الشيخة حسينة قالت إنه لابد من الحفاظ على الوئام الطائفي من أجل حماية ١٤٠ مليون مسلم في الهند.لماذا تفكر الشيخة حسينة في سلامة مسلمي الهند؟ كمواطنين في هذا البلد، أليس من حق الهندوس أن يعيشوا في وئام طائفي؟ لماذا يحرصون على إظهار المزيد من التعاطف تجاه حياة وممتلكات المسلمين في الهند أكثر مما يفعلون تجاه مواطنيهم؟ ألا يؤكد هذا أن حزب "رابطة عوامي" يطعم الشعب نفس الطعام الذي تطعمه لهم الجماعات . بكلمات أخرى ألا يطعمهم العداء للهند والولاء للإسلام؟

فكر سورنجان: الحكومة مخطئة تماماً. مصالح المسلمين في الهند ليست هي المهمة، ولكن السبب الأساسي والمنطقي لحفظ السلام والوئام هنا هو حماية الحقوق التي يكفلها الدستور. هندوس هذا البلد لديهم الحق، كمواطنين أحرار، على حماية حياتهم وممتلكاتهم، وكذلك أفكارهم ومعتقداتهم. ليس بدافع التعاطف مع دين شخص آخر، أو حزب شخص آخر، أو بدافع الشفقة الشخصية يجب أن يسمح للهندوس بالعيش في هذا البلد. ولكن لأن قوانين إدارة هذه الأمة تعطيهم الحق في العيش مثل أي مواطنين آخرين. لماذا إذن يبحث سورنجان عن التعاطف أو الحماية لدى كمال أو بلال أو حيدر؟

في ميرساري بولاية شيتاجونج أحرق منزل رئيس اتحاد الطلبة كمال بهوميك، وماتت عمته من جراء ذلك. في منطقة يعيش بها الهندوس في كوتا بيدا مات ثلاثة أطفال عندما أشعل المجرمون النار في المكان. في شاتكانيانا تبارا مات سورجو موهون متأثراً بحروقه، عندما سُئل باشوديب أحد سكان ميرساري عن الذين قاموا بالاعتداءات أجاب قائلاً:

- الذين يقتلون في الليل هم أنفسهم الذين يأتون في الصباح ليتعاطفوا بشدة مع الذين حلت بهم الكوارث.

عندما سُئل جاترا مهوناث من منطقة خاجوريا نفس السؤال قال:

- أفضل أن تقتلني على أن أتكلم.

خلال ستة أيام من الأحداث شكلت الأحزاب غير الطائفية، وأحزاب الاندماج القومي، واتحاد لجان الثقافات لجنة مشتركة للوحدة الوطنية. حتى الآن نجحت اللجنة في تنظيم مسيرة سلام واحدة، وتجمُع جماهيري واحد. ساد شعور عام بضرورة حظر أفكار "جماعة شيير" السياسة، ولكن إلى الآن لم يظهر مدى الإصرار الذي تبديه لجنة السلام والوئام الطائفي على هذا المطلب. على أية حال، عرف سورنجان، أنه لو فشلت الحكومة في منع أفكار الجماعة، واعترضت اللجنة على هذا فإن المسؤولين عن البلد لن يبالوا باعتراضهم. بعض أعضاء اللجنة تحدثوا عن معاقبة الذين نهبوا وأحرقوا بيوت ومعابد الهندوس. ولكن واحداً من ضحايا النهب قال:

- أعرف الذين ارتكبوا هذه الأعمال .. ولكني لا اعتقد أن من الحكمة مقاضاتهم،لأن الأحزاب التي فشلت في حمايتنا، عندما اعتُدي علينا، لن توفر لنا أية حماية بعد رفع الدعوى.

في الواقع هذا هو المتوقع من كل ضحية أن تفعله إذا واجهت احتمال القيام بإجراء قانوني. شعر سورنجان بأن الدعوة إلى المقاضاة حركة سياسية واضحة. الديمقراطية ليست قوية بشكل يكفي لوقف انتشار الطائفية. من ناحية أخرى الجماعات الطائفية لديها الكثير من القوة، وتعمل على تحقيق أهدافها بإيمان كبير. أي إحساس بالرضى ستحظى به الأحزاب السياسية الجمهورية من تأسيس لجنة كل الأحزاب هذه؟ كثير من المثقفين يعتقدون أن أحداث العنف الطائفي في بنجلاديش أقل بكثير من مثيلتها في الهند وباكستان. مالا يدركوه هو أن الأمر في بنجلاديش من جانب واحد فقط. في الهند يثأر المسلمون لأنفسهم، ولكن في بنجلاديش لا يستطيع الهندوس ذلك.في هذه البلاد الثلاثة الكبرى في شبه القارة، تؤيد الحكومات شرور الطائفية والأصولية بشكل غير مباشر من أجل مصالحها السياسية. الأصوليين يحاولون الحصول على السلطة في كل أنحاء العالم. في الهند، وباكستان، وطاجكستان

وأفغانستان، والمغرب، ومصر، وإيران وصربيا. هدفهم الوحيد هو بتر روح الديمقراطية.

في ألمانيا تم حظر اثنين من الأحزاب الفاشية لأنهم أحرقوا ثلاث نساء تركيات، في الهند حظر نشاط الأصوليين أيضاً، ولكن السؤال الذي لا يزال قائماً هو إلى متى سيستمر حفظ النظام بالقوة؟ في الجزائر حُظرت هذه الجماعات، أيضاً الحكومة المصرية وجهت ضربة قوية إليها، بينما في طاجكستان يتحارب الأصوليون والشيوعيون، ولكن هل فكرت حكومة بنجلادش أبداً في قمع الجماعات الأصولية والفاشية؟

فكر سورنجان بأسى شديد، إنه في هذا البلد على الأقل، لن تتحرر السياسة أبداً أبداً من أغلال الدين.

في اجتماع الحزب الثقافي المشترك رفعوا شعاراً يقول: "بنجلادش ستوقف أحداث العنف الطائفي". كم هم عميقو التفكير هؤلاء البنجلادشيون! فكر سورنجان وهو يدخن سيجارة: "أوغاد ملاعين، خنازير ملاعين هذه هي بنجلادش بالنسبة لي". أعاد الجملة مراراً وتكراراً شاعراً بسعادة بالغة من ترديدها. عندئذٍ ضحك بصوتٍ عالٍ، ضحكات خشنة وممرورة.

* * *

وقفت مادول أمام كيرونموي وقالت:

- ماشيما، سوف نرحل إلى ميربور. هؤلاء الوحوش لن يستطيعوا الوصول إلى هناك.

- ولم لا؟

- لان ميربور بعيدة جداً..

بالنسبة لهذه الطفلة المجرمون يوجدون هنا في تيكاتولي فقط. بما أن ميربور بعيدة عن تيكاتولي فسوف تكون آمنة من عدوانهم. ولكن كيرونموي تساءلت: هل الأمر بهذه البساطة؟ لو أن هؤلاء الذي ينهبون ويحرقون وحوش لما توقفوا ليميزوا بين الهندوس

والمسلمين، أليس كذلك؟ إنهم يختارون ضحاياهم عن وعي. إنهم يعتدون باسم الدين، ولذلك فان كلمات وحوش ومجرمين ولصوص عمومية أكثر من اللازم.

كان سودهاموي راقداً. لم يكن هناك ما يستطيع عمله سوى الرقاد. ما فائدة أن يعيش هذه الحياة المشلولة؟ إنه مجرد شيء مزعج لا ضرورة له لكيرونموي.

إن قدرة كيرونموي على الصبر والاحتمال لا تُصدق. لم يبد عليها التعب أبداً. طيلة الليل تبكي بحرقة، وبمجرد طلوع النهار تذهب للعمل في المطبخ، سواء رغبت في ذلك أم لا فإن احتياجات المعدة تنتصر دائماً على ما سواها. حياتهم تزداد سوءاً. سورنجان لا يأكل تقريبا، ولا يستحم، وكيرونموي كذلك وإن كان بدرجة أقل. سودهاموي لا يرغب في الأكل أيضاً. والأسوأ أن مايا لم تعد إلى الآن. هل ذهبت إلى الأبد؟ لو يستطيع أن يضحي بحياته وتعود مايا فحسب! لنفترض أنه وقف في الطريق العام وصاح: "يجب أن تعود مايا، من حقي أن آمر بعودتها صح؟" الكلمة ليس لها معنى الآن. تذكر عام ١٩٤٦، كان شاباً وبعد أن أكل الحلوى في أحد المحال طلب من البائع قليلاً من الماء. استخدم كلمة "باني" التي يطلقها المسلمون على الماء، وليس كلمة "جال" التي كان يستخدمها عادة، لأنه في ذلك الوقت كان العداء بين الهندوس والمسلمين شديداً.

البريطانيون فهموا جيداً أنه لو أرادوا إطالة بقائهم في شبه القارة فلا بد أن يؤججوا نيران المشاعر الطائفية بين الهندوس والمسلمين. من هذا التفكير الماكر وُلدت سياسة فرق تسد. في عقله تابع سودهاموي استمرار هذه المشاعر السيئة بعد جلاء الانجليز، ثم بعد تقسيم الهند، ثم بعد انفصال بنجلاديش.

العلمانية التي نص عليها الدستور بعد استقلال ١٩٧٢ تمَّ سحبها خلال السنوات التالية.

المادة /١٢/ من الدستور تغيرت تماماً عام ١٩٧٨، هذه المادة كانت تقول تحت عنوان "العلمانية وحرية العقيدة":

١٢) مبدأ العلمانية يجب تحقيقه عن طريق التخلص من:

أ - الطائفية بكل أشكالها.

ب- الانحياز التشريعي لأي دينٍ من الأديان.

ج- استغلال الدين لأغراض سياسية.

د - أي تمييز أو اضطهاد ضد أشخاص يمارسون ديناً معيناً من الأديان.

كلمة "علمانية" ألغيت وتقول المادة ٢٥ فقرة (٢) الآن: "تعمل الدولة على تضامن وحماية وتقوية العلاقة الأخوية بين الدول الإسلامية بناءً على التضامن الإسلامي".

في دستور ١٩٧٢ تقول المادة /٦/:

"مواطنة بنجلاديش يحددها وينظمها القانون، ويُعرف مواطني بنجلاديش باسم البنغال".

ضياء الرحمن غيَّر هذا إلى "ويعرف مواطني بنجلاديش باسم البنجلاديشيين".

رأى سودهاموي ظلاماً حوله. الوقت لا يزال بعد الظهر فلماذا تُظلم الآن؟ هل تخونه عيناه؟ أم عدسات النظارة التي لم تتغير منذ فترةٍ طويلةٍ؟ ربما يكون السبب هو نمو مرض الكارتاراكت. أم بسبب الدموع التي تلمع في عينيه؟

حتى سورنجان تغيَّر، لم يأت للجلوس بجواره مرةً واحدةً، منذ أن أخذوا مايا لم يخط داخل هذه الغرفة. كان بإمكان سودهاموي أن يسمع ما يدور في غرفة ابنه. المناقشات العالية التي صَحُبت شُرب الخمر، هل فقد الولد أخلاقه؟ لم يشرب سورنجان في البيت من قبل أبداً. ربما لم يعد يبالي بأحدٍ، هل نسي مايا في يومين؟

لم يستطع سودهاموي أن يُصدق ذلك،تبدُّل ابنه أضاف عبئاً ثقيلاً فوق العبء الذي يحمله بالفعل. هل انحدر سورنجان إلى الحضيض؟

* * *

نوى سورنجان عدم مغادرة البيت. أدرك أن من غير المجدي أن يبحث عن مايا، الأفضل أن يبقى في البيت، ويتجنب مقابلة الناس في الشوارع، لأنهم قد يواجهونه بشتائم فاحشة مثل: "ها هو واحد من الأوغاد المسؤولين عن هدم مسجد بابري! يجب طرد هؤلاء اللوطيين إلى الهند!" .كان سورنجان مريضاً ومجهداً من سماع هذه الأشياء. لم يعد لديه أي ثقة بالحزب الاشتراكي، أو أي زعيم شيوعي. لقد سمع الكثير من قادة اليسار يَشتمون عندما يأتي ذِكر الهندوس: "هؤلاء الخنازير الملاعين".

حتى هندوس الحزب الشيوعي كانوا ينحنون للمناخ الحالي. كرشنا بينود روي أصبح اسمه كبير بهاي، وبارين دوتا غيَّر اسمه إلى عبد السلام. إذا حدث هذا حتى في الحزب الشيوعي، ففي من يثق المرء؟ أم يجب أن ينضم إلى حزب الجماعة الإسلامية؟ يذهب إلى نظيم مباشرة ويقول: " السلام عليكم!" وفي اليوم التالي تصرخ الجرائد اليومية بمانشيتات تقول: "هندوسي ينضم إلى الجماعة الإسلامية".

حتى في قاعة جاجاناث، التي كانت مقراً مقصوراً على الأولاد الهندوس يمكن أن تجد صوتاً للجماعة الإسلامية. والسبب هو المال. إذا أعطي المرء خمسة آلاف تاكا شهرياً فلماذا لا يعطي صوته للجماعة الإسلامية. تمنى سورنجان لو يثأر من الجماعات اليسارية التي سرقت آماله بدلاً من أن تحققها. في الحقيقة أعضاء هذه الأحزاب استقالوا واحداً تلو الآخر وانضموا إلى الأحزاب الأخرى. إنهم يقولون شيئاً اليوم، ويعزفون لحناً مختلفاً تماماً في اليوم التالي.

واصل سورنجان تأملاته في مواقف الأحزاب اليسارية المهزوزة. في الوقت الذي انتشرت فيه المدارس الدينية في كل أنحاء البلد. أصبحت وزارة الشؤون الدينية تنفق ملايينها على المساجد والمعاهد الدينية الإسلامية، بينما لا يُخصص للديانات الأخرى سوى الملاليم. فكر سورنجان: ألا نبالي أبداً بمستوى معيشة الناس؟ بديوننا الخارجية؟ كيف ننفق هذه الملايين على الشؤون الإسلامية بينما الاقتصاد معاق تماما؟

هذا التوزيع غير العادل للميزانية هو السبب في أن الوحدة الوطنية لن تكون لها فرصة على الإطلاق. هل يفكر أي أحد في هذا؟ كان سورنجان يتساءل عندما فتح الباب ودخل كاجال ديبناث.

- ما الأمر يا سورنجان؟ لماذا تنام في هذه الساعة؟

- ليس لديَّ ساعات محددة لأي شيء؟

تحرك سورنجان ليخلي مكاناً بجواره لكاجال.

- هل عادت مايا؟

أجاب سورنجان بتنهيدة طويلة:

- لا.

- ماذا تقترح أن نفعل، اعتقد أنه يجب أن نفعل شيئاً.

- ماذا نفعل؟

تعدى كاجال ديبناث سن الأربعين، شعره رمادي. جبهته تغضنت بالعبوس وهو يخرج علبة سجائره ويقدم سيجارة لسورنجان. مد سورنجان يده وأخذ السيجارة. مرّ وقت طويل لم يشتر فيه سجائر. لم يكن معه نقود، ولم يجرؤ على أن يطلب من كيرونموي. كان خجلاً حتى من الذهاب إلى حجرتهما، كما لو أن عار خطف مايا يقع عليه بالكامل، ربما كان ذلك صحيحاً، لأنه قبل كل شيء هو أكثر من أي شخص، الذي أراد أن يعتقد أن هذا البلد غير طائفي، بالطبع كان خجله أكثر من أي شخص آخر. أم لم يستطع أن يذهب ويُظهر وجهه لأبيه الشريف المثالي. دخن سيجارته على معدة خاوية. لو رأته مايا لاعترضت قائلة: "دادا، أنت تؤذي نفسك تماماً! إذا دخنت على معدة خاوية سوف تموت بالسرطان. ألا تعرف ذلك؟" لو أنه يمرض بالسرطان، لن يكون الأمر سيئاً. يستطيع عندئذٍ أن يرقد في انتظار الموت. على الأقل لن يضطر إلى انتظار تحقق أية آمال. لم يكن كاجال ديبناث يعلم ماذا يفعل، ولهذا قال:

- اليوم أخذوا أختك، غداً سوف يأخذون ابنتي، سيفعلون ذلك بالطبع، اليوم ضربوا جوتام على رأسه، غداً قد يكون أنت أو أنا.. هل أتوا إلى هذه الغرفة أيضاً.

- نعم.

- ماذا كانت تفعل مايا في ذلك الوقت؟

- يقولون إنها كانت تطبخ الأرز لإطعام أبي.

- ألم يستطيعوا ضرب هؤلاء الأوغاد؟

- كيف يمكنهم ذلك؟ كانوا يحملون قضباناً حديدية. في كل الأحوال، ليس من حق الهندوس أن يلمسوا المسلمين، أليس كذلك؟ في الهند الأقلية المسلمة لها حق الثأر، عندما تصطدم مجموعتان متعارضتان هنا فقط يمكن أن نسمي ذلك أحداث عنف. ما يحدث هنا ليس أقل من إرهاب طائفي، أو حتى تعذيب وقمع واضطهاد، جماعة تعتدي عشوائياً على جماعة أخرى.

- ألا تعتقد أن مايا ستعود؟

- لا أعلم.

في كل مرة يتحدث فيها سورنجان عن مايا يشعر بصوته يختنق، وبخواء في قلبه.

قال ليُغيِّر مجرى الحديث:

- كاجال دا، ما الذي يمكن أن يحدث في هذا البلد أكثر من ذلك؟

نظر كاجال إلى السقف، نفخ دخان سيجارته وقال:

- ٢٨ ألف منزل، ٢٧٠٠ محل تجاري، ٣٦٠٠ معبد، وموت ١٢ شخصاً، الأضرار تقدر بملياري تاكا! قرية وراء الأخرى دمرت، ٤٣ منطقة تضررت، ٢٦٠٠ امرأة اعتُدي عليهن.. من المعابد التي لا يرجى إصلاحها جورانجامها برابهو الذي يبلغ عمره ٥٠٠ سنة. في جنوب سيلهيت دُمر معبد عتيق عمره مئات السنين..

سأل سورنجان:

- هل عرضت الحكومة أي مساعدة؟

- لا، والأكثر من هذا أنها لم تسمح للمنظمات الإنسانية بالمساعدة، الآلاف والآلاف مشردون يعيشون في العراء دون طعام أو ملابس. البنات اللواتي تعرضن للاغتصاب إما أصبن بصدمة فقدن معها القدرة على الكلام وإما لا يوجد لهن أثر، رجال الأعمال فقدوا كل شيء. إجمالي الخسائر مليار و ٧٠ ألف تاكا، إذا أضفت المحلات التجارية يزيد المبلغ ٢٢٠ مليون تاكا أخرى.

- أوه، لا يمكنني احتمال المزيد.

- هل تعرف، لقد أصبحت فكرة الخروج الجماعي من هذه البلد هي الحل الوحيد، والأسوأ من ذلك أنه لم يعد يمكن تجنبه. الحكومة تردد دائماً أن الهندوس لا يغادرون البلد، ولكن هذا غير صحيح. ربما قرأت عن ذلك في مجلة "ديش" التي تصدر في كالكتا. على الأقل ١٥٠ ألف بنجلاديشي عبروا الحدود الهندية، ومعظمهم لم يعد. في العقدين الأخيرين أكثرمن نصف مليون شخص من الأقليات أجبروا على مغادرة البلد.

استمر الحديث حول هجرة الهندوس، خرج كاجال إلى الشرفة ليهدىء مشاعره المستثارة ثم عاد إلى الحجرة وقال:

- أرغب في كوب من الشاي. هيا لنذهب إلى أحد محلات الشاي.

ملابس سورنجان كانت متسخة لأنه لم يغيِّرها، ولم يستحم منذ أيام، كماانه لم يتناول وجبة جيدة منذ وقتٍ طويلٍ، ولذلك قفز عندما سمع اقتراح كاجال وقال:

- هيا نذهب، الجسم يصدأ من الرقاد هكذا.

في الطريق واصلا الحديث عن هجرة الهندوس، وموقف الحكومة من قانون "ملكية الأعداء" في عهد حكومة مجيب، ثم موقف حكومة ضياء الرحمن الذي ألغى مبدأ العلمانية من الدستور، ثم حكومة ارشاد الذي أعلن أن الإسلام ومبادئ القرآن هي القواعد

التي يعاد صياغة الد ستور على أ ساسها. توقفا عند محل للشاي. جلسا في مواجهة بعضهما سأل كاجال:

- هل تأكل شيئاً مع الشاي؟

أطرق سورنجان بالموافقة. بعد أن انتهيا من الأكل طلب كاجال بعض الماء من الصبي الذي يخدمهما:

- هل يمكن أن تحضر لنا بعض الـ"الباني"؟

فوجيء سورنجان باستخدام كاجال لكلمة "باني" في البيت كان دائماً يستخدم كلمة "جال" ولكنه اليوم قال "باني" هل يستخدم هذه الكلمة في العلن دائماً؟ أم أنه خائف؟

كان على وشك السؤال، ولكنه منع نفسه. انتابه شعور بأن عدداً من العيون تراقبهم، أسرع باحتساء جرعة من الشاي، هل هو خائف أيضاً؟ ما الذي يخيفه هكذا؟ حتى أنه "لسع" لسانه بالشاي الساخن، الشاب الصغير، الذي يبدو وكأنه يراقبه من المائدة المجاورة، له لحية طويلة، ويرتدي طاقية على رأسه. إنه في حوالي الواحدة والعشرين من العمر. شعر سورنجان بأنه لا بد أن يكون أحد الذين اختطفوا مايا، وإلا فلماذا ينظر إليه هكذا؟ اعتقد أيضاً أن الشاب يبتسم لهما بسخرية. هل يبتسم لأنه يبعث له برسالة "ما شعورك؟ لقد قضينا وقتاً رائعاً مع أختك .." فجأة لم يعد يحتمل المزيد. نهض بسرعة وقال:

- هيا يا كاجال- دا، فلنذهب لا أحب هذا المكان.

- تذهب؟! بسرعة هكذا.

- نعم، لا أستطيع احتمال هذا المكان.

اليوم العاشر

تقلب سورنجان في فراشه طيلة الليل. منعه الاكتئاب من النوم. جاءت كيرونموي إلى حجرته في الصباح. ربما أرادت أن تسأله عما إذا كان لديه أخبار عن مايا. هل سيعيشون باقي حياتهم دون مايا؟ خلال الأيام القليلة الماضية أصبحت كيرونموي خامدة الهمة أكثر فأكثر. دوائر سوداء ظهرت حول عينيها، وتجعد وجهها. لم تكن تتكلم أو تبتسم أبداً. تظاهر سورنجان بأنه نائم.

على مدار هذه الأيام الرهيبة لم يدع كيرونموي ترى مدى معاناته الداخلية. كانت تترك له الطعام على مائدته كل يوم. أحياناً كان صمتها يثير حمق سورنجان.

أليس لديها ما تقوله لزوجها المريض عن ابنها الحاضر بالبدن فقط، أو عن ابنتها المفقودة؟ هل أصبحت حجراً لا يستجيب لشيء على الإطلاق؟ أليس هناك شيء تعترض عليه؟ كم هي غريبة. سلبية، وقاسية، وجامدة المشاعر كما لو كانت جثة.

قرر سورنجان أن ينام طيلة اليوم. إنه يحتاج إلى النوم لأنه لم ينم جيداً منذ وقت طويل. ولكن في كل مرة يغلق عينيه كانت تمتد نحوه يد حيوانية هائلة ترغب في خنقه. لا يدٌ واحدة وإنّما أيادٍ كثيرة تندفع نحوه. ببساطة لم يستطع أن يحظى بلحظة من السلام..

* * *

نونيجوبال، أحد أقارب سودهاموي البعيدين أتى من ماتيكجوني مع زوجته وابنه وابنته لزيارتهم. لم تبد عليه الدهشة من الخراب الذي حدث لمنزل سودهاموي، ولكنه اكتفى بأن يقول:

- إذن فهم لم يبقوا على منزلك أيضاً؟

لوليتا، زوجـة نونيجوبـال مسـحت السـيندور الـذي يميز نسـاء الهندوس عن مفرق رأسها. وسـحبت السـاري علـى وجهـها لتغطـي أكبر قـدر ممكـن منـه أيضـاً. احتضنـت كيرونموي وبكـت بصـوت مرتفع. ابنتها، لوليتا وقفت تراقبها ببلاهة. لم يستطع سودهاموي أن يتذكر اسمها. كانت في عمر مايـا تقريبـاً، ربمـا أصغـر قليـلاً. نظـر نحوها وامتلأت عيناه بالدموع. مايا لم تعـد هنـا. لـم يسـتطع أن يقـل هذه الحقيقة التي لا تصدق. كان يريد أن يصدق أن مايا بجواره، أو أنها خرجت لتلقي دروسها، وسوف تعود في المساء. الحقيقة أن كل شخص في البيـت كـان يـراوده الأمـل فـي أن مايـا، بعـد أن تُعـذب، وتُغتصب، وتُضرب، سوف تعود ذات يوم. قال نونيجوبال:

- داد، اعتقد أنه لم يعد يمكن البقاء في هذا البلد. ابنتنـا كـبرت، وهذا يزيد رعبنا..

أبعد سودهاموي عينيه عن الفتاة ونظر إلى نونيجوبال وقال:

- لا تقل شيئاً عن الرحيل، لا أرغب فـي سـماع هـذا.. أعـرف أن عائلة جوتام المجاورة لنا سيرحلون أيضاً.ماذا تعتقد أنـك فـاعل؟ أليس هناك مجرمون فـي المكـان الـذي تخطـط للـهرب إليـه؟ أليـس هناك أي شيء يدعو للخوف في هـذه الأمـاكن؟ الفتيـات الصغـيرات غير آمنـات فـي كـل مكـان. هـل تعـرف أن العشـب يكـون أكـثر إخضراراً في أرض الآخرين؟ هذه هي مشكلتك.

نونيجوبـال أحنـى رأسـه. كـان يرتـدي "كورتـا" وبيجامـا مثـل المسلمين. لم يكن هنـاك مـا يقولـه أمـام غضـب سـودهاموي ولذلـك جلس بهدوء، محني الـرأس. فجـأة انخرطـت لوليتـا فـي البكـاء مـن جديد. لم تقم كيرونموي بأي حركة لتهدئتها أو للتحدث مع ضيوفها. لم تسـتطع حتـى أن تقـول إن مايـا أختطفـت. نونيجوبـال كـان تـاجر أخشاب. أحرقوا المخزن الذي يحتفظ فيه بالخشب.. لكـن حتـى هـذا لم يخيفه بقدر ما أخافه احتمال خطف ابنته انجالي.

- دادا، لوليتا لهـا قريـب فـي فينـي بولايـة فرشـاندبور. خطفـوه وسرقوا كل ممتلكاته وقتلوه بعد ذلك، في بنغالي خطفـوا ميكـو ابنـة

شاندرا التي تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً واغتصبوها، ألا تعلم ذلك؟ الفتاة ماتت، في فيد هرام خطفوا ناديتا ابنة مارييندرا هيرا، في بانشهاررامبور خطفوا ابنة كشيتش واغتصبوها. في تانجالي اختطف تاجر مسلم ابنة سودهير شاندرا داس، في بهالوكا خطفوا ابنة بورنا شاندرا باومان، في رانجبور خطفوا ابنة تتكوري شاها، ألم تسمع عن كل هذا؟

سأله سودهاموي بضعف:

- متى حدث هذا؟

- عام ١٩٨٩.

- كل هذا حدث منذ سنوات ولا تزال تذكر كل شيء بوضوح؟

- كيف ينسى المرء هذه الأشياء؟

- ألم تسمع عما حدث للمسلمات، الباريبانو، وأنواره، ومرنووارة، وصوفيا، وسلطانة؟ ألم يُختطفن أيضاً ويُغتصبن؟

مرة أخرى نكس نونيجوبال رأسه، وقال بعد برهة:

- سمعت أنك مريض، في الحقيقة كنت أنوي أن آتي لأراك منذ أيام، ولكن كان يجب أن أتأكد أن الوضع آمن على أسرتي. قبل الرحيل قررت أن آتي لأراك ربما لآخر مرة. سوف نرحل الليلة إلى بنا بول عبر الحدود. لن نستطيع أن نبيع منزلنا وممتلكاتنا ولهذا طلبت من إبن عم للوليتا أن يبيعها لنا متى استطاع.

أدرك سودهاموي أنه لا فائدة من محاول إثناء نونيجوبال عن الرحيل. لكن الأمر بقي كما هو، لا يستطيع أن يفهم ما الذي يأمل فيه الناس من وراء الرحيل. إذا تناقص عدد الهندوس في البلد فسوف يزداد اضطهادهم. في الحقيقة أنه موقف خاسر للذين يبقون وللذين يرحلون أيضاً. وخسارة للفقراء والأقليات.

تساءل سودهاموي: كم بالضبط عدد الهندوس الذين يجب أن يعانوا ويموتوا في هذا البلد من أجل تسديد أخطاء هندوس الهند،

سواء أخطاءهم في الماضي أو في الحاضر؟ لو عرف ذلك، فربما يستطيع أن ينتحر، حتى يقدم بذلك بعض السلام للهندوس.

* * *

في المساء جاءت علية بيجوم، زوجة شفيق أحمد لزيارتهم، من قبل كانت تأتي لزيارتهم يومياً، ولكن في الفترة الأخيرة توقف كثير من زوارهم عن المجيء، حتى أبو حيدر وأمه لم يأتيا منذ أيام. أدرك سودهاموي كم أصبحت كيرونموي وحيدة.

عندما فتحت الباب نظرت بدهشة إلى علية بيجوم، كما لو أنها لا تتوقع أن يزورهم أحد بعد الآن. ولماذا يفعلون؟ منزلهم أصبح صحراء مقفرة لا يناسب سكن البشر، نظر سودهاموي إلى وجه علية بيجوم المبتسم، وملابسها الفاخرة، وحليها المتلألئة، وتساءل عما إذا كانت كيرونموي تشعر بالنقص في حضورها. وكما كان يفعل دائماً سقط في التساؤل عما إذا كان قد ظلم كيرونموي.

لقد أتى بابنة أسرة مثقفة ومتعلمة وثرية إلى هذه الأسرة اليائسة المفلسة، وفوق كل هذا حرمها من احتياجات الجسد على مدار الواحد والعشرين عاماً الماضية.

دائماً مصلحته كانت الأهم، وإلا فلماذا لم يصر على أن تتزوج كيرونموي مرة أخرى. ولكن هل كانت سترحل لو طلب منها ذلك؟ ألم تكن تشتاق سراً إلى حياة مثل حياة علية بيجوم؟ تمتلىء بالبريق والنشاط؟ إنها إنسانة في النهاية،ورحيلها لن يكون مفاجأة له. قال لنفسه ألم يكن خوفه من التواري أمامها هو سبب حبسه لها على الدوام.

لقد كف عن دعوة أصدقائه إلى بيته، ونتيجة هذا أصبح بلا أصدقاء، ولكن ليس هذا ما كان يقلقه، الأسوأ من وجهة نظره هو احتمال أن تنجذب كيرونموي إلى أحد أصدقائه "القادرين". لقد حاول أن يعوضها عن عجزه بحبها بأقصى ما يستطيع، ليقنعها بأنها لا يجب أن تتخلى عن مثل هذا الحب من أجل متع الجسد، ولكن هل من الممكن إرضاء مشاعر أحد بالحب فقط؟ بعد كل هذه

السنوات أدرك سودهاموي أن شيئاً أكثر من الحب ربما كان مطلوباً.

رأت علية بيجوم حطام الغرفة، وسودهاموي نصف المشلول، وسمعت باختطاف مايا، وعبَّرت عن تعاطفها وحزنها، وفي لحظة ما سألت كيرونموي:

- بودي، أليس لكم أقارب في الهند؟

- بلى، كل أقاربنا هناك تقريباً.

- إذن لماذا لا تلحقي بهم.

- لأن هذا بلدي.

لم تستطع علية إخفاء دهشتها من رد كيرونموي. بعد كل شيء، كيف يمكن لكيرونموي أن تقول بثقة علية نفسها، إن هذا بلدها؟ فهم سودهاموي في تلك اللحظة أن كيرونموي وعلية، بالرغم من كونهما امرأتين ومواطنتين في نفس البلد، لا يمكن أن يُنظر إليهما بنفس النظرة، في مكان ما هناك خط رفيع من التمييز يفصل بينهما.

اليوم الحادي عشر

إنه يوم "عيد النصر" الذي حصلت فيه بنجلاديش على استقلالها أخيراً. كلمة استقلال تلدغ سورنجان مثل نملة سامة. البلد مليء كله بالحركة استعداداً للاحتفال بالمناسبة العظيمة. مواكب العروض العسكرية ملأت الشوارع، والجموع خرجت تحييها بسعادةٍ وابتهاج.

فيما مضى كان سورنجان يغادر البيت مبكراً، ويشارك في الاحتفالات التي تجري في كل أنحاء المدينة، ومن ذلك ركوب إحدى الشاحنات وغناء الأناشيد الوطنية . اليوم يشعر سورنجان أن هذا كله تضييع للوقت، هل جنى أي شيء من استقلال، البلد أي استقلال حصل عليه؟

"جوبانجلا، بانجلارجوى" وكل أنواع التمجيد في بنجلاديش التي رددها عدد كبير من الشعراء، على رأسهم رابندرانات طاغور الحاصل على جائزة نوبل، ونازرول وجيبانانا ندا. خطرت ببال سورنجان. وبقدر ما كان يحب الاشتراك في هذه الأناشيد، بقدر مالا يحب ذلك الآن. الحماس الذي ينتابه في هذه المناسبات حاول أن يطل برأسه ولكنه قرر أن يسحقه هذه المرة.

وهو يرقد في فراشه طيلة النهار، ولدت رغبة معينة في رأس سورنجان، استحضر هذه الرغبة السرية بعناية رقيقة، وفعل كل شيء ليحتفظ بها حية، حية لدرجة أنها كانت ستكتسب بالفعل جناحاً وتطير. طيلة اليوم غذّى سورنجان رغبته وسقاها بالماء ورعاها بعناية. راقبها تنمو وتزهر. حتى أصبح بإمكانه أن يتنفس في أريجها.

و أخيراً ترك سورنجان البيت في حوالي الثامنة مساء. أخبر سائق الريكشا أن يذهب إلى أي مكان يرغب فيه. أخذ السائق

سورنجان إلى توبخانا، وبيجوى ،وناجار، وكاكديل، وموج بازار، وأخيراً إلى رومانا. نظر سورنجان إلى زينات المدينة المضيئة.

هل الشوارع المضيئة تعرف أنه هندوسي! لو أنها عرفت، لربما انشقت الطرق الإسفلتية اعتراضاً. الرغبة التي تحترق في كل خلايا ونسيج جسمه، لابد أن تتحقق اليوم بأي شكل . إشباع هذا الجوع ربما لا يحل شيئاً، ولكنه قد يعطيه إحساساً هائلاً بالرضا. الأكثر من هذا أن الاستسلام لهذه الرغبة كان من شأنه، على الأقل إلى حدٍ ما، أن يخفف من غضبه، وأسفه، ومعاناته.

طلب سورنجان من سائق الريكشا أن يتوقف أمام حانة "بار كاونسل" وأشعل سيجارة. لقد فقد الأمل في العثور على مايا، وقرر أن يخبر والديه بألا يتوقعوا عودتها. ربما يكون الأمر أسهل إذا حاولوا أن يتصوروا أنها ماتت في حادث طريق. دار عقله وغرق في اليأس مرة أخرى.

بالأمس فقط تحسنت صحة سودهاموي، وتمكن من ممارسة النشاطات الطبيعية، وانحصر الأمر في التأوه بالألم، والمعاناة طيلة اليوم من فقدان مايا، هذه الحالة المثيرة للشفقة التي لم يكن يطيق سورنجان أن يتحمل النظر إليه فيها. لا بد أنهم يمزقون مايا مثل الطيور الجارحة التي تمزق فريستها. لا بد أنهم صنعوا منها وليمة.. هل استمتعوا بها كما يستمتع أكلة لحوم البشر بالتهام ضحاياهم؟ هذه الأفكار سببت آلاماً رهيبة لسورنجان، كما لو أنه هو الذي يتمزق تحت أسنان سبعة من الضباع.

لم يكن قد أنهى سيجارته، عندما تقدمت من عربة الريكشا فتاة في حوالي العشرين من عمرها، يلمع وجهها الملطخ بالبودرة والماكياج تحت أضواء النيون. ألقى سورنجان بالسيجارة وقال للفتاة:

- تعالي هنا.

استندت الفتاة على العربة، ولفت الساري حول كتفها وابتسمت. سألها سورنجان:

- ما اسمك؟

ضحكت الفتاة وقالت:

- بينكي.

- اخبريني باسمك الكامل؟

- شاميما بيجوم.

- واسم أبيك؟

- عبد الجليل.

- أين تقيمين؟

- في رانجبور.

- ما اسمك مرة أخرى؟

- شاميما.

راود الشك الفتاة. لم يسألها أحد من قبل عن اسم والدها، أو عن مكان سكنها، ما أغرب هذا "الزبون"! نظر سورنجان إلى الفتاة بحدة، هل هي تكذب؟ ربما لا .

- حسناً، ادخلي إلى الريكشا.

دخلت شاميما العربة. طلب سورنجان من السائق أن يذهب إلى تيكاتولي. في الطريق حدّق أمامه ببرود. لم يتحدث إلى الفتاة أو ينظر نحوها.. اقتربت منه وكأنها لا تلاحظ سلوكه، واستمرت في الثرثرة. أحياناً كانت تدندن بأغنية، وفي أحيانٍ أخرى كانت تقهقه ضاحكة. لكن سورنجان لم يبد أي استجابة. فقط كان يشعل سيجارة وراء الأخرى، نظر السائق عدة مرات إلى ركابه، وبدأ ينشز بين حينٍ وآخر ببعض أغاني الأفلام الهندية.

الشوارع غطت نفسها بالزينات،والأضواء الحمراء والزرقاء، كانت تضيئ المدينة كلها. سورنجان وحده لم يكن يشارك في

البهجة. كان هادئاً، ورابط الجأش، يُخطط لكل فعلٍ قبلَ القيام به هذه الليلة.

كان قد أغلق حجرته من الخارج قبل ذهابه، وحتى لا يَطرق الباب الرئيسي أو يتسبب في أي إزعاج عند رجوعه. في الصمت، دخلا الحجرة، وعلى الفور قالت شاميما:

- لم نتحدث في السعر ولا مرة..

أومأ إليها سورنجان بالتزام الصمت قائلاً:

- اسكتي تماماً.

الحجرة لا تزال في فوضى، ملاءات السرير مدلاة حتى الأرض، لا صوت يأتي من الحجرة المجاورة. لا بد أنهما مستغرقان في النوم. أرهف سورنجان أذنيه، سمع سودهاموي يتأوه. هل يعرف أن ابنه العزيز، الطالب اللامع، أحضر إلى البيت عاهرة!

سورنجان، على كل الأحوال، لم يكن ينظر إلى شاميما باعتبارها عاهرة، بالنسبة له هي فتاة تنتمي لطائفة الأغلبية. وكان يتوق إلى اغتصاب واحدة منهم، انتقاماً، لما فعلوه بأخته. أطفأ أنوار الغرفة. ألقى الفتاة على الأرض وعرّاها من كل ملابسها.

تنفس بسرعة وعمق وهو ينشب أظافره في جسد الفتاة. عض صدرها.جزء من عقله كان يدرك أن ما يفعله ليس حباً بالتأكيد. شد شعرها بقسوة، عض خدها وعنقها وثدييها، بأظافره الحادة خربش خصرها، وبطنها، ومؤخرتها، وفخذيها. في النهاية الفتاة ليست سوى عاهرة!! وهو يهاجم جسدها العاري كانت الفتاة تتأوه بالألم، وتصرخ من حينٍ لآخر:

- يا الهي! أنا أموت ألماً..

ضحك سورنجان بوحشية وواصل إيذاءها حتى لم يعد باستطاعته المزيد، وعندئذٍ اغتصبها. وهو يتحرك فوقها أحست الفتاة بخوفٍ شديدٍ. إن هذا هو أسوأ زبون التقت به في حياتها.

تماماً مثل غزالٍ يحاول الفرار من نمر، استطاعت أن تجرّ نفسها بعيداً عنه. أمسكت بساريها وأسرعت إلى الباب.

كان سورنجان قد هدأ الآن، وأزاح عبئاً ثقيلاً عن كاهله. الرغبة التي أحرقته طيلة اليوم تحققت. الآن، كل ما يحتاج إليه لكي يكون سعيداً فعلاً هو أن يرفس الفتاة خارج منزله. بدأ التوتر ينسكب في جسده مرة أخرى، ازداد تنفسه ثقلاً. هل ينبغي أن يرفس الفتاة خارج المنزل؟ وقفت الفتاة عند الباب عارية وخائفة. لم تجرؤ على توجيه أي سؤال منذ أن أمرها بألا تتكلم.

أين مايا يا ترى؟ هل قيدوا يديها وساقيها قبل اغتصابها؟ هل اغتصبها السبعة كلهم؟ مايا المسكينة.. لا بد أنها تعرضت لآلام هائلة، لا بد أنها صرخت عالياً. ذات مرة، عندما كانت في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها صرخت أثناء نومها "دادا.. دادا". أسرع سورنجان إليها ووجدها ترتجف. سألها عن سبب ارتعاشها، حتى بعد الاستيقاظ كانت لا تزال ترتجف، لأن الكابوس لم يكن قد أرخى قبضته عنها. حكت له:

- أنا وأنت ذهبنا إلى قرية جميلة، كنا نتمشى في حقول الأرز الخضراء المزهرة، نتحدث معاً.. وكان هناك بعض الناس أيضاً، يتحدثون إلينا بين فترة وأخرى.. فجأة لم تعد أنت موجوداً وجاء بعض الرجال ليمسكوا بي، كنتُ في غاية الرّعب، وواصلتُ الجري هرباً بعمري وأنا أنادي عليك.

عزيزتي مايا، أيتها المسكينة. فكر سورنجان في أخته المفقودة، وتسارعت أنفاسه من جديد، لا بد أنها محبوسة داخل غرفة في مكان ما، تصرخ طلباً للمساعدة ولكن أحداً لا يسمعها، لا بد أنها تبكي، وليس هناك من يسمعها، ربما كانت داخل غرفة مغلقة تتوسل، وتنزف، وتبكي أمام مجموعة من الحيوانات المتوحشة. أين مايا؟ هذه المدينة صغيرة. ولكنه لم يعلم حتى الآن أين أخته، هل هي في صندوق قمامة، أم في بيت دعارة، أم أنها ملقاة في قاع نهر بورنجانجا؟ أين..؟ آه..، أين مايا؟ كل ما كان

يريده الآن هو أن يمسك بالفتاة الواقفة بالباب ويلقي بها إلى الخارج.

الفتاة المرعوبة من سلوك سورنجان ارتدت ملابسها بأسرع ما يمكنها وقالت:

- اعطني نقودي.

- اخرسي! اخرجي من هنا. أنا أحذرك، اخرجي فوراً!

فتحت شاميما الباب، ووضعت قدماً في الخارج. ترددت ثم عادت إلى سورنجان بنظرة تمتلئ بالتوسل. كان الدم يسيل من خدها وهي تقول:

- حتى لو كانت عشرة تاكا. أرجوك اعطني إياها.

اهتز جسد سورنجان بالغضب. لكن نظرات الفتاة هدأت ثورته بعض الشيء. إنها فتاة فقيرة في النهاية.. تبيع جسدها لتطعم فمها. إنها ضحية النظام الاجتماعي القاسي الذي تجاهل أية إمكانيات قد تكون تتمتع بها، وألقى بها إلى البالوعة. ربما تريد نقود سورنجان لشراء وجبة. سحب سورنجان عشرة تاكا من جيبه وأعطاها للفتاة وقال:

- أنت مسلمة، أليس كذلك؟

- نعم.

- أنتن معتادات على تغيير الأسماء. هل غيَّرت اسمك؟

- لا.

- حسناً، يمكنك الذهاب.

رحلت شاميما. استرخى سورنجان. وَعَدَ نفسه بأنه لن يُرثي حاله اليوم. اليوم هو "عيد النصر" الجميع يستمتعون بثمار الاستقلال الذي فازوا به منذ واحد وعشرين عاماً. اليوم تحقق حدث هام في تاريخ البشرية. شاميما بيجوم جاءت إلى منزل سورنجان دوتا وتم غزوها. أراد أن يفرقع أصابعه، ويُغني أغنية وطنية

معروفة تقول كلماتها: "بنجلاديش حبي الأول والأخير..أعيش لبنجلاديش، وأموت لبنجلاديش".

لم يذكر اسمه لشاميما. كان المفروض أن يخبرها بأنه سورنجان دوتا.. كانت ستعرف ساعتها أن الرجل الذي عضَّها، وجعلها تنزف، هندوسي. نعم، الهندوس يعرفون أيضاً كيف يغتصبون. هم أيضاً لهم أياد، وأقدام، ورؤوس تمتلىء بالأفكار.

أسنانهم حادة، وأظافرهم يمكنها الخدش مثل المخالب.. شاميما فتاة رقيقة وناعمة.. ولكنها مسلمة، لو أنه يستطيع حتى أن يصفع مسلماً، لجعله هذا سعيداً.

تقلب سورنجان بلا راحة بقية الليل. بدا أنه ينعس، ولكن النوم جافاه. طيلة الليل بقي وحيداً في صحبة الصمت، والسكون وإحساس مفزع بعدم الأمان. لقد أراد اليوم أن يقوم بانتقامٍ صغيرٍ، ولكنه فشل . لم يكن قادراً على الانتقام . كل الليل أخذت تعذبه الذكرى الحية لوجه شاميما. شعر بأسفٍ رهيبٍ من أجلها. المفروض أن يشعر بالغضب والقوة، لكنه لم يشعر بذلك. إذن، فأي نوع من الانتقام هذا الذي قام به؟

بل يمكن القول إنه نوعٌ من الهزيمة له. هل كان سورنجان مهزوماً في حقيقة الأمر؟ نعم، بالطبع، كان خاسراً، لأنه لم ينجح في الغدر بشاميما. وضعْـها الاجتماعي هو الذي كان يغدر بها.بالنسبة لها ليس هناك فرق بين ممارسة الجنس والاغتصاب. انكمش سورنجان في فراشه وهو يدرك هذه الحقيقة.

غَمره خجلٌ مؤلمٌ. الوقت متأخرٌ جداً.. لماذا هو يقظ هكذا؟ هل اختل نظامه كله؟ كما لو أن كل شيء داخله يتحطم تدريجياً، منذ أن تحطم مسجد بابري. في الواقع شعر بالأسف لأجل الفتاة التي مزقها برجولته، وعضها، وأدماها بغزارة! لو أنه استطاع فقط أن يمسح الدم عن خديها قبل أن ترحل! هل سيلتقي بها ثانية؟... أبداً! إذا رآها مرة أخرى فسوف يطلب منها أن تسامحه

شعر بالحرارة رغم الجو البارد. ألقى بغطائه.. ملاءة السرير بالقرب من قديمه كانت ملتوية . وضعَ رأسه بين ركبتيه مثل كلبٍ.

في الصباح الباكر أراد أن يتبول، ولكنه لم يرغب في مغادرة سريره. كالعادة جاءت كيرونموي وتركت له الشاي، لكنه لم يشعر برغبة في شربه، شعر برغبة في التقيؤ، وأكبر من أي شيء، أراد أن يستحم بماء ساخن. ولكن من أين يمكنه الحصول على الماء الساخن؟ في بيتهم في براهما بالي، كان هناك حوض اعتاد أن يستحم فيه في صباحات الشتاء الباردة. كان يحب الاستحمام في هذا الحوض الفاخر.. ولكن أين يمكنه أن يجد مثله الآن؟ لقد كره الاستحمام بحصة الماء القليلة في الحمام. لماذا يجب أن تكون الحياة بهذا البخل والتقتير؟

اليوم الثاني عشر

نهض سورنجان من فراشه في العاشرة من صباح اليوم التالي. كان يغسل أسنانه في الشرفة عندما سمع أشرف، ابن خادم علي، يقول لكيرونموي:

- ما شيما، إن بوتو كان يقول ليلة أمس إنهم عثروا على جثة فتاة طافية تحت جسر جنداريا تشبه مايا.

تيبست قبضة سورنجان على فرشاة الأسنان، وسرت رعشة خفيفة في جسده. أحسَّ أنه وحيد بشكل مرعب، وفظيع. لم يتمكن من سماع شيء من أركان البيت الأخرى. لا بكاء، لا شيء. المنزل كله صامت وساكن بشكل غير طبيعي. كما لو أن أقل جملة تقال سيكون لها صدى على حوائط الصمت التي ترتفع حول البيت. كما لو أن أحداً لا يعيش في هذا المنزل على مدار الألف سنة الماضية سوى سورنجان.

كل المدينة راقدة في هدوء. لم تستيقظ بعد من احتفالات "عيد النصر" ليلة أمس.

كان لا يزال واقفاً يحمل فرشاة أسنانه عندما مَرَّ حيدر. بالتقاء عيونهما تطلَّب الذوقُ أن يتبادلا التحية. توقف حيدر وسأل سورنجان:

- كيف حالك؟

ابتسم سورنجان قائلاً:

- رائع!

كان متوقعاً أن يدور حوارهما حول مايا، ولكن لم يحدث. استند حيدر على سور الشرفة وقال:

- بالأمس، في جامعة راجشاهي، بعد الاحتفالات، نبش أعضاء "معسكر الجماعة" المقابر الجماعية.

بصق سورنجان بعض معجون الأسنان على الأرض وقال:

- ماذا تعني بالمقابر الجماعية؟

نظر حيدر إليه مدهوشاً:

- ألا تعلم معنى المقابر الجماعية؟

هزّ سورنجان رأسه. تكدّر وجه حيدر بالارتباك. كيف يمكن لسورنجان، الذي كان في وسط حركة الأحداث خلال حرب الاستقلال، ألا يعرف معنى المقابر الجماعية.

فكر سورنجان، إذا حطم أفراد المعسكر شواهد القبور الجماعية فأهلاً وسهلاً بهم، إنهم يحملون أسلحة، وإذا وجدوا أي سبب لاستخدامها، فمن يستطيع أن يمنعهم؟

حتى إذا حطموا الاستقلال غير المرئي، والوطن ذاته، بكل من حاربوا لأجله، فمن يُمكنه أن يمنعهم؟ سوف تُنظم بعض المسيرات والاجتماعات، وتُردد بعض الشعارات مثل "لا بد من إنهاء سياسات قادة شباب جماعة شيبر" . وسيكون هذا كل شيء.

هذه الاعتراضات لا يمكن أن تغير شيئاً. بعد ومضة انزعاجه سقط حيدر في الصمت.بدا أنه يرغب في قول شيءٍ ما، بعد لحظات قال :

- هل عرفت؟ بارفين هنا هذه الأيام . لقد طلقت زوجها.

لم يعلق سورنجان. لم يشعر بأقل الأسف على طلاق بارفين. على العكس كان سعيداً. لقد أصروا على تزويجها لمسلم بدلاً من

الهندوسي، وها هم يرون إلى أين أدى بهم ذلك! شتم سورنجان بارفين شتيمة جنسية في خياله. في هذا الوقت المبكر من الصباح ،وخصوصاً، والمرء يغسل أسنانه، ليس للشتيمة الجنسية أي جاذبية. ولكن في هذه الحالة طالما أنه يقتصر على عقله، كان للأمر جاذبيته. بعد برهة قال حيدر:

- أراك فيما بعد.

ثم رحل. لم يقل سورنجان شيئاً على الإطلاق.

أصبح سودهاموي قادراً على الجلوس الآن. بمساعدة مخدة تسند ظهره جلس يستمع إلى صمت المنزل. فكر في أن الشخص الوحيد الذي كان يرغب في الحياة في هذا البيت هو مايا. لولا مرضه، لما أتت مايا من عند بارول، ولما اختطفوها بهذه الطريقة. يقولون إن شخصاً ما رأى جثتها تحت الجسر. من يذهب ليتعرف على الجثة؟ عرف سودهاموي أن أحداً من أسرته لن يذهب لأنهم يريدون جميعاً أن يصدقوا أنها ستعود في يوم من الأيام. إذا تعرفوا على الجثة، واتضح أنها مايا، فسوف يتلاشى الأمل في أنها ستعود خلال يوم أو يومين، أو ربما شهر أو شهرين، أو حتى أطول من ذلك. هناك أنواع من الأمل تساعدنا على الحياة. القليل جداً في هذه الحياة يجعلها تستحق أن نعيشها، ولذلك لا معنى في أن نفقد هذه الآمال التي تجعل الحياة تستمر. استدعى سورنجان. مر وقت طويل دون أن يفعل ذلك . طلب منه الجلوس بجواره، وقال بصوت منكسر:

- أخجل من الجلوس هكذا خلف الأبواب والنوافذ المغلقة.

- هل تشعر بالخجل، حسناً، أنا أشعر بالغضب.

- أيضاً أنا قلق بشدة عليك.

- لماذا؟

- تعود للبيت متأخراً. هاريبادا جاء أمس. الموقف في بهولا ازداد سوءاً. الآلاف فقدوا منازلهم، ونساء كثيرات تعرضن للاغتصاب.

- هل هذه أخبار بالنسبة لك؟

- طبعاً، هي أخبار. وهذا سبب قلقي عليك يا سورنجان.

- قلقٌ عليَّ؟ لماذا؟ ألست قلقاً على نفسك وعلى أمي؟

- ما الذي سيفعلونه بنا؟

- سيقطعون رأسيكما، ويلقون بهما في نهر بوريجانجا . ألا تزال لا تفهم طبيعة الناس في هذا البلد؟ سوف يصنعون وجبة من أي هندوسي يعثرون عليه. لن يُفرقوا بين شابٍ وعجوزٍ، يمكنني أن أؤكد لك هذا.

تغضنت جبهة سودهاموي بالغضب:

- ألست واحداً من "ناس هذا البلد"؟

- لا، لم أعُد اعتقد أنني جزء من هذا البلد. إنني أحاول جاهداً ولكن لا أستطيع. من قبل، عندما كان كاجال- دا يتكلم عن التحيُّز للمسلمين كنت انزعج وأقول له "لا تضيّع وقتنا بكم خسر الهندوس وكم يتعرضون للحرمان. هناك الكثير مما يجب أن نعمله في هذا البلد. الأفضل أن نفكر في هذا". الآن أدرك أنه كان على حق. إنني أتغيَّر. لم يكن ينبغي أن تكون الأمور هكذا يا بابا...

صوت سورنجان كان يتلعثم. ربت سودهاموي على ابنه مُطمئِناً وقال:

- الناس يتحدثون عن هذا فعلاً، ويعترضون أيضاً، الصحف تنشر التقارير عن كل ما يحدث، المثقفون يدلون بآرائهم كذلك .

سورنجان كان متضايقاً الآن وهو يقول:

- كل هذا لغو وهراء. فريق يقتحم الميدان بالسكاكين والفؤوس، بينما الفريق الآخر يرد بأصوات مرتفعة، وأيادٍ عزلاء. هذا لن يجدي. الفأسُ يجب أن يُقابل الفأسَ. من الحماقة أن نواجه سلاحاً بأيدي عارية.

- هل تريد أن نتخلى عن أفكارنا الرفيعة؟

- أية أفكار تتحدث عنها؟ كل هذا هراء.

خلال الأيام القليلة الماضية، ازداد شَعرُ سودهاموي شيباً. لقد أصبح ظلاً لنفسه القديمة، لكن عقله لا يزال متمسكاً بمعتقداته.

- لا تنس أن الناس، هنا، يعترضون على الأقل. كم من البلاد يُسمح لك بهذا؟

لم يتكلم سورنجان. كان يفكر في أن اسم" جمهوريةبنجلاديش الشعبية" سوف يتغير قريباً جداً إلى "جمهورية بنجلاديش الإسلامية". تعاليم الإسلام سوف توجه أسلوب الحياة في البلد. النساء سوف يرتدين النقاب، وعدد الرجال الذين يرتدون الطواقي، ويطيلون اللحى سوف يزداد أيضاً.عوضاً عن المدارس والكليات العادية سيكون هناك عدد كبير من المساجد والمدارس الدينية، وببطء، ولكن بثقة، سوف يُذبح كل الهندوس. التفكير في هذا جلب القشعريرة إلى عظامه. إذا قُدّر لهم أن يعيشوا بعد ذلك، سوف يبقون في بيوتهم مثل أعداء المجتمع أو المجللين بالعار.

إذا رأى مسيرة في الشارع تعترض على شيء ما، سوف يبقى في بيته تجنباً للخطر. المسلمون فقط سيمكنهم الاعتراض دون تردد، ولكن الهندوس لن يستطيعوا ذلك . الحاضر نفسه ليس أفضل من هذا. أن يُقال إن الهندوس يُضطهدون أمر يُفضل أن يقوله مسلم وليس هندوسي. وذلك لأنه ليس هناك بديل. إذا غامر هندوسي بالاعتراض بصوتٍ عالٍ، فأنه يُخاطر بقطع عنقه في منتصف الليل

عقاباً له. إذا ارتكب مسلم جريمة سوف يُعاقب، ولكنهم سيبقون على حياته. أما إذا قال سودهاموي شيئاً لا يجب قوله، فقد يأتون لقتله في منتصف الليل. إذا قرر الهندوس أن يغضبوا، فلن يرد عليهم المتعصبون فحسب بل المسلمون التقدميون المتمدنون أيضاً. التقدميون في واقع الأمر يُصنِفُونَ أنفسهم إلى هندوس ومسلمين! فكر سورنجان في نفسه كرجلٍ متمدن. الآن، بدأ هو نفسه في الشعور بأنه هندوسي. مرة أخرى راوده التفكير. هل هو يتعفن من الداخل؟ إنه مقتنع الآن بأنه يتعفن. طلب سودهاموي من سورنجان أن يقترب. وسأله بصوتٍ منكسر:

- ألن نعثر على مايا على الإطلاق؟

- لا أعلم.

- كيرون لم يغمض لها جفن منذ الاعتداء. وهي قلقة عليك أيضاً. إذا حدث لك أي شيء..

- إذا كان يجب أن أموت سأموت. الكثيرون يموتون على أية حال.

- الآن يمكنني الجلوس. كيرون تساعدني على أخذِ حمامي . ولكن إذا لم أعد إلى لياقتي، فلن أكون في حال تسمح لي بفحص المرضى. لم ندفع أيجار البيت منذ شهرين. ربما لو حصلت على عمل ..

- لن أعمل لدى غرباء ..

- في الواقع أسرتنا.. أعني أنه لم يعد لدينا أرض. حقل مليء بالأرز، وحوض مليء بالسمك، ومزرعة ممتلئة بالبقرات الحلوب.. نعم أنا ملَكتُ كل هذا. أنت لم تر شيئاً منه، وذلك يؤسفني جداً. لقد بعت أرضنا في القرية. لو أن جزءاً منها كان لا يزال لدينا لكان بإمكاننا أن نبني بيتاً صغيراً، وننفق فيه ما بقي من عمرنا.

خرج سورنجان عن هدوءه وصاح في والده بغضب:

- لا تتكلم مثل الحمقى. هل كنت تستطيع العيش في القرية؟ ألم تدرك أن كبار رجال القرية كانوا سيأتون بقضبانهم ويسحقون رأسك لإجبارك على التخلي عن كل ما تملكه؟

- لا يجب عليك أن تشتبه في الجميع. بالتأكيد هناك بعض الطيبين؟

- لا .. لم يعد هناك أحد منهم.

- أنت متشاءم دون داع.

- ليس دون داع.

- ماذا عن أصدقائك؟ كل هذه الأيام التي درست فيها الشيوعية، وانضممت إلى الحركات الشعبية، وناقشت فيها هذه الأفكار مع أناس عقلاء.. أليس هؤلاء من الطيبين؟

- لا، ولا واحد منهم. كلهم طائفيون.

- هل أصبحت أنت نفسك طائفياً.

- أنا كذلك. هذا البلد جعلني طائفياً. ولا يلومني أحد.

قال سودهاموي بشك:

- هذا البلد جعلك طائفياً؟

- نعم هذا البلد.

ضغط سورنجان بأسنانه على كلمة "البلد". صمت سودهاموي.وأخذ سورنجان ينظر إلى حطام الغرفة. شظايا وقطع الزجاج لا تزال على الأرض. ألا تمزق هذه أقدامهم؟ لقد مزقت قلوبهم بالفعل.

رقد سورنجان في فراشه طيلة النهار، لم يشعر برغبة في الذهاب إلى أي مكان. ولا برغبة في الحديث مع أي شخص. هل يجب أن يذهب ليلقي ولو نظرة سريعة إلى الجثة التي وجدوها تحت الجسر؟ هل يجب أن ينظر إلى الهيئة المنتفخة بالماء لمايا، لو كان هذا جسدها فعلاً. لا. قرر ألا يذهب إلى أي مكان.

قبل المساء بوقت قصير نهض من الفراش وبدأ في التجول في الفناء. فجأة قرر أنه يجب أن يفعل شيئاً ما. دخل البيت وأخرج كل كتبه، وكومها على الأرض. في الداخل اعتقدت كيرونموي أنه يخرج الكتب ليضعها في الشمس لإخراج دود الكتب منها.

"راس المال" أفكار لينين، انجلر وماركس، مورجان، جوركي، ديستوفسكي، تولستوي، سارتر، بافلوف، وطاغور، ومانيك بانديو بادهايا، نهرو، آزاد. كتب في علوم الاجتماع والاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، كتب في حجم الصخور، وكتب أصغر من ذلك بكثير.. عندما انتهى من جمعها كلها وصفّها على الأرض، أشعل عود ثقاب ورماه فوق الكتب،فأخذت تحترق.

تماماً كما يفعل المسلمون الأصوليون عندما يشاهدون الهندوس، هكذا تفعل النار عندما تجد الورق. امتلأ الفناء بالدخان الأسود. رائحة الورق المحترق نبهت كيرونموي فجاءت من غرفتها. ابتسم لها سورنجان وقال:

- هل تريدين أن تدفئي نفسك على النار؟ لماذا لا تأتين؟

سألته كيرونموي بصوت قلق:

- هل جننت؟

- نعم يا أمي. طيلة عمري كنت فتى طيباً. الآن قررت أن أصبح مجنوناً. إذا لم يكن المرء مجنوناً، فليس هناك أي راحة.

وقفت كيرونموي بالباب تراقب لهيب أضحية سورنجان. لم تندفع إلى الحمام لتحضر بعض الماء لإطفاء النيران كما يفترض أن تفعل. خلف الدخان الكثيف كان جسم سورنجان يظهر كشبح. تخيلت كيرونموي أن ولدها يحترق الآن مع كتبه.

داخل المنزل زاد من هَمّ سودهاموي أن ابنه اللامع، المجتهد في دراسته، الذي كان محصناً ضد السُم حتى الآن، كان، الآن، يَتجرَّع السُم بنفسه . طيلة هذه الساعات من الرقاد في الفراش، والمناقشات الصاخبة مع أصدقائه، وشتم المسلمين، والآن حرق الكتب..

أدرك سودهاموي مدى الجرح الذي يعاني منه سورنجان ومدى امتلائه بالألم.

لقد تألم على يد أسرته، ومجتمعه، وفوق ذلك بلده، واليوم يحرق نفسه في لهيب عقدة النقص.

ابتهج سورنجان بالنيران. في كل أنحاء البلد هكذا تُحرق بيوت الهندوس. ولكن هل هم يَحرقون البيوت والمعابد فقط، ألا يحرقون قلوب وعقول الهندوس أيضاً؟

عزم سورنجان على نبذ أفكار سودهاموي المثاليةاعتباراً من اليوم. سودهاموي كان يؤمن بأيدلوجية اليسار، وسورنجان تربى على دوجمائيته، ولكنه لن يتمسك بها لأكثر من ذلك. لماذا يفعل، وهو قد سمع اليساريين أنفسهم يَصِفون الهندوس بالأوغاد!

عينا سورنجان المحروقة بالدخان، امتلأت بالدموع . هل هي دموع الأسى، أم أنها بسبب الدخان فحسب؟ شعر بسعادة عندما انطفأت النيران ولم تبق على شيء من الكتب سوى الرماد. حتى الماضي القريب كانت تشحنه بأفكارها ومبادئها الزائفة. كان مريضاً ومجهداً من هذه المبادئ. وتمنى أن يرفس هذه المبادئ بكل قوته. لماذا يلتزم وحده بمثل هذه المعتقدات؟ معظم الناس يرشفون

من كوب المعرفة ولا يشربون منه أبداً. لماذا يعبُّ هو وحده بغباءٍ من نبع المعرفة؟

عندما انتهت الأضحية أراد أن ينام، حاول، ولم يستطع. واصل التفكير في راتنا. لم يلتق بها منذ فترة طويلة. تساءل عن أحوالها. فكر في أن عينيها السوداوين العميقتين معبرتان للغاية حتى أنها لا تحتاج إلى أن تتكلم. لا بد أنها تأمل في أن يأتي سورنجان ذات يوم، ويطرق بابها، ويجلسان، ويتحدثان معاً عن حياتهما أثناء تناول الشاي. وهو راقد في السرير، قرر أن يزورها هذا المساء وأن يقول لها:

- لماذا ينبغي أن أكون أنا فقط الذي يأتي لزيارة الناس؟ ألا يرغب الآخرون في زيارتي؟

تَمَلَّك سورنجان شعوراً غريباً، بأنه ذات مساءٍ كئيبٍ سوف تأتيه راتنا فجأة وتقول له:

- شعرت بأنني وحيدة جداً يا سورنجان، ولذلك فكرت أن أجيء لرؤيتك.

لقد مر زمن طويل منذ أن قبّله أي أحد. بارفين اعتادت أن تقبله. كانت تحتضنه بقوة وتقول:

- أنت مُلكي، مُلكي أنا فقط. اليوم سأقبلك مائة قبلة.

وحين تدخل كيرونموي الغرفة، فجأة، كانا يسارعان بالتباعد. مع ذلك اختارت بارفين أن تتزوج شخص مسلم، على أمل أن تتجنب كل أنواع المشاكل.مع راتنا ليس هناك تعقيدات طائفية وعقائدية، ولقد وضع حياته التعيسة تحت قدميها وهي تعرف كل شيء عنها.

لا بد أن يزورها هذا المساء. هكذا قرر، أن يغسل كل التراب، وسخام الحريق عن جسده، ويرتدي قميصاً نظيفاً، ويذهب إلى

بيتها. عندئذٍ سمع صوت رنين جرس الباب.فتحه ليجد راتنا عند العتبة. بدت جميلة وهي ترتدي سارياً ساحراً، وتغطي يديها بالأساور التي تصدر رنيناً عندما تحركها. ابتسمت وامتلأ هو عجباً من جمالها ونعومتها.

- تعالي، تفضلي بالدخول..

بينما كان يدعوها سورنجان للدخول لاحظ شاباً وسيماً يقف خلفها. أين يمكن أن يدعوهما للجلوس؟ الغرفة في حالة مزرية. أعطاها مقعداً مكسوراً لتجلس عليه.

ابتسمت راتنا وقالت:

- احزر من الذي أحضرته معي؟

لم يلتق سورنجان بأخيها من قبل وتساءل عما إذا كان هو هذا الشاب الصغير.

جلجل صوت راتنا مثل أساورها وهي تقول:

- إنه هيومابن، زوجي.

دوامة عنفية اجتاحت قلبه. آخر شجرة لجأ إليها اقتلعت من جذورها أمام عينيه.

كان يأمل أن يعوض حياته الضائعة بالاستقرار مع راتنا، ولكنها كانت هنا مع زوج مسلم!امتقع وجهه بالغضب. كيف تفعل به هذا! فكر في الجرأة التي واتتها لكي تحضره إلى هنا. بالتأكيد هو لا ينوي أن يجلس مع راتنا وزوجها الوسيم، وربما الغني أيضاً، ليجري معهما حواراً صغيراً في غرفته الفقيرة المحطمة. ولا كان يرغب في أن يصافحهما، ويطلب منهما تكرار الزيارة. فلتذهب كل هذه الواجبات الاجتماعية إلى الجحيم. التفت إلى ضيفيه وقال بجفاء:

- أخشى أنني مضطرٌ إلى الخروج لتأدية بعض الأعمال الطارئة وليس لدى وقت للحديث معكما.

المفاجأة والغضب تبديا على وجهيهما. وبسرعة اعتذرا عن الإزعاج ورحلا. وقف سورنجان متبلد المشاعر وقتاً طويلاً ولم ينتبه إلا عندما جاءت كيرونموي إلى حجرته وقالت:

- هل أعدت المال الذي اقترضته؟

كلمة "اقترضته" بدت وكانها سهم مسموم يقتحمه. نظر إلى كيرونموي دون أن ينطق بكلمة.و شعر بالاختناق. بدت له غرفته كصندوقٍ حديدي لا مخرج له. خرج إلى الشرفة لبعض الوقت، ولكن لا شيء كان بمقدوره أن يمنع عنه الحزن الذي غمره مثل المطر الغزير. جاءت كيرونموي بكوب من الشاي. وضعته على المائدة في صمت، كعادتها، ورحلت. لم يحاول سورنجان أن يشرب الشاي. رقد في سريره برهة ثم نهض مرة أخرى. هل ينبغي أن يذهب إلى الجسر لفحص الجثة؟ التفكير في ذلك كان يزعجه. فجأة ظهرت أمام عينيه صورة للجسد الطافي في نزح مياه الصرف خارج المنزل. البيت كله صامت مثل بركة عتيقة. مثل الحشرات التي تعوم فوق الماء الصامت في هذه البرك، كان أفراد البيت الثلاثة يمشون بحذر داخل هذا المبنى المتداعي دون أن يلتقوا، ودون أن يتواصلوا مع بعضهم البعض أبداً.

دون أي انذار قطعت كيرونموي صمت البيت. بدأت في النحيب بصوتٍ كانه يأتي من أعماق الأرض، شديداً وغير محتملٍ حتى أن سودهاموي جلس مشدوهاً، هرع سورنجان إليها، ليجدها واقفة تستند برأسها إلى الحائط وتبكي بلا قدرة على التحكم، أدرك سورنجان أن هذه الدموع لا يمكن إيقافها، هذه الدموع كان لا بد لها أن تنطلق.

لأيامٍ وليالٍ حبست هذه الدموع، ولكن السد انهار، وليس هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار. جلس سودهاموي ساكناً محني الرأس. نحيبها الوحشي يمزق قلبه، ويشعره بالعجز. أجهشت وأجهشت ولكن أحداً لم يسألها عن سبب بكائها. لم يكن هناك حاجة للسؤال، ولم يُعزّها أحد، لأنه لم يكن هناك أحد يستطيع ذلك.

سورنجان الذي بقي واقفاً عند باب الغرفة، مشى الآن بهدوء خشية أن تزعج خطوات قدميه دموعها. منزل الأحلام انهار حتى الأساس، واحترق حتى الرماد. وكما صدمتهم كيرونموي بنحيبها المفاجئ، هكذا فعل سورنجان أيضاً انفجر بالبكاء.نظر إليه سودهاموي مذهولاً. أمسك سورنجان بيدي أبيه بين يديه وقال بتوسل:

- أبي، كنت أفكر في شيء واحد طيلة الليلة الماضية. أعلم إنك سترفض اقتراحي، ولكن أرجوك أن تقبله. أرجوك يا أبي.. أرجوك. فلنرحل عن هنا.

- نرحل إلى أين؟

- إلى الهند.

بدا الاستياء على وجه سودهاموي، كأن ابنه قد شتمه. كما لو أنه لم يكن يتوقع منه أن ينطق حتى بهذا اللفظ. توقفت دموع كيرونموي بالتدريج. إهتز جسدها باضطراب، وجلست على الأرض. واصل سودهاموي النظر إلى ابنه بقرف وهو يقول:

- هل الهند موطن أبيك، أو موطن جدك؟ هل أحد من أسرتك يعيش في الهند؟ هل تريد أن تريد أن ترحل عن وطنك.. ألا تخجل من هذا؟

- أي وطن تتحدث عنه يا أبي؟ ما الذي أعطاه هذا الوطن لك؟ ما الذي يعطيه لك الآن؟ ما الذي أعطاه لمايا؟ لماذا تبكي أمي هكذا؟ لماذا تتأوه أنت كل لياليك؟ لماذا لا أستطيع أن أنام؟

- حوادث العنف تتشب في كل مكان. أليس هناك حوادث عنف في الهند؟ ألا يموت الناس هناك؟ هل أحصيت عدد الذين ماتوا هناك؟

- لو أنها كانت حوادث عنف لفهمت ذلك يا أبي، ولكنها ليست كذلك. إنها ببساطة حالة قيام مسلمين بقتل الهندوس.

- هل تسمي نفسك هندوسياً إذن؟

حاول سودهاموي أن ينهض من فراشه ثائراً، لكن سورنجان أعاده إلى الجلوس بيديه وواصل التوسل.

- مهما قلنا إننا ملحدون، أو أننا إنسانيون، هؤلاء الذين في الخارج سيقولون إننا هندوس. سيقولون إننا أولاد حرام. كلما أحببنا هذا البلد، وكلما فكرنا أنه وطننا كلما أجبرونا على الاختباء في الزوايا. كلما أحببنا أناس هذا البلد، كلما عزلونا. لا نستطيع أن نثق فيهم يا أبي. أنت عالجت الكثيرين منهم دون مقابل، ولكن كم منهم أتى ليقف بجانبك في محنتك؟ عاجلاً أو آجلاً سوف نُدفع جميعاً تحت أحد الجسور لنموت. أبي، دعنا نذهب.. دعنا نذهب..

- مايا سوف تعود.

- مايا لن تعود يا أبي. مايا لن تعود.

صوت سورنجان كان مُثقلاً بالحزن. عاد سودهاموي بظهره إلى فراشه. جسده أصبح منهكاً وغمغم بضعف:

- إذا لم استطع أن أحمي مايا، فمن سأحمي إذن؟

- أنفسنا. هل يجب أن نبقى لنبكي فقط على خسارة ما قد خسرناه بالفعل؟ وفي وسط هذه الأوقات العصيبة؟ ليس لدينا اطمئنان، ليس لدينا شيء. أرجوك فلنرحل عن هنا.

- ما الذي سنفعله هناك؟

- أي شيء ما الذي نفعله هنا؟ هل أحوالنا على ما يرام هنا؟ هل نحن سعداء؟

- سيكون وجودنا بلا جذور..

- ما الذي ستفعله بالجذور يا أبي؟ إذا كانت جذورك بهذه القوة فلماذا إذن تختبئ خلف الأبواب والنوافذ المغلقة؟ هل ستبقى مختبئاً لبقية عمرك؟ لقد أصبحت عادة لديهم أن يقتحموا بيوتنا ، وأن يقتلوننا. أشعر بالعار من العيش مثل الفأر يا أبي، العار يمزقني، ولكن يدي مقيدتان. عندما أغضب هل أستطيع أن أحرق بيتين من بيوتهم؟ لماذا يجب أن نكتفي بالجلوس ومشاهدة أنفسنا ونحن نُهان ونُشرَّد؟ إذا صفعني مسلم، لماذا لا يحق لي أن أرد الصفعة؟ لا يا أبي.. فلنرحل عن هنا. أرجوك.

- الموقف يهدأ الآن بعض الشيء. لماذا تقلق هكذا؟ لا يجب أن تترك نفسك لمشاعرك.

- يهدأ؟ هذا مظهر خادع تماماً. تحت الأعماق سيظل هناك الحقد والقسوة. إنهم ينتظروننا بأظافر وأسنان عارية، بأفخاخ لن نتوقعها أبداً. لماذا تخليت أنت عن "الدهوتي" لترتدي البيجاما؟ لماذا لا تحظى بحرية ارتداء "الدهوتي"؟ فلنرحل بعيداً..

زمجر سودهاموي في غضب:

- لا، لن أذهب. اذهب أنت إذا أردت.

- ألن تأتي؟

حوّل سودهاموي نظره بعيداً في استياءٍ وقال:

- لا.

توسل سورنجان:

- أسألك مرة أخرى يا أبي.. من فضلك دعنا نرحل

كرر سودهاموي بحزم:

- لا.

كلمة "لا" هوت مثل قضيب حديدي على ظهر سورنجان. لقد كان يعرف طيلة الوقت أن محاولاته لن تسفر عن شيء. كان سودهاموي عنيداً، وشديد التمسك بأفكاره، حتى أنه ليس هناك وسيلة يمكن بها أن تهزه. يمكن أن يُركل، ويُضرب، ولكنه لن يخلع جذور نفسه عن أرض وطنه. ثعابين وعقارب هذه الأرض يمكن أن تلدغه، ولكنه سيظل يسقط عليها.

توقفت كيرونموي عن البكاء، كانت تحدق الآن باستغراق إلى صورة رادها- كريشنا في ركن الغرفة. بدا أنها تصلى للرب كريشنا، من أجل حياة خالية من الهم، والقلق، وعدم الأمان والعذاب والموت. بدا سورنجان وكأنه محكوم علية وحده بالسباحة ضد تيار اليأس. هبط الليل. في آخر الليل انكسرت فوقه موجة كاسحة من الإحساس بالوحدة. ليس بمقدوره أن يقول عن أي شيءإنه ملكه. ليس هناك أحد يعتمد عليه. كان غريباً في وطنه. فهمه، بصيرته وإحساسه بالعالم كانوا يتلاشون إلى لا شيء. بدا كما لو أنه قد وصل إلى آخر طريقه تقريباً..

بدوا جميعاً وكأنهم ينتظرون حدوث شيء فظيع لحياتهم. الآن، ليس من أجل مايا، ولكن من أجل مستقبله هو، كان قلبه يدق متسارعاً بالخوف والترقب.

كانوا وحدهم جميعاً، وحدهم للغاية.. بالتأكيد معارفهم وأصدقاؤهم المسلمون قاموا بزيارتهم من وقت لآخر، ولكن لا أحد منهم منحهم الاطمئنان، على أن الحياة مأمونة في هذا البلد. لا أحد كان بإمكانه أن يقول لهم: "لا داعي للقلق. لا تتحنوا من الخوف. يمكنكم السير بأمان والعمل بلا خوف، والضحك من القلب، والنوم في سلام."

طيلة الليل كان سورنجان يتقلب في فراشه.

اليوم الثالث عشر

أخيراً نام سورنجان في ساعات الليل الأخيرة. وفي نومه انتابه حلم غريب. كان يمشي وحيداً بجوار النهر. وأثناء سيره جاءت موجة عالية وسحبته إلى العمق.

حاصرته دوامة، وبدأ في الغرق ببطء. كان يريد النجاة، ولكن أحداً لم يكن هناك ليجره إلى الشاطئ. وأثناء غرقه في هذه المياه العميقة وجد سورنجان نفسه يتصبب عرقاً.

في اللحظة الأخيرة لمسته يد رقيقة وأيقظته. كان يائساً ومرعوباً وهو يغرق في الدوامة ولا أحد يسمعه، اكتشف في آخر لحظة اليد التي امتدت لإنقاذه. أمسك بها بكل قوته.

عندما أكمل الاستيقاظ، وجد أن ما يمسك به لم يكن سوى يد سودهاموي القوية. بمساعدة زوجته استطاع سودهاموي أن يمشي حتى سرير سورنجان، حيث كان يصرخ ولده تحت قبضة الكابوس. الآن جلس سودهاموي ممسكاً بابنه، وعيناه تشعان بضوء غريب.

- أبي

قفز سؤال أخرس داخل قلب سورنجان. الفجر أشرق تقريباً ومن خلال شقوق النافذة كان يتسلل ضوء الشمس. قال سودهاموي:

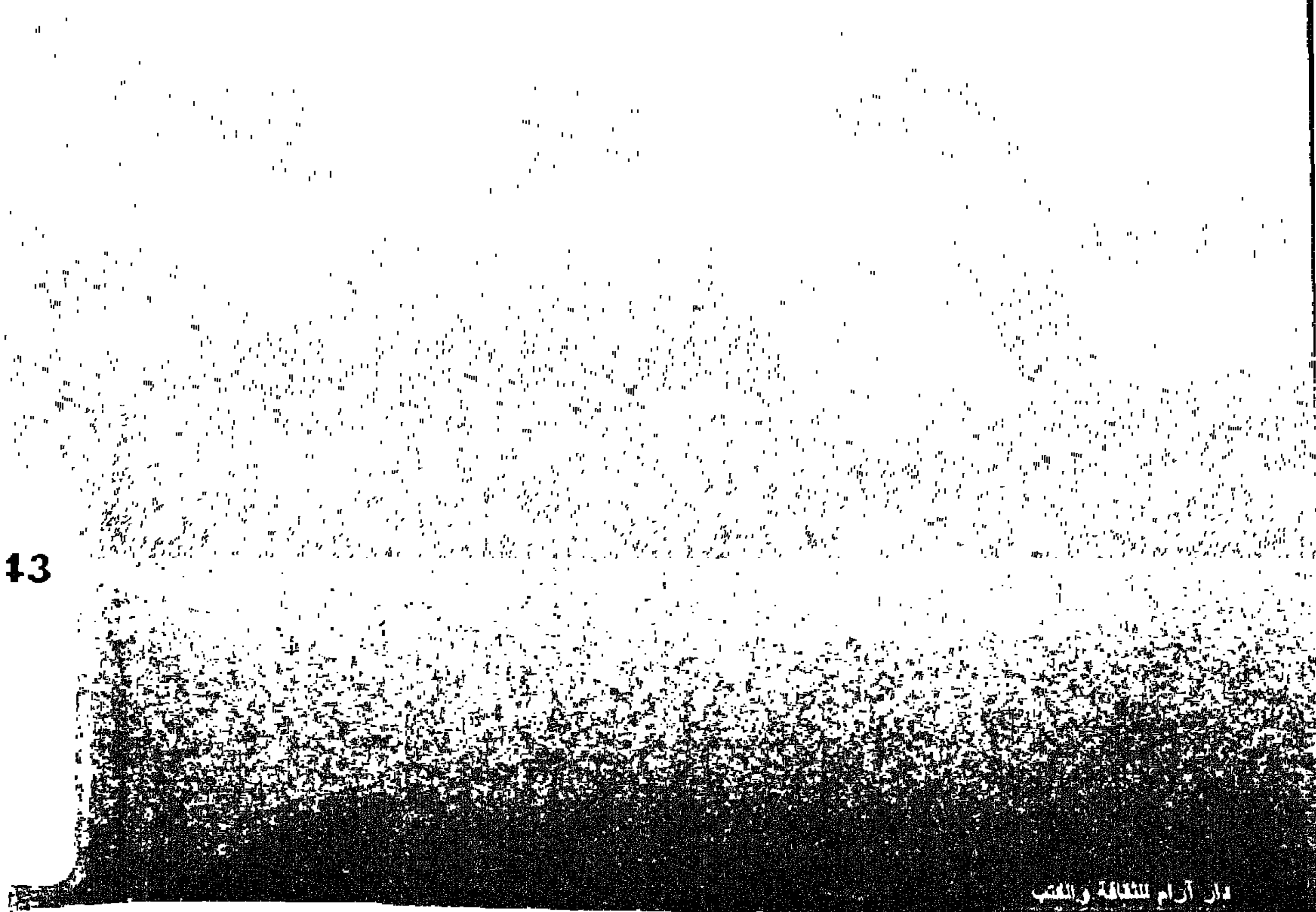
- هيا، فلنرحل.

قال سورنجان باستغراب:

- إلى أين سنرحل يا أبي؟

- إلى الهند.

كان صوته يتكسر، والخجل يغمره، ولكنه نطق بها، أجبر نفسه على قولها. أجبر نفسه على أن يقول إنهم راحلون، وأدرك أن هذه هي الوسيلة التي يجب أن ينتهي بها الأمر، لأن الجبل القوي الذي بناه داخل نفسه كان يتضاءل يوماً بعد يوم.



43

دار آرام للثقافة والكتب
هاتف - فاكس 6316870 - [illegible]10741
الفاكس 6316870 ص.ب 36130